علم المعاني

دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني

الجزء الأول

تأليف

د. بسيوني عبد الفتاح فيود

أستاذ البلاغة والنقد

كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

مؤسسة المختار

للنشر والتوزيع - القاهرة

دار المعالم الثقافية

للنشر والتوزيع - الأحساء

مؤسسة المختار
للنشر والتوزيع - القاهرة
٦٥ شارع النزهة - مصر الجديدة
تليفون و فاكس : ٢٩٠١٥٨٣

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع : ١١٨٣٢ لسنة ١٩٩٨
الترقيم الدولى : 977-5283-26-4

دار
المعالم الثقافية
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية
الأحساء - الهفوف
شارع الجامعة
ص.ب : ١٦١٣ الأحساء ٣١٩٨٢
هاتف : ٥٨٧٠٦٢٣ - ٥٨٦٢٠٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله القائل : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ والصلاة والسلام على من أوتى جوامع الكلم، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين .

أما بعد

فكتابنا «علم المعاني» يتناول مسائل المعانى التى أقرها علماء البلاغة فيبرز الأسرار البلاغية وراء بناء التراكيب، ويعالج أجزاء الجملة من مسند ومسند إليه ومتعلقات، ويكشف عن أحوال الإسناد الخبري، ويجلى الأسرار البلاغية وراء العدول عن الأصل والخروج عن مقتضى الظاهر .

كما يعالج الجملة وارتباطها بغيرها من الجمل، فيكشف عن دقائق القصر وطرقه وأغراضه وبناء جمله، ويجلى الفرق بين الخبر والإنشاء مبرزًا الأساليب الإنشائية وأنواعها وما وراءها من معان وأسرار، ويظهر العلاقات بين الجمل الملتقية وما وراء أبنيتها من دقائق ومزايا بلاغية، ويعرض لمقامات المقالات فيكشف عن الإطناب وألوانه ومقاماته، وعن الإيجاز وأنواعه وأسراره ودقائقه .

وقد امتلأ الكتاب بالشواهد من آيات الذكر الحكيم وأحاديث المصطفى - صلى الله عليه وسلم - والشعر الجيد، وفى تلك الشواهد تتجلى مسائل المعانى التى قمنا بمعالجتها حيث بذلنا الجهد فى تحليل هذه الشواهد، وتجلية ما وراء بناء تراكيبها من أسرار ولطائف، وتقريب ذلك إلى أذهان الدارسين بضرب الأمثلة ليتم الغرض المنشود وتتحقق الفائدة المرجوة.

ويقع الكتاب فى جزءين نفدت طبعتهما الأولى وبدت لنا حاجة الدراسين إلى الكتاب، فقمنا بإعادة النظر فيه فحصا وتدقيقًا وتنقيحًا وتهذيبًا، واقتضت إعادة النظر فى الكتاب أن نضيف إليه ما رأيناه ضروريا، وأن نوضح ما وجدناه فى حاجة إلى إيضاح، ونبسط ما هو فى حاجة إلى بسط ليكتمل بذلك -والكمال لله وحده- تحقيق الغرض والفائدة المرجوة من الكتاب.

ثم أمرنا بإعادة طبعه طبعة جيدة لينتفع الدارس وتتيسر له الإفادة.. والله -عز وجل- نسأل أن ينفع به، وأن يجزينا خير الجزاء، وأن يعفو عما يكون قد جرى به القلم فى غفلة منا فخط ما لا يليق أو كتب ما لا ينبغى أن يكتب أو توقف عن كتابة ما كان ينبغى أن يكتب وإيضاح ما كان يجب أن يوضح.. كما نضرع إليه تعالى أن يرحم ضعفنا وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا ولمن سبقنا بالإيمان إنه خير مسئول وهو نعم المولى ونعم النصير.. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المؤلف

بسيونى عبد الفتاح

الهفوف - الأحساء

فى ٢٣ من ذى القعدة ١٤١٨هـ

الموافق ٢١ مارس ١٩٩٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

أحمد الله تعالى وأصلى وأسلم على رسوله الأمين نبينا محمد وعلى آله وصحابته ومن نهج نهجه إلى يوم الدين . . .

أما بعد:

فهذا هو الجزء الأول من كتاب «علم المعاني» دراسة بلاغية ونقدية وقد خصصته لدراسة أجزاء الجملة ، فبدأته بتمهيد تناول الحديث عن النظم وصياغة الجملة وما وراء ذلك من اعتبارات وملاحظات . . كما تناول بيان مفهوم الفصاحة والبلاغة . . ثم أتبعته بفصول الكتاب الأربعة وهي :

الفصل الأول : أحوال الإسناد الخبري .

الفصل الثاني : أحوال المسند إليه .

الفصل الثالث : أحوال المسند .

الفصل الرابع : أحوال متعلقات الفعل .

وسيتلوه الجزء الثاني بمشيئة الله تعالى والذى خصصته لدراسة الجملة وارتباطها بغيرها من الجمل . . فالله عز وجل أسأل أن ينفع به وأن يجزينا خير الجزاء وهو الهادى إلى سواء السبيل ، ، ،

المؤلف

بسيونى عبد الفتاح فيود

عنيزة – القصيم – السعودية

فى ١٧ رمضان ١٤٠٦هـ



تمهيد

اللفظ والمعنى والنظم:

الألفاظ قوالب للمعاني، إذ الكلام يتكون من لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط لهما ناظم، وقد شغلت قضية اللفظ والمعنى الدارسين منذ القدم، واختلفت وجهة نظرهم فى رجوع المزية، فنرى الجاحظ يتحدث عن اللفظ والمعنى فى مواضع كثيرة من كتابه: «البيان والتبيين»، والذى لا ينعم النظر فى كلام الجاحظ يتوهم أنه قد فضل اللفظ على المعنى أو المعنى على اللفظ، انظر إلى قوله: «ثم اعلم -حفظك الله- أن حكم المعانى خلاف حكم الألفاظ، لأن المعانى مبسوطة إلى غير غاية وممتدة إلى غير نهاية وأسماء المعانى مقصورة معدودة ومحصلة محدودة»[1]، تجده قد جعل المعانى مبسوطة ممتدة، والألفاظ التى هى أسماء المعانى محدودة معدودة، فهل قدم المعانى هنا على الألفاظ؟، لو كان الأمر كذلك، فكيف يقول فى موضع آخر: «المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروي، وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفى صحة الطبع وجودة السبك، وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير.»[2] إنك تشعر هنا بأنه يقدم اللفظ على المعنى، وليس الأمر كذلك، فالذى أراه، أن الجاحظ لم يقدم اللفظ على المعنى هنا ولا المعانى على الألفاظ هناك، وإنما رجع المزية للنظم، وجعل التفاضل به. تأمل قوله: إنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ. وجودة السبك وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير، فهو يريد بذلك النظم لا الألفاظ المجردة. وهو عندما جعل المعانى مطروحة، أراد المعانى العامة التى هى كأغراض الشعر، وعندما جعلها ممتدة ومبسوطة أراد المعانى المركبة، المعانى الخاصة المنبعثة من النظم الجيد والتراكيب الرفيعة،

---

(١) البيان والتبين ١ / ٧٦ .

(٢) الحيوان ٣ / ١٣١ .

وعندما جعل الألفاظ محصورة محدودة، أراد الألفاظ المجردة لا المنظومة، إذاً الجاحظ لم يقدم لا اللفظ ولا المعنى، وإنما رجع المزية إلى النظم، فينبغى على الدارس أن يعرف الفروق الدقيقة التى تكمن وراء النظم، إذ به يفضل الكلام ويتقدم عليه، وفرق ما بين نظم القرآن وتأليفه ونظم سائر الكلام وتأليفه. وللجاحظ كتاب فى النظم سماه «نظم القرآن» ولكنه فقد ضمن ما فقد من تراث المسلمين، ونرى الجاحظ يشير إليه فى كثير من كتاباته فى البيان والتبيين وغيره، ويحيل عليه فى كثير من الأمور والقضايا.

فما هو النظم إذاً الذى رجع الجاحظ إليه المزية؟ إنه ضم الكلمات بعضها إلى بعض على طريقة مخصوصة. وهذه الطريقة المخصوصة تكون بالإبدال الذى تختص به الكلمات، أو التقديم والتأخير الذى تختص به مواقع الكلمات أو الحركات التى تختص بالإعراب[1].

وقد أفاد الإمام عبد القاهر من إشارات القاضى عبد الجبار وكتابات الجاحظ، فشرح نظرية النظم وحلل الشواهد الكثيرة التى يتضح فيها مفهوم النظم.

يرى الشيخ عبد القاهر: أن الناظم إذا أراد أن ينظم كلامًا فى أى غرض، يبدأ فيرتب المعانى فى نفسه أولاً ويبذل جهداً فى ترتيبها، ثم يحذو على ترتيبها الألفاظ، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً فى النفس، وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً فى النطق، ويفرق عبد القاهر بين حروف منظومة وكلم منظوم، وذلك أن نظم الحروف هو تواليها فى النطق فقط، وليس نظمها بمقتض عن معنى ولا الناظم لها بمقتض فى ذلك رسماً من العقل اقتضى أن يتحرى فى نظمه لها ما تحراه، فلو أن واضع اللغة كان قد قال: «ربض» مكان: «ضرب» لما كان فى ذلك ما يؤدى إلى فساد. أما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك؛ لأنك تقتفى فى نظمها آثار المعانى فترتب ألفاظ الكلام على حسب ترتيب المعانى فى النفس[2].

فالمعانى التى يتعلق بها الفكر والتى ترتب ألفاظها على حسب ترتيبها فى النفس، إنما هى معانى النحو، وليست المعانى اللغوية للمفردات.

يقول عبد القاهر: «واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه «علم النحو» وتعمل قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التى نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ

(١) المغنى ١٦ / ١٩٩ وما بعدها.

(٢) دلائل الإعجاز ص ٩٦.

الرسوم التى رسمت لك فلا تخل بشيء منها وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر فى وجوه كل باب وفروقه، فينظر فى الخبر إلى الوجوه التى تراها فى قولك: زيد منطلق وزيد ينطلق وينطلق زيد ومنطلق زيد وزيد المنطلق والمنطلق زيد وزيد هو المنطلق. وفى الحال إلى الوجوه التى تراها فى قولك: جاءنى زيد مسرعاً وجاءنى يسرع وجاءنى وهو مسرع أو وهو يسرع وجاءنى وقد أسرع، فيعرف لكل من ذلك موضعه ويجئ به حيث ينبغى له، وينظر فى الحروف التى تشترك فى معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية فى المعنى فيضع كلا من ذلك فى خاص معناه، نحو أن يؤتى بما فى نفى الحال وبلا إذا أراد نفى الاستقبال، وإن فيما يترجح بين أن يكون وألا يكون وبإذا فيما علم أنه كائن. وينظر فى الجمل التى تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ثم يعرف فيما حقه الوصل، موضع الواو من موضع الفاء، وموضع الفاء من موضع ثم، وموضع أو من موضع أم، وموضع لكن من موضع بل ويتصرف فى التعريف والتنكير والتقديم والتأخير فى الكلام وفى الحذف والتكرار والإظهار والإضمار فيضع كلا من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغى له.

هذا هو السبيل فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً وخطؤه إن كان خطأ إلى «النظم» ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معانى النحو قد أصبت به موضعه ووضعته فى حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه واستعمل فى غير ما ينبغى له، فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة، وذلك الفساد، وتلك المزية وذلك الفضل إلى معانى النحو وأحكامه، ووجدته فى أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه»[1]. ثم يأخذ بعد ذلك فى عرض الشواهد التى يتضح فيها ما ذكره محللاً لتلك الشواهد، ومبرزاً لموطن الحسن أو الفساد فيها، فيعرض لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2] قائلاً: «هل تشك إذا فكرت فى هذه الآية فتجلى لك منها الإعجاز وبهرك الذى ترى وتسمع أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن

(١) دلائل الإعجاز ص ١١٧، ١١٨.

(٢) سورة هود: ٤٤.

لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة، وهكذا إلى أن تستقريها إلى آخرها، وأن الفضل حصل من مجموعها ، وإن شككت فتأمل هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهى فى مكانها من الآية؟ . . قل : «ابلعي» واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها، وكيف بالشك فى ذلك ومعلوم أن مبدأ العظمة فى أن نوديت الأرض ثم أمرت ثم فى أن كان النداء «بيا» دون «أي» نحو «يا أيتها الأرض» ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال : «ابلعى الماء» ثم أن نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها أتبع نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها، ثم أن قيل : «وغيض الماء» فجاء الفعل على صيغة «فُعِل» الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى : «وقضى الأمر» ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو : «واستوت على الجودي» ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ثم مقابلة «قيل» فى الخاتمة «بقيل» فى الفاتحة . . أفترى لشيء من هذه الخصائص التى تملؤك بالإعجاز روعة، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى فى النطق؛ أم كل ذلك لما بين معانى الألفاظ من الاتساق العجيب. فقد اتضح إذاً اتضاحاً لا يدع مجالاً للشك أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة، ولا من حيث هى كلم مفرد؛ وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها من ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ»[1].

ويستمر عبد القاهر فى سوق الشواهد فيقول : «ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك فى موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر كلفظ الأخدع فى بيت الحماسة :

تلفت نحو الحى حتى وجدتنى ... وجعت من الإصغاء ليتاً وأخدعا

وبيت البحتري :

وإنى وإن بلغتنى شرف الغنى ... وأعتقت من رق المطامع أخدعي

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٨٩ ، ٩٠ .

فإنك تجد لها فى هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن ثم إنك تتأملها فى بيت أبى تمام :

يادهر قوم من أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خُرُقِك

فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة والبهجة والإيناس ، ومن أعجب ذلك لفظة «الشىء» فإنك تراها مقبولة حسنة فى موضع وضعيفة مستكرهة فى موضع آخر ، وإن أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى قول عمر بن أبى ربيعة المخزومي :

ومن مالئ عينيه من شيء غيره إذ راح نحو الجمرة البيض كالدُّمى

وإلى قول أبى حية النميري :

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة تقاضاه شيء لا يمل التقاضيا

فإنك تعرف حسنها ومكانها من القبول . ثم انظر إليها فى بيت المتنبي :

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه لعوقه شيء عن الدوران

فإنك تراها تقل وتضؤل بحسب نبلها وحسنها فيما تقدم»[1] .

وهكذا يستمر عبد القاهر فى عرض العديد من شواهد النظم الردئ والآخر الجيد ، فمن الأول .

قول الفرزدق :

وما مثله فى الناس إلا مملكا أبو أمه حى أبوه يقاربه

وقول المتنبي :

ولذا اسم أغطية العيون جفونها من أنها عمل السيوف عوامل

وقول أبى تمام :

ثانيه فى كبد السماء ولم يكن كاثنين ثان إذ هما فى الغار

ومن الثاني :

قول إبراهيم بن العباس الصولى يمدح محمد بن عبد الملك الزيات :

(١) دلائل الإعجاز ص ٩١ ، ٩٢ .

فلو إذ نبا دهر وأنكر صاحب ... وسلط أعداء وغاب نصير

تكون عن الأهواز دارى بنجوة ... ولكن مقادير جرت وأمور

وإنى لأرجو بعد هذا محمدا ... لأفضل ما يرجى أخ ووزير

وقول البحتري :

بلونا ضرائب من قد نرى ... فما إن رأينا لفتح ضريبا

هو المرء أبدت له الحادثا ... ت عزما وشيكا ورأيا صليبا

تنقل فى خلقى سؤدد ... سماحاً مرجى وبأساً مهيباً

فكالسيف إن جئته صارخاً ... وكالبحر إن جئته مستثيبا

وقول كثير عزة :

فلما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح

وشدت على دهم المطايا رحالنا ... ولم ينظر الغادى الذى هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطى الأباطح

إلى غير ذلك من الشواهد التى يعرض لها عبد القاهر محللاً لها ومبرزاً لما فيها من جمال مرده إلى النظم ومعرفة ماله من رسوم ومناهج، أو من قبح وعيب مردهما إلى الخروج عن رسوم النظم ومناهجه[1] .

ثم يأخذ عبد القاهرة بعد أن وضح نظرية النظم وحلل العديد من شواهدها، وبين ما ينبغى على البليغ أن يلتزم به فى بناء جمله وعند صياغة عباراته . . . يأخذ بعد ذلك فى بيان قوانين النحو وأصوله ومناهجه التى ينبغى على الناظم أن يضع كلامه الوضع الذى يقتضيها، فلا يزيغ عنها ولا يحيد . . وهى تشمل كل أبواب علم المعانى التى سنعرض لها فى فصول هذا الكتاب إن شاء الله . .

❑ ❑ ❑

(١) دلائل الإعجاز ص ١٢٠ وما بعدها .

مفهوم الفصاحة والبلاغة:

الفصاحة فى اللغة معناها الظهور والبيان، يقال: يوم مفصح لا غيم فيه ولا قر، وأفصح اللبن وفصح ، ذهبت عنه الرغوة، قال نضلة السلمي:

* وتحت الرغوة اللبن الفصيح *

ويقال أفصحت الشاة والناقة: خلص لبنها، وأفصح الصبح: بدا ضوؤه واستبان.. ويقال: رجل فصيح، وامرأة فصيحة، وقوم فصحاء وكلام فصيح، أى بليغ.. ولسان فصيح أى طلق وأفصح الرجل عن الشيء إفصاحاً، إذا بينه وكشفه، ويقال تفصح أي: ازداد فصاحة واستعمل الفصاحة، أو تكلف الفصاحة وتشبه بالفصحاء.. والفصيح: المنطلق اللسان فى القول الذى يعرف جيد الكلام من رديئه.. قال الله عز وجل: ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [1]. وقال عليه الصلاة والسلام: «أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش».. فمعنى الفصاحة فى الآية والحديث: الظهور والبيان[2].

والبلاغة فى اللغة تعني: الانتهاء والوصول وتعنى أيضاً الفصاحة وحسن الكلام.. يقال: بلع الشيء يبلغ بلوغاً وبلاغاً: وصل وانتهى إلى مراده.. والبلاغ: ما يتبلغ به ويتوصل إلى الشيء المطلوب.. والبلاغة: الفصاحة. ورجل بليغ وبَلْغ وبِلْغٌ: حسن الكلام، فصيحه يبلغ بعبارة لسانه كنه ما فى قلبه، والجمع: بلغاء، وقد بلغ بَلاغة: صار بليغا[3].

قال الله – عز وجل-: ﴿ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾[4]، ذهب الزمخشرى إلى أن القول البليغ: المؤثر فى قلوبهم، فيغتمون به اغتماماً ويستشعرون من الخوف استشعاراً[5].

(١) سورة القصص: ٣٤.

(٢) لسان العرب مادة فصح.

(٣) لسان العرب مادة بلغ.

(٤) سورة النساء: ٦٣.

(٥) الكشاف جـ ١ ص ٤٠٧.

وبهذا يتضح لنا أن مفهوم الفصاحة فى اللغة، لا يختلف عن مفهوم البلاغة فهما مترادفان والمقصود منهما: الظهور والبيان والانتهاء إلى المعنى وبلوغ المراد باللفظ الجيد والقول البليغ المؤثر، والتعبير الحسن الفصيح. . ولذا فإن أكثر البلاغيين يرون أن الفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد، وإن اختلف أصلهما، لأن المراد بكل منهما: الإبانة عن المعنى والإظهار له وحسن التعبير عنه.

ويرى البعض أن الفصاحة تمام آلة البيان، فهى تختلف عن البلاغة، لأن الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى، أما البلاغة فتتعلق بالمعنى دون اللفظ، إذ المراد منها: إنهاء المعنى إلى القلب. . وقد اختار المتأخرون هذا الرأي. فقالوا الفصاحة تقع وصفاً للكلمة وللكلام وللمتكلم، فيقال: كلمة فصيحة، وكلام فصيح، ومتكلم فصيح. . . أما البلاغة فتقع وصفاً للكلام وللمتكلم، فيقال: كلام بليغ، ومتكلم بليغ، ولا تقع وصفاً للكلمة، فلا يقال: كلمة بليغة، ثم راحوا يفسرون ذلك على النحو الآتي:

فصاحة الكلمة:

الكلمة الفصيحة هى الكلمة التى تخلو من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس اللغوى أو الصرفي، ومن الكراهة فى السمع.

فتنافر الحروف: وصف فى الكلمة يوجب ثقلها على السمع وصعوبة نطق اللسان بها، وهذا التنافر قد يكون شديداً متناهياً فى الثقل كما فى قول الأعرابى عندما سئل عن ناقته: «تركتها ترعى الهعخع»، فكلمة «الهعخع» كلمة شديدة الثقل على الأذن، شديدة الصعوبة فى اللسان وقد قالوا: إنها اسم شجر مر المذاق كريه الرائحة، كأنه هذه الكلمة التى لا يطاق النطق بها، وقيل إنها كلمة للمعاياة لا أصل لها وهم كثيراً ما يخترعون كلمات للمعاياة، ومثلها كلمة: «العقجق» و «الظش» و«والشصاصاء» ونحو ذلك. وقد يكون التنافر خفيفاً والثقل ضئيلاً. كما فى قول امرئ القيس:

وفـــرع يغشــى المتن أسود فاحم ... أثيث كقنـــو النخلـــة المتعثكـــل
غـدائره مستـشزرات إلى العـــلا ... تضل المدارى فى مثنى ومرســل[1]

(١) الفرع: الشعر، ويغشى: يغطى. والمتن: الظهر، والأثيث: الكثير الشعر، وقنو النخلة: عنقودها، والمتعثكل: المتراكم، والغدائر: الذوائب، ومستشزرات: مرتفعات، والمدارى: جمع مدرى، وهى الأمشاط، والمثنى: المفتول، والمرسل: غير المفتول.

فكلمة «مستشزرات» كلمة ثقيلة فى السمع، يتعثر اللسان عند النطق بها، ولكن ثقلها أقل من ثقل «الهعخع».

ومثله قول المتنبي:

إن الكـــــرام بلا كـــرام منهــم مثل القلـوب بلا سويداواتهـــا[١]

فكلمة «سويداواتها» كلمة ثقيلة على اللسان، وقد نشأ هذا الثقل من طول الكلمة، كما نشأ الثقل فى كلمة «مستشزرات»، من طولها أيضاً ومن توسط الشين المهموسة الرخوة بين التاء الشديدة والزاى المجهورة. ومع كل فالثقل فى الكلمتين أقل من الثقل فى كلمة «الهعخع».

ويرجع البلاغيون السبب فى تنافر الحروف وثقلها فى الأذن واللسان إلى قرب مخارج الحروف أو بعدها بعداً شديداً وقالوا: إن البعد الشديد بين مخارج الحروف يكون بمنزلة الطفر، والقرب الشديد بينها يكون بمنزلة مشى المقيد الذى يثقله القيد، والعرب قد بنيت لغتهم على الخفة، ولذا رأيناهم يعمدون إلى إدغام المثلين والمتقاربين نحو رد ومد وشد واضطر، وإلى الإبدال فى نحو: اصطبر، وذلك دفعاً للثقل. ومع أنه لا يمكن إنكار ما لمخارج الحروف وصفاتها وهيئة تأليفها من أثر فى ثقل الكلمة وخفتها إلا أنه ينبغى أن يكون المعول عليه فى ذلك هو الذوق الصحيح فنحن نرى الكلمة قد تألفت من حروف متقاربة وليست ثقيلة نحو قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ ﴾[٢]. فلا ثقل فى كلمة: «أعهد» مع قرب مخرج الهمزة والعين والهاء. وكما فى قولنا «ذقته بفمي» فالباء والفاء والميم أحرف شفوية متقاربة ولا ثقل فيها. فكون قرب مخارج الحروف أو تباعدها موجباً للثقل والتنافر، ليس مطرداً، ولذا كان المعول عليه هو الذوق السليم، والحس الصادق. هذا وثقل الكلمة فى النطق ليس معيباً فى جميع الأحوال وعلى الإطلاق، بل إذا اقتضاه المقام كان من أهم مظاهر فصاحة الكلمة، ولذا لا أجد عيباً فى كلمة «مستشزرات» فى بيت امرئ القيس لأنها لاءمت المقام، حيث يصف شعراً كثيفاً غزيراً قد تراكم وصار كقنو

(١) المعنى: إن الكرام من الخيل إذا لم يكن عليها فرسان كرماء من هؤلاء الممدوحين صارت كالقلب بلا سويداء.

(٢) سورة يس: ٦٠.

النخلة المتعثكل، ولو قال: «مرتفعات» لأخل بما يقتضيه السياق ويتلاءم مع الألفاظ التى وصف بها الشعر. كما لا أرى عيباً فى قول أبى تمام:

قد قلت لما اطْلَخَمَّ الأمر وانبعثت　　　عشواء تاليةً غُبْسـا دهاريسـا[1]

لأن الثقل فى كلمة «اطلخم» يتلاءم مع الشدة والظلام والدواهى التى يصورها البيت «فينبغى أن يلاحظ أن استعمال هذا المقياس يحتاج إلى وعى وذوق لأن هناك كلمات ثقيلة على اللسان، ولكن ثقلها من أهم مظاهر فصاحتها، من حيث أن هذا الثقل يصور معناها بحق، انظر إلى كلمة «اثاقلتم» فى قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾[2].

تجد فيها قدراً من الثقل الفصيح لأنه يصف تقاعسهم وتثاقلهم وخلودهم إلى الأرض، واستشعارهم مشقة الجهاد، وعزوف أرواحهم عنه، وقد دعو إليه فى عام العسرة، فكان منهم ما وصفت الآية، ولذا جاء التهديد البالغ ليواجه تخاذل أرواحهم، فقال سبحانه وتعالى ﴿إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾[3].

وخذ قوله تعالى يحكى مقالة سيدنا نوح عليه السلام لقومه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾[4]، وتأمل كلمة «أَنُلْزِمُكُمُوهَا» وما فيها من صعوبة فى النطق تحكى صعوبة الإلزام بالآيات وهم لها كارهون، وانظر إلى كلمة «فعميت» وما فيها من الإدغام والمجهول، وكيف يصفان معنى التعمية والإلباس»[5].

---

(١) اطلخم الأمر: اشتد، والعشواء: الناقة لا تبصر ليلاً، غبسًا: الظلام الشديد، والدهاريس: الدواهي.

(٢) سورة التوبة: ٣٨.

(٣) سورة التوبة: ٣٩.

(٤) سورة هود: ٢٨.

(٥) خصائص التراكيب ص ٢٣.

والغـرابة: أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها فتحتاج فى معرفتها إلى النظر والتنقيب عنها فى كتب اللغة المبسوطة، والمرجع فى ذلك إلى العرب الخلص، فلا يعول على غيرهم من المحدثين الذين ظهروا بعد فساد اللغة وضعف السليقة، ولذا قيد التنقيب عن تلك الكلمات الغريبة بكونه فى كتب اللغة المبسوطة التى حوت كلمات قد ماتت وصارت غير مستعملة عند الفصحاء من الخلص، كما فى الألفاظ: «زرجون واسفنط وخندريس» التى تطلق على الخمر و «فدوكس وهرماس» على الأسد، و«الحلقد» على سيء الخلق، و«الطرموق» على الطين، و«الاستمصال» على الإسهال و «الإطرغشاش» و«الإبرغشاش» على الشفاء و«الابتشاك» على الكذب.

يقول الشاعر:

وما أرضى لمقلته بحلم　　　إذا انتبهت توهمه ابتشاكاً

وكما فى قول عيسى بن عمرو النحوى لأناس قد تجمعوا حوله عندما سقط عن حماره: «مالكم تكأكأتم على تكأكؤكم على ذى جنة، افرنقعوا عني» فقد أطلق «تكأكأ» على الاجتماع، و«افرنقع» على التنحى والابتعاد، وهو يهدف بتخير هاتين الكلمتين الغريبتين، المزاح ومداعبة من اجتمعوا حوله، ولذا قالوا: دعوه فإن شيطانه يتكلم بالهندية... فمثل هذه الكلمات لا نراها إلا فى كتب اللغة المطولة، ولا نجدها مستعملة على لسان الخلص، ولذا عدت غريبة ومخلة بالفصاحة.

ولا يجوز أن نطلق على ما خفى علينا معناه من النظم الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وأشعار الفحول من الشعراء، بأنه غريب ومناف للفصاحة، لأن الذى يعتد به ويعول عليه فى ذلك - كما قلت- إنما هم العرب الخلص الذين سلمت سليقتهم، ولم تفسد طباعهم... ولا نبعد عن الصواب إذا قلنا إن الغرابة نوعان: نوع فصيح وهو تلك الألفاظ المستعملة التى جرت على ألسنة الخلص والفحول، وإن خفى علينا معناها وغمض... ومن هذا النوع غريب القرآن والحديث، ونوع معيب مخل بالفصاحة وهو تلك الألفاظ التى أهملها الخلص وهجرها الفصحاء فلم يستعملوها، وبقيت فى بطون أمهات كتب اللغة المطولة، على نحو ما شاهدنا فى الأمثلة...

وذكر البلاغيون أن الكلمة تعد غريبة كذلك، غرابة تخل بفصاحتها، إذا احتملت معنيين، واحتار السامع فى فهم المعنى المراد لعدم وجود القرينة التى تعينه وتحدده كما فى قول رؤية بن العجاج:

أيـام أبـدتْ واضحًا مُفَلّجـاً أغـرَّ برّاقـاً وطَرفـاً أبرجـاً
ومقلـة وحاجبـاً مزجَّجـا وفاحمـا ومَرْسِنـا مُسَرَّجـا(١)

فإنه لم يعرف ما أراد بقوله: «مسرجاً»، حتى اختلفوا فى تخريجه، فقيل إنه أراد أن يشبه أنفها بالسيف فى الدقة والاستواء، وعليه «فمسرجًا» نسبة إلى سريج الذى اشتهر بصناعة السيوف، ونسبت إليه فسميت سيوفًا سريجية.. وقيل إنه أراد أن يشبه أنفها بالسراج فى البريق واللمعان «فمسرجًا» فى البيت نسبة إلى السراج المضيء، من قولهم: سرج وجهه أي: حسن، وسرج الله وجهه أي: حسنه وبهجه، والاشتقاق من الاسم الجامد على جهة التشبيه وارد فى كلام العرب كما فى قولهم:

وبُرُود مُدَنَّـرات وقـزّ ومُـلاء مـن أعتـق الكتـان

أي: وبرود وشيها كالدنانير، فاشتق من الدنانير «مدنرات» على جهة التشبيه بها.

ومخالفة القياس: أن تأتى الكلمة غير جارية على قوانين اللغة وقواعد الصرف، كما فى قول أبى عبادة:

يشـق عليه الريح كـل عشيـة جيوب الغمـام بين بكـر وأيم

فقد استعمل «الأيم» فى مكان «الثيب»، والأيم من لا زوج لها ولو كانت بكراً.. وكحذف النون من لكن فى قول النجاشي:

فلست بآتيـه ولا أستطيعـه ولاك اسقنى إن كان ماؤك ذا فضل

أراد ولكن اسقنى.. وكفك الإدغام فى قول أبى النجم:

الحمـد لله العلـى الأجلـل الواهب الفضـل الكريم المجزل

وكقول الآخر:

مهلا أعاذل قد جربت من خلقى أنى أجود لأقـوام وإن ضننـوا

(١) مفلجا: الفلج تباعد ما بين الأسنان، والأغر: الأبيض، والطرف: العين، وأبرجا: البرج عظم العين وحسنها، ومزججا: مدققاً، وفاحماً: شعر أسود كالفحم، ومرسنا: اسم لمحل الرسن من البعير وإطلاقه على أنف الإنسان من باب المجاز المرسل.

فقد فك الإدغام فى كلمتى : «الأجل» و«ضننوا»، وقوانين اللغة توجب إدغام المثلين . . وكصياغة أفعل التفضيل من «أفعل فعلاء» فى قوله :

* لأنت أسود فى عينى من الظلم *

حيث استعمل أفعل التفضيل من وزن «أفعل» الذى مؤنثه «فعلاء» أسود وسوداء - وهذا لا يتم إلا بمساعد كأن يقال : لأنت أشد سواداً .

ويستثنى من مخالفة القياس، ما ثبت استعماله لدى العرب، فهو فصيح وإن جاء مخالفًا لقوانين اللغة أو قواعد الصرف، فمن ذلك إبدال الهاء همزة فى كلمتى «آل» و«ماء» إذ أصلهما : أهل وموه، وإبدال الهاء همزة فى الكلمتين . وإن كان على خلاف القياس، إلا أنه ثبت استعماله لدى العرب وورد عنهم، فهو فصيح وإن خالف القياس . . ومنه «أبى يأبى» بفتح عين المضارع فالقياس أن «فعل» بفتح العين لا يأتى مضارعه على «يفعل» بالفتح إلا إذا كانت عين ماضيه أو لامه من حروف الحلق مثل : ذهب، وسأل وسعى ونفع ونشع، فمجئ المضارع من «أبى» على وزن «يأبى» بالفتح وليست عين ماضيه ولا لامه من حروف الحلق مخالف للقياس، ولكن قد ثبت استعماله وورد عن العرب فهو فصيح وإن خالف القياس قال تعالى : ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ ﴾[1]، ومنه عَـور بَعْـوَر، واستَحوَذ، يستحْوذ، فالقياس : عار يعار، واستحاذ يستحيذ، بقلب الواو ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، أو ياء لتحركها وكسر ما قبلها فى «يستحيذ»، ولكن هذه الأفعال وردت بالواو واستعملها العرب بدون إعلال، قال -عز وجل- : ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾[2]، فهى فصيحة وإن خالفت القياس .

والكراهة فى السمع: أن تبرأ الأذن من سماع الكلمة، ولا تقبلها لمجيئها غير ملائمة للسياق الذى قيلت فيه، ولو كانت هذه الكلمة فصيحة فى حد ذاتها، كما فى قول أبى الطيب المتنبي :

مبـارك الاسـم أغـر اللقـب كريم الجرشـى شريف النسـب[3]

(١) سورة التوبة : ٣٢ .

(٢) سورة المجادلة : ١٩ .

(٣) الجرشي : النفس ، والأغر : أصله الأبيض من الخيل ويطلق على الأبيض من كل شيء ، =

فكلمة «الجرشي» تأباها الأذن فى هذا السياق وتنفر من سماعها، لأن المقام مقام مدح، ومقام المدح هنا فى هذا البيت تلائمه الكلمة العذبة الخفيفة التى تتلاءم مع بقية الألفاظ المذكورة وتمضى معها فى تناسق تام. . ولو كان المقام مقام هجاء لما نفرت الأذن من سماع هذه الكلمة، فلو قيل فى مقام ذم: لئيم الجرشى قبيح النسب، لاستساغت الأذن ذلك ولم تنفر من قبول كلمة «الجرشي» . . وبهذا يتضح أن كراهة الكلمة فى السمع يتوقف على المقام وسياقات الكلام، فما تكرهه الأذن فى موضع وتأبى سماعه قد تستسيغه وتميل إليه وتلذ سماعه فى سياق أخر .

فصاحة الكلام:

أما فصاحة الكلام فهى خلوصه من تنافر كلماته، ومن ضعف التأليف، والتعقيد اللفظى والمعنوي، وكثرة التكرار وتتابع الإضافات، بالإضافة إلى تحقق فصاحة مفرداته التى يتألف منها .

فتنافر الكلمات: أن تكون بتأليفها ونظمها الذى سلكت فيه ثقيلة على اللسان، يتعسر النطق بها، وإن كانت كل كلمة فصيحة بانفرادها عن هذا النظم المتنافر، كما فى قول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبر

فالشطر الثانى من هذا البيت شديد الثقل على اللسان لا يستطيع أن ينطق به ثلاث مرات متتاليات دون أن يتعثر ويخطىء، وقد زعموا أن قائل البيت جنى، صاح به على حرب بن أمية فى فلاة فمات بها . ومرجع الثقل والتنافر إلى النظم الذى عليه البيت، فلو جردت الكلمات من نظمها لصارت فصيحة، خالية من الثقل، قرب . حرب . قبر .

ومنه قول أبى تمام :

والمجد لا يرضى بأن ترضى بأن ... يرضى امرؤ يرجوك إلا بالرضا

= واللقب : مادل على على مدح كزين العابدين أو ذم كأنف الناقة ، وقد مدح سيف الدولة بهذا لأن اسمه «علي» ولقبه «سيف الدولة» وهما مما يمتدح به .

وقول المتنبي :

فقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا قلاقـل عيـس كلهـن قلاقـــل[1]

ومنه قول الأخر :

فلم يضرهــــا والحمـد لله شيء وانثنت نحـو عَزْف نفس ذَهُول

فألفاظ النصف الثانى من البيت – كما يقول الجاحظ – يتبرأ بَعضها مِن بعضٍ، ويرجع ذلك إلى سوء النظم الذى سلكت فيه . . . ومنه قول أبى تمام :

كريم متى أمدحه أمدحه والـورى معـى وإذا مـا لمتـه لمتـه وحـدي

فالتنافر الذى نراه فى قوله : أمـدحه أمـدحه، قد نتج عن تكرار اللفظ وهو أقل من التنافر الذى لمسناه فى الأبيات قبله، ومما يحمد للشاعر فى هذا البيت، إيثاره التعبير باللوم فى قوله «لمته» ، دون «الهجاء» المقابل للمديح، فهو يفيد أن الممدوح ربما يلام على شيء وقع منه عفواً، ولكنه لا يفعل ما يستحق عليه الهجاء . ولكن يؤخذ على الشاعر إدخاله «إذا» التى تفيد تحقق الوقوع على اللوم، ولو عبر «بإن» دون «إذا» لكان أولى وأبلغ فى المديح .

ومنه قول الآخر :

وازور مـن كـــان لـه زائـــراً وعـاف عـافى العـرف عرفانـه

ففى الشطر الثانى تنافر لا يخفى بين الكلمات مرجعه إلى تأليفها ونظمها الذى وضعت فيه، والكلمات فى حد ذاتها فصيحة لا تنافر بين حروفها .

وضعف التأليف: أن يكون الكلام جارياً على خلاف طريقة العرب فى التعبير والقول، مخالفاً لقوانين النحو المعتبرة عند جمهور النحاة، أما إذا خالف الكلام ما اتفق عليه النحاة وأجمعوا عليه، كجر الفاعل ورفع المفعول ونصب المجرور أو رفعه . فليس الكلام عندئذ مخلاً بالفصاحة فقط، بل هو فاسد وغير عربي، لا يسمح به ولا يقال، فضعف التأليف المخل بفصاحة الكلام، مجيء التأليف على خلاف ما اشتهر بين جمهور النحاة، وليس على خلاف ما اتفقوا عليه، من ذلك عود الضمير على متأخر فى اللفظ والرتبة كما فى قول حسان بن ثابت – رضى الله عنه – :

(١) فقلقلت : حركت ، وقلاقل الأولى جمع قلقل وهي الناقة السريعة وقلاقل الثانية جمع قلقلة وهي الحركة .

فلو أن مجداً يخلد الدهر واحـداً   من الناس أبقى مجده الدهر مطعماً[١]

فالضمير فى «مجده» يعود إلى المفعول به «مطعماً» وهو متأخر فى اللفظ وفى الرتبة .

وكما فى قول زهير :

إن تلق يومـاً على علاته هرمـاً   تلق السماحـة منه والنـدى خلقاً[٢]

فالضمير فى «علاته» يعود إلى المفعول «هرماً» المتأخر فى اللفظ وفى الرتبة . .

وقول الآخر :

جزى ربه عنى عـدى بن حـاتم   جزاء الكلاب العاويات وقد فعل[٣]

فالضـمير فى «ربه» يعود إلى «عدي» المتأخر لفظة ورتبة لأنه مفعول به . والقاعدة المشهورة بين النحاة أن يعود الضمير على متقدم فى اللفظ والرتبة أو فى الرتبة دون اللفظ أو فى اللفظ دون الرتبة ، ولا يعود إلى متأخر فى اللفظ والرتبة معاً ، وقد أجاز ذلك بعضهم كابن جنى وابن مالك وغيرهما . ومنه وقوع الضمير المتصل بعد إلا كما فى قول الشاعر :

وما علينـا إذا ما كنت جارتنـا   ألا يجـاورنـا إلاك ديـار

وقول الآخر :

ليـس إلاك ياعـلى همـام   سيفه دون عرضـه مسلـول

ومنه حذف أداة النصب «أن» مع بقاء عملها ، فى غير المواضع التى تضمر فيها وجوباً أو جوازاً ، كما فى قول طرفة :

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى   وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

والقاعدة المشهورة تمنع وقوع الضمير المتصل بعد إلا ، وتمنع حذف أداة النصب مع بقاء عملها إلا فى المواضع المعروفة .

والتعقيد: أن يكون الكلام غير واضح الدلالة على المعنى المراد به فيحتاج إلى إعمال فكر وكد الذهن وإطالة النظر والتأمل حتى نقف على المعنى المراد . والعربى يكره الغموض

---

(١) مطعم : هو مطعم بن عدي أحد رؤساء مكة وكأن يدافع عن النبي صلى الله عليه وسلم ضد المشركين .

(١) على علاته : على قلة مال وعدم .

(٣) جزاء الكلاب العاويات : أي الضرب بالحجارة ، دعاء عليه بهذا .

المؤدى إلى اللبس. ويحب الوضوح والظهور فمن أقوالهم: خير الكلام، ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك ولا يعنى ذلك أنهم يكرهون لطافة المعنى ودقته، كيف وهم يرون أن المعنى إذا نيل بعد طلب له وكد وإعمال فكر يكون أوقع فى النفس وأشد تأثيراً؟ ولكن فرق بين إعمال فكر لا يثمر وهو ما كان مرجعه إلى غموض المعنى وتعقيده: وبين إعمال فكر يثمر وهو ما كان مرجعه إلى دقة المعنى ولطافته.

والتعقيد إما أ يكون تعقيداً لفظياً وإما أن يكون تعقيداً معنوياً.

فالتعقيد اللفظي: ما كان سببه اختلال نظم الكلام بالتقديم والتأخير بين أجزائه، فلا يدرى السامع كيف يتوصل منه إلى معناه. كما فى قول الفرزدق:

وما مثله فى الناس إلا مملكاً أبو أمه حى أبوه يقاربه

فالمعنى الذى يريده الفرزدق: وما مثله فى الناس أحد يشبهه فى الفضائل إلا ابن أخته هشام بن عبد الملك وكان ينبغى أن يكون ترتيب أجزاء البيت:

وما مثله فى الناس حى يقاربه إلا مملكاً أبو أمه أبوه

فالضمير فى «أمه» للمملك وفى «أبوه» للممدوح وهو إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي، خال هشام ابن عبد الملك بن مروان وقد قدم الفرزدق وأخر بين أجزاء البيت، ففصل بين المبتدأ والخبر بأجنبي، وفصل بين النعت والمنعوت كذلك، وقد المستثنى على المستثنى منه. فصار البيت فى غاية التعقيد، ولعل الفرزدق كان يقصد بهذا الصنيع التهكم بالممدوح والاستخفاف به، وهذا لا يبعد إذا علمنا ولاء الفرزدق للعلويين وعداءه لبنى أمية والممدوح منهم.

ومثله قول الفرزدق أيضاً:

إلى ملك ما أمه من محارب أبوه ولا كانت كليب تصاهره

يريد: إلى ملك أبوه ليست أمه من محارب، أي: ما أمه منهم.

وقول أبى تمام:

ثانيه فى كبد السماء ولم يكن كاثنين ثان إذ هما فى الغار

يريد: أنه لم يكن كثانى اثنين.

وقول ذى الرمة :

كأن أصـــوات من إيغالهـــن بنا أواخـــر الميـس إنقـاض الفراريج

يريد : كأن أصوات أواخر الميس إنقاض الفراريج من إيغالهن بنا .

وقول الآخر يصف يصف داراً بالية :

فأصبحت بعـــد خـط بهجتهـا كأن قفـــراً رسومهـــا قلمـــا

يريد : فأصبحت قفراً بعد بهجتها كأن قلما خط رسومها .

هذا والتقديم والتأخير بين أجزاء الكلام إنما يؤدى إلى التعقيد إذا انعدمت القرينة الدالة التى تعين المعنى وتحدد المراد من الكلام كما فى الشواهد المذكورة . أما إذا قامت القرينة الدالة على المراد، فعندئذ لا يؤدى التقديم إلى التعقيد والغموض، بل يكون من أسباب حسن المعنى وجماله . وداعياً من دواعى فصاحته وبلاغته .

والتعقيد المعنوي: ما كان سببه اختلال المعنى وذلك بألا يكون انتقال الذهن من المعنى الأصلى للتركيب إلى المعنى المقصود ظاهراً بيناً . كما فى قول العباس بن الأحنف :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناى الدموع لتجمـدا

فقد كنى بسكب الدموع عما يوجبه الفراق والبعد من الحزن والألم لفراق الأحبة . وقد أصاب وأحسن لأن البكاء يستلزم الحزن والأسى، ويدل عليه دلالة بينة حيث جرى على ألسنتهم، فقالوا : أبكانى وأضحكنى أي : ساءنى وسرني . وقال الحماسي :

أبكانـــي الدهـــــر وياربمـــا أضحكنى الدهـــــر بما يرضـــي

كنى بإبكاء الدهر إياه عن إساءته له وبإضحاكه له عن فرحه وسروره . فدلالة البكاء على الحزن والألم والأسى، دلالة ظاهرة بينة، وردت فى كلام العرب وجرت على ألسنتهم، ثم كنى ابن الأحنف بجمود العينين عما يوجبه دوام التلاقى والقرب من الفرح والسرور، وقد أخطأ فى هذا وأساء، حيث اعتقد أن الجمود هو خلو العين من البكاء مطلقاً دون اعتبار شيء آخر، لكنهم أطلقوه على خلوها منه عند إرادته وطلبه، فكنوا بجمود العين عن بخلها بالدمع عند الحاجة إليه وقت الحزن والأسى . كما فى قول الخنساء :

أعينى جـــــوداً ولا تجمـــــدا ألا تبكيـــان لصخـــر النـــدى

وقول الآخر:

ألا إن عينا لم تجد يوم واسط　　　عليك بجاري دمعها لجمود

فقد كنيا بجمود العين عن بخلها بالدمع عند الحاجة إليه وطلبه منها لشدة الحزن والأسى، فهى عين جمود أي: لا خير فيها، كما قالوا: سنة جماد. أي: لا مطر فيها. وناقة جماد: لا لبن فيها، ولو كان الجمود يصلح أن يراد به عدم البكاء فى حالة الفرح والمسرة، لجاز أن يدعى به للرجل فيقال: «لازالت عينك جامدة»، كما يقال. «لا أبكى الله عينك» فالكلام الخالى من التعقيد المعنوي، ينتقل فيه الذهن من المعنى الأصلى إلى المعنى المجازى أو الكنائى المراد فى وضوح ودون خفاء لظهور العلاقة بين المعنيين وجريان الاستعمال على لسان العرب، ووفق عاداتهم وعرفهم وطرائقهم فى التعبير، كما فى الكناية بكثرة الرماد، وجبن الكلب، وهزال الفصيل وإشعال النار فى الأماكن العالية عن الكرم. أما إذا جاء الكلام على خلاف ما عرف عن العرب، وعلى خلاف ما قد استعملوه وجرى على ألسنتهم، فعندئذ يصعب فهم المراد ويتعذر على الذهن الوقوف على مرمى الكلام والمقصود منه، فيوصف بالتعقيد المعنوي. كما فى بيت ابن الأحنف وكما فى بيت أبى تمام:

من الهيف لو أن الخلاخل صيرت　　　لها وشحا جالت عليها الخلاخل

فقد كنى عن دقة الخصر وضمور البطن، بجولان الخلاخل عليها لو اتخذتها وشاحاً، فأخطأ وأساء. لأن جولان الخلاخل المتخذة وشاحاً، يدل على بلوغها غاية القصر، ولا يدل على الدقة والضمور، إذا الوشاح ما يضرب للمرأة من العاتق إلى الكشح، فالعلاقة بين المعنى الأصلى والمعنى المراد غير ظاهرة، وانتقال الذهن من المكنى به إلى المكنى عنه يشوبه كثير من الكدارة وعدم الصحة.

أما كثرة التكرار وتتابع الإضافات: فلا يخلان بفصاحة الكلام، إلا إذا كانا ثقيلين فى السمع واللسان، ولذا فهما يرجعان إلى تنافر الكلام فمن كثرة التكرار المستكره فى الأذن، قول المتنبي:

وتسعدنى فى غمرة بعد غمرة　　　سبوح لها منها عليها شواهد[1]

(١) الغمرة: الشدة. والسبوح: الفرس السريعة. والشواهد: العلامات.

حيث كرر الضمير في: «لها منها عليها». ومن تتابع الإضافات الثقيل على اللسان والأذن، قول ابن بابك:

حمامة جرعا حومة الجندل اسجعي فأنت بمرأى من سعـاد ومسمـع[1]

فالأذن تنفر من كثرة الإضافات في: «حمامة جرعا حومة الجندل»، واللسان يستثقل النطق بها. أما إذا لم تؤد كثرة التكرار ولا تتابع الإضافات إلى الثقل، فلا يخلان عندئذ بفصاحة الكلام» كما في قول الله عز وجل ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ ... ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾[4] وكما في قوله عليه الصلاة والسلام: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

فالأذن لا تحس ثقلاً واللسان لا يجد صعوبة نطق بما في الآيات الكريمة والحديث الشريف من كثرة التكرار وتتابع الإضافات.. وكما في قول ابن المعتز:

وظلت تدير الراح أيدي جـآذر عتـاق دنانيـر الوجـوه مـلاح[5]

وقول الخالدي:

وصيرفي القريـض وزانُ ديـ ـنار المعاني الدقـاق منتقـدُ[6]

فالإضافات المتتابعة في البيت الأول: «عتاق دنانير الوجوه»، وفي البيت الثاني: «وزان دينار المعاني»، لا ثقل فيها على الأذن ولا صعوبة على اللسان في النطق بها.

---

(١) جرعا: مؤنث الأجرع وهو المكان ذو الرمل لا ينبت شيئاً. وحومة الشيء: معظمه، والجندل: الحجارة، واسجعي: غني، وسجع الحمام: هديله.

(٢) سورة مريم: ٢.

(٣) سورة غافر: ٣١.

(٤) سورة الشمس: ٧، ٨.

(٥) الراح: الخمر، والجآذر: جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية وعتاق جمع عتيق بمعنى كريم، وإضافة دنانير إلى الوجوه من إضافة المشبه به إلى المشبه.

(٦) الصيرفي: المحتال في الأمور، والقريض: الشعر، والمنتقد: الخبير بالتمييز بين جيد الأشياء ورديئها.

فصاحة المتكلم:

أما فصاحة المتكلم فهى ملكة تتكون لديه ويكتسبها بكثرة المران والتدريب وقراءة التعبيرات الجيدة والأساليب الرفيعة، وحفظ كثير من الأشعار والنثر حفظاً دقيقاً واعياً متأملاً وقبل هذا وبعده حفظ كتاب الله عز وجل وحديث النبى صلى الله عليه وسلم والتفقه فيهما. وبتكون تلك الملكة يستطيع المتكلم أن يعبر عما يريد وعما يقصد بلفظ فصيح. ويوصف هذا المتكلم بالفصاحة فيقال له: متكلم فصيح.

بلاغة الكلام:

ذكر البلاغيون المتقدمون فى تعريف البلاغة أقوالاً متعددة منها قول معاوية لصحار العبدي: ما البلاغة؟ فقال: البلاغة؟ الإيجاز، قال وما الإيجاز؟ فقال صحار: أن تجيب فلا تبطئ وتقول فلا تخطئ[1]. وسئل ابن المقفع ما البلاغة؟ فقال: البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة فمنها ما يكون فى السكوت ومنها ما يكون فى الاحتجاج، ومنها ما يكون جواباً ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعراً. ومنها ما يكون سجعاً وخطباً، ومنها ما يكون رسائل. فعامة ما يكون من هذه الأبواب، الوحى فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة، فأما الخطب بين السماطين، وفى إصلاح ذات البين، فالإكثار فى غير خطل، والإطالة فى غير إملال، وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك. قيل فإن مل السامع الإطالة التى ذكرت أنها حق ذلك الموقف، قال: إذا أعطيت كل مقام حقه، وقمت بالذى يجب من سياسة ذلك المقام وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو، فإنهما لا يرضيهما شي[2].

وقالوا: البلاغة لمحة دالة. والبلاغة معرفة الفصل والوصل. والبلاغة اختيار الكلام وتصحيح الأقسام. والبلاغة إجاعة اللفظ وإشباع المعنى. والبلاغة كلمة تكشف عن البقية والبلاغة حسن العبارة وصحة الدلالة والبلاغة القدرة على البيان مع حسن النظام.

(١) البيان والتبين ١ / ٩٦ .

(٢) نفس المصدر ١ / ١١٥ .

أما المتأخرون فقد عرفوا البلاغة تعريفاً يقرب مما ذكره ابن المقفع حيث قالوا: بلاغة الكلام هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته.

والمراد بالحال: الأمر الداعي للمتكلم إلى أن يعتبر في كلامه خصوصية ما. ومقتضى الحال هو تلك الخصوصية التي اعتبرها المتكلم في كلامه. ومطابقة الكلام لمقتضى الحال: هي مجيء الكلام مشتملاً على تلك الخصوصية التي اقتضاها الحال، فمثلاً إذا كان هناك من ينكر قيام زيد، فهذا الإنكار حال يقتضي أن يؤكد المتكلم كلامه فيقول: إن زيداً لقائم، ومجيء الكلام مؤكداً هو مطابقته لمقتضى الحال.

وإذا كان هناك إنسان عظيم نبيه الشأن جليل القدر وأردت أن تتحدث عنه فإنك تقول: هذا هو الرجل فعظم هذا الرجل ونباهة شأنه وجلالة قدره حال يقتضي تعريفه بالألف واللام، ومجيء الكلام معرفاً هو مطابقته لمقتضى الحال. وعلى العكس يقال للحقير: أهذا رجل؟.

فالحقارة حال. والتنكير مقتضاه، ومجيء الكلام منكراً هو مطابقته لمقتضى الحال. وهكذا يختلف الكلام تبعاً لاختلاف الأحوال، فمقام التألم أو الخوف يقتضي الإيجاز، إذ المتألم تكفيه الكلمة، والخائف تغنيه الإشارة ومقام الأنس والتلذذ يقتضي الإطناب، لأن الأنس يحتاج إلى الإسهاب وإطالة القول. والبلاغة أن يأتي الكلام مطابقاً للحال التي يلقى فيها، وأن تتحقق فصاحة كلماته وتراكيبه. فإن طابق الكلام مقتضى الحال ولم يكن فصيحاً، لا يعد بليغاً، وكذا إن كان الكلام فصيحاً ولم يطابق مقتضى الحال، فليس من البلاغة.

هذا ويذكر البلاغيون أن البلاغة تتفاوت تبعاً لوفاء الكلام بخصائص تراكيبه ومقتضيات أحواله. فالرماني يجعل البلاغة ثلاث طبقات: عليا ووسطى ودنيا. فالعليا هي بلاغة القرآن الكريم والوسطى والدنيا تتفاوت فيهما بلاغة البلغاء من البشر. والقزويني يجعل للبلاغة طرفين أعلى إليه تنتهي وهو حد الإعجاز وما يقرب منه، وطرفاً أسفل منه تبتدئ وهو ما إذا غير الكلام عنه إلى ما هو دونه التحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات وإن كان صحيح الإعراب، وبين الطرفين مراتب كثيرة متفاوتة حسب تفاوت البلغاء في التعبير والوفاء بمقتضيات الأحوال.

بلاغة التكلم:

أما بلاغة المتكلم فهي ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ، وتلك الملكة تتكون لديه بكثرة المران والقراءة ومعايشة التراكيب الجيدة والتعبيرات الرفيعة وتأملها تأملاً واعياً وإدراكها إدراكاً تاماً، يضاف إلى هذا أن يكون ذلك المتكلم ذا طبع وذكاء يستطيع بهما الابتكار وتوليد المعاني، عندئذ يستحق أن يوصف بالبلاغة، فيقال له: متكلم بليغ. وبهذا يتضح أن بلاغة المتكلم لا تختلف عن فصاحته.

هذا ولا تقع البلاغة وصفاً للكلمة المفردة -كما ذكرنا- إلا إذا أريد بالكلمة الكلام المركب، فتوصف بالبلاغة على هذا الاعتبار ويقال كلمة بليغة، لأن المراد بالكلمة عندئذ: الكلام المركب كالخطبة أو القصيدة أو الجملة أو الجمل، وليس المراد بها «اللفظ المفرد»، وقد أطلقت الكلمة على الكلام، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[1].

علم المعاني ومباحثه:

عرف البلاغيون علم المعاني بقولهم: «هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال».

و«اللفظ العربي» يشمل اللفظ المفرد واللفظ المركب أي الجملة وأجزاءها فأحوال الجملة: الإسناد الخبري، والإنشاء وأسلوب القصر والفصل والوصل والإيجاز والإطناب والمساواة، وأحوال أجزاء الجملة: أي المسند والمسند إليه ومتعلقات الفعل، كالتعريف والتنكير والحذف والذكر والتقديم والتأخير والإظهار والإضمار وغير ذلك. فعلم المعاني يبحث في تلك الأحوال، وكيف تأتي مطابقة لمقتضى حال المخاطب. أي أنه يبحث في بناء الجملة العربية صياغتها. اختيار أجزائها. علاقة الجمل المتتابعة بعضها ببعض واختيار نوع الكلام الملائم لمقتضى حال المخاطب، خبراً أو إنشاءً، إيجازاً أو إطناباً أو مساواة، ولذا فإن مباحثه تنحصر فيما يلي:

(١) سورة المؤمنون: ١٠٠.

١- أحوال الإسناد الخبرى .

٢- أحوال المسند إليه .

٣- أحوال المسند .

٤- أحوال متعلقات الفعل .

٥- أساليب القصر .

٦- أساليب الإنشاء .

٧- مواضع الفصل والوصل .

٨- الإيجاز والإطناب والمساواة .

وعلم النحو وإن كان قد تعرض لدراسة هذه الأحوال فدرس أحوال المسند إليه من حذف وذكر وتقديم وتأخير وتنكير وتعريف وكذا أحوال المسند والمتعلقات والحصر وغير ذلك . . إلا أن دراسته لها تختلف عن دراسة البلاغيين ، فالنحوى يدرس هذه الأحوال من حيث الجواز والوجوب والامتناع . أي : من حيث الحكم وإمكان الاستعمال . أما البلاغى فيدرس الأسرار الكامنة وراء هذه الأحوال ، لأنه يتناولها من حيث كونها مطلباً بلاغياً يقتضيه المقام ويدعو إليه حال المخاطب .

الفرق بين الخبر والإنشاء:

يتنوع الكلام إلى نوعين : خبر وإنشاء .

فالخبر هو الكلام الذى يحتمل الصدق والكذب لذاته ، نحو قولنا : «جاء زيد» ، فهذه الجملة أفادت نسبة المجيء إلى زيد والحكم به عليه . فإن وافق ذلك الواقع كان الخبر صادقاً ووصف الكلام بالصدق وإن خالفه كان الخبر كاذباً ووصف الكلام بالكذب . . . وكذا قولنا «ما جاء زيد» أفاد نفى المجىء عن زيد ، فإن وافق ذلك الواقع وصف الكلام بالصدق ، وإن خالفه وصف بالكذب . . وفى بعض الأحيان قد يوصف الخبر بالصدق فحسب ، أو بالكذب فقط ، ولكن هذا ليس لذات الكلام من حيث هو كلام خبرى وإنما باعتبار أسباب أخرى خارجة عن نطاق الجملة تؤيد صدقه أو كذبه . . فأخبار القرآن الكريم

لا تحتمل إلا الصدق باعتبارها كلام الله جل وعلا، وإن كانت تحتمل الصدق والكذب من حيث هى أخبار بصرف النظر عن قائلها. . وقول اليهود : عزير ابن الله، وقول النصارى : المسيح ابن الله، كلام لا يحتمل إلا الكذب. لأن الواقع يكذبه ويبطله، وإن كانت تحتمل الصدق والكذب من حيث هى أخبار. . . فوصف الخبر بالصدق فقط أو بالكذب فقط، إنما هو باعتبار أسباب خارجة عن نطاق العبارات -كما قلت- وليس لذات الكلام من حيث هو كلام خبري.

أما الإنشاء فالهدف منه والمقصد إيجاد الشيء وإنشاؤه ابتداء ولذا عرفوه بأنه : قول لا يحتمل الصدق والكذب لذاته، وهذا لا يعنى أنه ليس لمفهوم الكلام الإنشائى واقع يوافقه أو يخالفه، بل له واقع خارج نطاق العبارة، له واقع فى ذهن المتكلم به، ولكن لا يقصد موافقة مفهوم الكلام الإنشائى لهذا الواقع الخارجى الكائن فى ذهن المتكلم أو عدم موافقته، بل القصد -كما قلت- إلى إيجاد الشئ وإنشائه ابتداء : فقولك : حافظ على الصلاة، اقرأ القرآن . لا تقرب الفواحش. أين محمد؟ . ليت الشباب يعود. ياخالد. . . هذه أساليب إنشائية القصد منها إحداث الشئ وإيجاده ابتداء، ولا يقصد وصفها بالصدق أو الكذب، ولذا قالوا : الإنشاء قول لا يحتمل الصدق والكذب.

هذا وتفصيل القول فى أساليب الإنشاء وأنواعه وما يكمن وراءه من دقائق وفى الخبر وأجزائه وأحواله وما يكمن فى الصياغة والتراكيب من أسرار ودقائق ولطائف هو ما سنتناوله بالدراسة فى فصول هذا الكتاب إن شاء الله.

الفصل الأول

أحوال الإسناد الخبري

الكلمات المفردة مثل: محمد - زيد - ذهب - شكر - لا يفهم منها سوى معانيها اللغوية التى وضعت لها، ولكى تفيد معنى تاماً، لابد من ترابطها وضم بعضها إلى بعض، وصياغتها فى تراكيب مفيدة، ونظم معبر، هذا الترابط وذاك الضم، وتلك الصياغة، هى ما أطلق عليه البلاغيون اسم: «الإسناد» وعرفوه بقولهم: هو ضم كلمة إلى كلمة على وجه يفيد أن مفهوم إحداهما ثابت لمفهوم الأخرى أو منفى عنه، فقولنا: شكر محمد، ولم يذهب زيد، نجد أن كلمة «شكر» قد أسندت إلى كلمة «محمد» على وجه يفيد أن مفهوم «شكر» ثابت لمفهوم «محمد» ونجد فى المثال الثانى أن كلمة: «يذهب» قد أسندت إلى كلمة «زيد» على وجه يفيد أن الذهاب منفى عن زيد. ويسمى كل من: «محمد وزيد» مسنداً إليه أو محدثاً عنه، كما يسمى: «شكر ويذهب»، مسنداً أو حديثاً، وتسمى النسبة بين المسند إليه والمسند «إسناداً» وكذا القول فى الجمل: هدانا الله - الحق واضح - محمد فاضل- الفراغ مفسدة الشمس ليست مشرقة حيث أسندت الهداية إلى الله، والوضوح إلى الحق، والفضل إلى محمد، والفساد إلى الفراغ على وجه الإثبات، وأسند الإشراق إلى الشمس على وجه النفى، ولا يخفى عليك معرفة المسند والمسند إليه فى الجمل المذكورة.

أغراض الخبر:

عند ضم الكلمات وإسناد بعضها إلى بعض تتكون الجمل المفيدة أو الأخبار، والمتكلم الذى بصدد الإخبار والإعلام، يقصد بخبره غرضاً، ويسعى من وراء الإعلام به

إلى غاية، وقد حصر البلاغيون أغراض الخبر فى مقصدين أساسيين، حيث قالوا: إن قصد المخبر بخبره إما إفادة المخاطب أوالسامع مضمون الخبر ونفس الحكم كقوله: جاء عمرو، وزيد ناجح لمن لا يعلم مجئ عمرو. ونجاح زيد، ويسمى هذا «فائدة الخبر» وهى المقصد الأول من الأسلوب الخبري، وإما إفادة المخاطب أنه أي: المتكلم، عالم بالحكم وبمضمون الخبر الذى يعلمه المخاطب، وذلك عندما يكون المخاطب عالماً بمضمون الخبر ولكنه يجهل معرفة المتكلم به، كقوله لمن ظهرت نتيجة اختباره ووقف على نبأ نجاحه: «أنت نجحت»، وكقوله لمن اسمه محمد: «اسمك محمد»، فالمخاطب يعلم نبأ نجاحه، ولا يجهل اسمه، ولكن المتكلم يريد إفادته أنه هر الآخر عالم بالحكم وبمضمون الخبر، ويسمى هذا: «لازم الفائدة» وهى المقصد الثانى من الأسلوب الخبري. ثم نبه البلاغيون، إلى أن الخبر غالباً ما يقصد به أغراض أخرى غير هذين الغرضين الأساسيين وأن تلك الأغراض الأخرى أكثر من أن تحصى، والمرجع فى معرفتها إلى تفهم السياق وقرائن الأحوال اعتماداً على الذوق الأدبى السليم والطبع العربى الأصيل. تأمل قوله: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾[1].

تجد أن امرأة عمران لم ترد بالخبر فائدته ولا لازم الفائدة، لأن الله عز وجل أعلم بهذا. وإنما أرادت أن تظهر تحسرها وتحزنها على خيبة الرجاء حيث كانت ترجو وتقدر أن تلد ذكراً كى تهبه لخدمة بيت المقدس. ثم تأمل قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾[2]. ولاحظ مدى الفرق بين الأخبار فى هذه الآية الكريمة والخبر فى الآية السابقة، فالأخبار فى هذه الآية، أريد بها إعلام المؤمنين حكماً إسلامياً وخبراً جديداً لم يكن معلوماً لهم من قبل. وهذا ما سمى «بفائدة الخبر». ومن هذا القبيل تلك الأخبار التى يكون الغرض منها عرض المسائل العلمية على الطلبة فى قاعة الدراسة وفى الكتب العلمية المؤلفة فى مختلف فنون العلم. وتعد إجابات الطلاب على ما يوجه إليهم من أسئلة، أخباراً قصد بها «لازم الفائدة» إذ الغرض منها إفادة المعلم أنهم على علم بصحة الإجابة التى يعلمها. ومن الأخبار التى لم يرد بها الفائدة ولا لازمها قوله تعالى

(١) سورة آل عمران: ٣٦.
(٢) سورة البقرة: ١٨٥.

حكاية عن زكريا عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الـرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾[1]، إذ المراد إظهار الضعف والتخشع والخضوع لله عز وجل. وقوله تعالى: ﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾[2]، فالمراد: حث الهمم وتحريك حمية القاعد.

ومن ذلك إرادة الفخر كما فى قول عمرو بن كلثوم:

إذا بلغ الفطـــام لنـــا رضيـــع   تخـر له الجبـــابـــر ساجدينـــا

والنصح والإرشاد كما فى قول زهير:

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله   على قومـه يستغـن عنـه ويـذمم

والمدح كما فى قول النابغة يمدح النعمان بن المنذر:

فإنك شمـس والملوك كواكـــب   إذا طلعت لم يبـد منهن كوكـب

والهجاء كما فى قول جرير يهجو الفرزدق:

زعم الفـــرزدق أن سيقتل مربعا   أبشـر بطـول سلامـــة يامربـــع

وإظهار الحزن والأسى كما فى قول العرجي:

أضاعونـــي وأى فتى أضاعـــوا   ليـوم كريهـــة وســــداد ثغـــر

والرثاء كما فى قول أبى ذؤيب الهذلي:

أودى بنـــي وأعقبـــوني غصـــة   بعـد الرقـــاد وعبـــرة لا تقلـــع

وكما فى قول ابن الرومي:

طواه الردى عنى فأضحى مزاره   بعيداً على قرب قريباً على بعـد

وإظهار الضعف وإبداء الملل والسآمة كما فى قول عوف بن محلم.

إن الثمانـــين - وبلغتهـــــا -   قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

---

(١) سورة مريم: ٤.

(٢) سورة النساء: ٩٥.

والتوبيخ والإنكار كقولك لمن يؤذى أباه: «إنما هو أبوك» إلى غير ذلك من الأغراض التى نبه البلاغيون إلى أنها أكثر من أن تحصى»[1].

وجه دلالة الخبر على أغراضه:

اختلفت آراء البلاغيين فى وجه دلالة الخبر على أغراضه المذكورة فبعضهم يرى أن الغرض الأول وهو «فائدة الخبر» يفهم من ذات الخبر ويدل عليه دلالة حقيقية مباشرة، فعندما تقول لمن لا علم له بنجاح محمد: نجح محمد، فإنه يفهم مضمون الخبر وفائدته من ذات الجملة ونفس الإسناد. أما بقية الأغراض فيدل عليها الخبر دلالة تبعية. فهى من مستتبعات التراكيب، ومعنى مستتبعات التراكيب أن تلك الأغراض تفهم من الخبر بمعونة السياق ومعرفة قرائن الأحوال، فدلالة الآية الكريمة ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ ﴾[1] على إظهار التحسر وإبداء التحزن، تم عن طريق معرفة السياق والوقوف على قرائن أحواله، من أن امراة عمران قد وهبت ما فى بطنها لخدمة بيت المقدس، وأنه قد خاب رجاؤها ولم يتحقق ما أملته عندما وضعت أنثى. وهكذا بقية الأغراض يدل عليها الخبر بمعونة السياق ومعرفة قرائن أحواله.

ويرى آخرون أن «فائدة الخبر» و «لازم الفائدة» قد دل عليهما الخبر دلالة حقيقية حيث يفهمان من ذات الإسناد ونفس البناء وما عداهما دل عليه الخبر عن طريق الكناية، فكما دلت كثرة الرماد وهزال الفصيل وجبن الكلب على صفة الكرم، فكذلك الدلالة على الأغراض المذكورة: إظهار التحسر -إبداء الضعف - الفخر- الرثاء: قد فهمت من أخبارها فى الشواهد المذكورة عن طريق الكناية.

ورأى ثالث يقول: إن هذه الأغراض التى خرجت عن الأصل من قبيل المجاز المرسل، حيث استعمل الكلام فى معنى الفخر أو المدح أو التحسر أو تحريك الحمية مثلاً مجازاً مرسلاً من استعمال المركب فى غير ما وضع له لعلاقة اللزوم[2]. ولا أرى فائدة ولا ثمرة وراء هذه الاختلافات فى تحديد وجه دلالة الخبر، والذى أرجحه هو الرأى الأول؛ لأن المخاطب عندما يقف على السياق ويعرف قرائن أحواله تتضح له هذه الأغراض، فليس هنالك ما يدعو إذاً للقول بأن إفادتها عن طريق الكناية أو المجاز المركب.

(١) المطول: ٤٣.

(٢) ارجع إلى هذه الآراء في شروح التلخيص ١ / ٤٧.

أضرب الخبر:

يعد المبرد أول من أشار إلى أضرب الخبر وذلك عندما سأله الفيلسوف الكندى قائلاً: أجد فى كلام العرب حشواً، أراهم يقولون: عبد الله قائم، وإن عبد الله قائم، وإن عبد الله لقائم، والمعنى واحد، فأجابه المبرد قائلاً: بل المعانى مختلفة، فعبد الله قائم إخبار عن قيامه، وإن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل، وإن عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر وقد أفاد البلاغيون من إجابة المبرد ونبهوا إلى ضرورة أن يكون المتكلم عالماً بأحوال المخاطبين، خبيراً بنفسياتهم وما يجول فى خواطرهم ويتردد فى أذهانهم، وأن يلقى إليهم كلامه ملائماً لتلك الأحوال، فإذا كان المخاطب خالى الذهن ألقى إليه الكلام بدون تأكيد فيقال له مثلاً: الحق واضح. انتصر الحق. عاد الغائب، فيتمكن هذا فى ذهنه لمصادفته إياه خالياً وإذا كان المخاطب متردداً فى إسناد أحد الطرفين إلى الآخر ألقى إليه الكلام مؤكداً بمؤكد واحد استحساناً فيقال: إن الحق واضح. قد انتصر الحق قد عاد الغائب، ومؤكدات الحكم كثيرة منها: إن وأن ولام الابتداء والقسم ونون التوكيد وحروف التنبيه نحو ألا وها، والحروف الزائدة وقد وضمير الفصل والتقديم إلى غير ذلك من المؤكدات.

وإذا كان المخاطب منكراً للحكم وجب توكيد الخبر له حسب إنكاره فيقال له: إن الحق واضح، إن كان لا يبالغ فى إنكاره، وإن الحق لواضح إن كان يبالغ، ووالله إن الحق لواضح لمن اشتد إنكاره وغالى فيه. فأضرب الخبر ثلاثة: ابتدائي: وهو ما يلقى للمخاطب الخالى الذهن، ويكون خالياً من التوكيد، وطلبى وهو ما يلقى للمخاطب المتردد فى الحكم، ويكون مصحوباً بمؤكد واحد استحساناً، وإنكارى وهو ما يلقى للمخاطب المنكر لمضمون الخبر، ويجب أن يكون الكلام حينئذ مصحوباً بمؤكد أو أكثر حسب قوة الإنكار وضعفه.

انظر فى قوله تعالى: ﴿ **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ** ﴾[1] تجد أن أصحاب القرية قد كذبوا الرسولين وأنكروا رسالتهما فعزز الله بثالث فقالت الرسل الثلاثة: «إنا إليكم مرسلون» مؤكدين الخبر لأصحاب القرية، لأنهم منكرون له، فلما

(١) سورة يس: ١٣ - ١٦.

اشتد إنكارهم وجحدهم لرسالتهم: «ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون» قالت الرسل: «ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون»، مؤكدين الخبر بإن واللام وصدروا الجملة بما هو فى معنى القسم: «ربنا يعلم».

وانظر فى قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1] تجدْ أن المقام قد اقتضى تأكيد الخبرين بأكثر من مؤكد دفعاً لإنكار المنكرين وتبديداً لارتياب وشك الشاكين. فالكفرة قد أنكروا نزول القرآن وقالوا ساخرين: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[2]، واقتضى هذا الإنكار تأكيد الخبر -كما ترى- بإن وضمير الفصل «نحن» وتكرار الإسناد للضمير «نحن نزلنا». ولما كانت هناك شكوك محتملة أن يصيب القرآن ما أصاب التوراة والإنجيل من التحريف والتبديل، جاء الخبر الثانى مؤكداً بإن ولام التوكيد وتقديم الجار والمجرور «له» وهذا التأكيد يدفع تلك الشكوك المحتملة ويبث الطمأنينة فى قلوب المؤمنين.

وخذ قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ (٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ .... ﴾[3]. وتأمل تجد أن ضمير الفصل «هو قد جاء فى بعض الآيات دون بعض، وأن الآيات التى جاء بها تحتاج إلى مزيد من تأكيد الخبر وتقوية نسبة أفعالها إلى الله عز وجل واختصاصها به، فالإضحاك والإبكاء -بمعنى السرور والحزن- والإحياء والإماتة والإغناء والإقناء - أقنى أعطى القنية وهو المال الذى تملكته وعزمت ألا تخرجه من يدك- هذه الأفعال لما كانت مظنة الشركة وأن لغير الله - سبحانه وتعالى- دخلاً وفعالية فيها، وكان هناك من ينكر البعث، جاء ضمير الفصل ليؤكد نسبة هذه الأفعال إلى الله تعالى واختصاصها به وليبطل أن يكون لغيره دخل فى شئون عباده، وليستأصل مظنة الشركة فيها فلا يتطلع المؤمن ولا ينظر إلا إلى السماء.

---

(١) سورة الحجر: ٩.

(٢) سورة الحجر: ٦، ٧.

(٣) سورة النجم الآيات ٤٢ - ٥٢.

وكذلك «الشعرى» لما كانت خزاعة تعبدها من دون الله، أكد النظم ربوبيتها له تعالى، وانظر إلى تقديم الجار والمجرور . . «إلى ربك المنتهى» . «عليه النشأة الأخرى»، ليؤكد بهذا التقديم ما ينكره المعاندون من انقلابهم إليه تعالى وإحيائه لهم بعد مماتهم ثم انظر إلى الأفعال التى جاءت بدون ضمير الوصل فى الآيات ولاحظ أنها ليست موضع إنكار ولا مظنة شركة: «وأنه خلق الزوجين»، «وأنه أهلك عاداً» . فهم لا ينكرون أن الله هو الخالق بل يقرون بذلك وينطقون بنسبة الخلق إليه تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[1]، وإهلاك عاد عاد وثمود وقوم نوح يعلمونه ويسمعونه من غير القرآن ولا ينكرونه فليس الخلق والإهلاك مما تظن فيه الشركة ولذا خلت الآيتان من ضمير الفصل، وهكذا تجد نبرة التوكيد فى الآيات تعلو وتهبط لتلائم مواقع المعانى فى النفوس وما يكمن داخلها وسبحان المحيط بالأسرار[2].

وهذا مجئ الخبر على هذه الأضرب الثلاثة وملائماً لحال المخاطب، فيخلو من التأكيد عند إلقائه لخالى الذهن ويؤكد استحساناً للمتردد ووجوباً للمنكر، يسمى إخراجاً للكلام على مقتضى الظاهر، وكثيراً ما يخرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر فيأتى على أمور اعتبارية يعتبرها المتكلم فى المخاطب فينزل حاله منزلة حال أخرى ويكون ذلك لدواع وأسرار بلاغية يقتضيها المقام.

إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر:

قد يقتضى المقام أن يفترض المتكلم حالاً فى المخاطب غير حاله الحقيقية التى هو عليها، فينزل خالى الذهن منزلة المتردد أو المنكر، وينزل المنكر منزلة غير المنكر، وذلك لا يكون إلا لأسرار يلتفت إليها المتكلم ويعيها البصير بلطائف هذه اللغة ودقائقها. فعندما تكون الجمل المتقدمة فى سياق الكلام متضمنة ما يشير إلى الخبر ويلوح بها ويومئ إليه فإنها تثير فى النفس المتلقية تساؤلاً يجعلها تتطلع وتستشرف إلى معرفة الخبر والوقوف عليه، وعندئذ تأتى جملة الخبر مؤكدة لتزيل ما أثير فى نفس المخاطب من تساؤلات واستشراقات منزلة إياه منزلة المتردد السائل، ويقع هذا غالباً إذا كانت الجمل السابقة تتضمن نصائح أو إرشاداً وتوجيهاً أو نهياً وأمراً، أو حدثاً غريباً يستدعى وقوف النفس وتأملها.

(١) سورة الزخرف : ٨٧.

(٢) ارجع إلى خصائص التراكيب ص ٥٠ .

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾[1]، تجد أن جملة: «إنهم مغرقون»، قد جاءت مؤكدة بإن، والمخاطب وهو نوح – عليه السلام– ليس متردداً فى مضمون إفادتها وذلك لأنه لما تقدم فى سياق الآيات الكريمة إخباره أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، ونهيه عن أن يحزن لما صنعوا: «لا تبتئس» ثم أمره بصنع الفلك ونهيه عن مخاطبة الله فى شأن من أعرض وكفر، هذا الذى تقدم أثار فى نفس نوح عليه السلام تساؤلاً عما سيحل بالقوم وتطلعت نفسه إلى معرفة الخبر، أهو إغراق خاصة وأن الأمر بصنع الفلك يشير إليه إشارة ظاهرة؟ فنزل لهذا منزلة المتردد السائل وألقى إليه الخبر مؤكداً «إنهم مغرقون» ليجيب ما أثير فى نفسه. ومثله قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾[2]، فتقدم النهى «لا تحزن» أثار فى نفس أبى بكر رضى الله عنه تطلعاً وتشوقاً إلى معرفة الخبر، ولذا جاء مؤكداً: «إن الله معنا» تنزيلاً له منزلة السائل المتردد، ومثل هذا كثير فى أساليب القرآن الكريم تأمل قوله تعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾[3]، وقوله عز وجل: ﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾[4] وقوله جل وعلا: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾[6]، ولا يخفى عليك مجئ الخبر مؤكداً بعد الأوامر والنواهى فى الآيات الكريمة، لأن الأمر أو النهى المتقدم أثار فى نفس المخاطب تساؤلاً وتطلعاً إلى معرفة الخبر فنزل منزلة السائل المتردد،

(١) سورة هود: ٣٦، ٣٧.
(٢) سورة التوبة: ٤٠.
(٣) سورة التوبة: ٩٥.
(٤) سورة التوبة: ٥٣.
(٥) سورة التوبة: ٨٤.
(٦) سورة الإسراء: ٣٢.

وخذ قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾[1]، تجد أن صدر الآية قد تضمن خبراً غريباً وهو اتهام المتكلم نفسه ونفى التبرئة عنها، والمتكلم وهو يوسف - عليه السلام- أو امرأة العزيز، على خلاف بين المفسرين، فعلى أنه يوسف، يكون نفى التبرئة عن نفسه أمراً غريباً يثير فى النفس تساؤلاً واستشرافاً لمعرفة الخبر، إذ كيف لا يبرئ يوسف نفسه وهو التقى النقي؟ ولذا جاء الخبر مؤكداً: «إن النفس لأمارة بالسوء» تنزيلاً للمخاطب خالى الذهن منزلة السائل المتردد. وعلى الرأى القائل بأن المتكلم امرأة العزيز فلا يخلو نفى التبرئة عن نفسها من إثارة التساؤل فى نفس المخاطب، لأن اتهام النفس ونفى التبرئة عنها من الأمور المستبعدة.

ومن أشعارهم فى هذا الصدد قول الشاعر:

فغنهـا وهـى لك الفـداء ... إن غنـاء الإبـل الحُـداء

فحينما قال الشاعر: غنها ليشتد سيرها، صار السامع متردداً ما غناؤها أهو الحداء أم غيره؟ فجاء الخبر مؤكداً «إن غناء الإبل الحداء»، على خلاف مقتضى الظاهر بتنزيل خالى الذهن منزلة المتردد السائل ليزيل ما أثير فى نفس السامع. ومما يروى أن أبا عمرو بن العلاء وخلف الأحمر كانا يأتيان بشاراً، فيستمعان إليه ويكتبان عنه، وقد أتياه يوماً فقالا: ما هذه القصيدة التى أحدثتها فى ابن قتيبة؟ قال هى ما بلغتكما. قالا: بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب، قال: نعم إن ابن قتيبة يتباصر بالغريب فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرف قالا: فأنشدنا يأبا معاذ، فأنشدهما:

بكـرا صاحبـى قبـل الهجيـر ... إن ذاك النجـاح فى التبكيـر

حتى فرغ منها، فقال له خلف: لو قلت يأبا معاذ مكان «إن ذاك النجاح»، «بكرا فالنجاح»، كان أحسن، فقال بشار: إنما بنيتها أعرابية وحشية، فقلت: «إن ذاك النجاح»، كما يقول الأعراب البدويون، ولو قلت: «بكراً فالنجاح» كان هذا من كلام المولدين، ولا يشبه ذلك الكلام، ولا يدخل فى معنى القصيدة فقام خلف فقبل ما بين عينيه. وإنما كان «بكرا فالنجاح» من كلام المولدين، لأنه ليس فيه من دقة الإشارة إلى تنزيل غير

(١) سورة يوسف: ٥٣.

المتردد منزلة السائل المتردد، ما في قوله: «إن ذاك النجاح»، ولكن فيه تكرير الأمر بالتبكير لتأكيده على وجه ظاهر ليس فيه دقة ذلك التأكيد الخفي، والمولدون يؤثرون السهولة على الدقة[1].

❐❐❐

وقد ينزل المنكر منزلة غير المنكر لعدم الاعتداد بإنكاره. لأنه لو فكر وتأمل لارتدع عن إنكاره وأقلع عن جحوده وتكذيبه.

انظر في قوله تعالى: : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾[2]، نجد أن الخطاب موجه إلى المشركين المعاندين الذين لا يقرون بالوحدانية لله تعالى، وكان مقتضى حالهم أن يلقى إليهم الكلام مؤكداً ولكنهم نزلوا منزلة غير المنكرين، لعدم الاعتداد بهذا الإنكار، لأنهم لو تأملوا وتدبروا لأقلعوا عن إنكارهم ولأقروا بما ينبغي لجلال سلطانه وعظيم شأنه.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾[3]، تجد أن الخبر «هو ربي» قد وجه إلى هؤلاء المنكرين الذين كفروا بالرحمن، خالياً من التأكيد، حيث لم يعتد بإنكارهم، وهذا ينبئ بضعف عقولهم وقرب نظرهم، لأنهم لو تأملوا وفكروا ما أنكروا.

وخذ قوله تعالى: ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾[4]، نجد أن الخبر «الله ربنا وربكم» مساق للكفرة الذين ينكرونه، وقد خلا من التوكيد إشارة إلى أنه مما ينبغي ألا يجحد وينكر، ومثل هذا كثير في النظم الكريم: انظر إلى الآيات الكريمة: ﴿ الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ

(١) دلائل الإعجاز ص ١٧٧، ١٨٨.
(٢) سورة البقرة: ١٦٣.
(٣) سورة الرعد: ٣٠.
(٤) سورة الشورى: ١٥.

لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1] ، : ﴿ حم ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾[2] ، : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝٢٨ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾[3] .

نجد أن الخطاب فيها موجه إلى المؤمن والكافر ، ولكنها لم تعبأ بإنكار الكافر وتكذيبه رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وتنزيل الكتاب فألقت الخبر بلا تأكيد : «ذلك الكتاب لا ريب فيه» «تنزيل الكتاب من الله» ، «محمد رسول الله . . » تنبيهاً إلى أنه لو تأمل وتدبر لأقر بذلك ولم يجحده .

وتقول لمنكر الإسلام ولجاحد الصلاة ولمنكر وجود الله : الإسلام حق ، الصلاة واجبة ، الله موجود ، فتنزله منزلة غير المنكر لعدم اعتدادك بإنكاره . وانظر إلى قول الفرزدق مخاطباً هشام بن عبد الملك حينما أنكر معرفته لعلى بن الحسين :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته	والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم	هذا التقى النقى الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله	بجده أنبياء الله قد ختموا
وليس قولك من هذا بضائره	العرب تعرف من أنكرت والعجم

فلم يعتد الفرزدق بإنكار هشام وتجاهله «علياً» ، وألقى إليه الخبر مجرداً من التوكيد ، تنزيلاً له منزلة غير المنكر ، لأنه لو أنصف ما أنكر وتجاهل ، ولذا لم يعتد الشاعر بهذا الإنكار ، وفيه توبيخ وتبكيت لهشام حيث أنكر أمراً معلوماً واضحاً ما كان ينبغي له أن ينكره .

❑ ❑ ❑

(١) سورة البقرة : ١ ، ٢ .
(٢) سورة غافر : ١ ، ٢ .
(٣) سورة الفتح : ٢٨ ، ٢٩ .

وقد ينزل غير المنكر منزلة المنكر، إذ بدا عليه شيء من أمارات الإنكار، فيلقى إليه الخبر مؤكداً. انظر إلى قول الباهلي:

جاء شقيق عارضاً رمحه   إن بني عمك فيهم رماح

لما رأى شقيقاً قد جاء عارضاً رمحه أي: واضعه على عرضه وجاعله على فخذه، مدلاً بشجاعته، مفتخراً بقوته، لم يعبأ ببني عمه، وكأنهم عزل من السلاح، لما رآه الشاعر هكذا نزله منزلة المنكر الذي يجحد قوة بني عمه ولا يقر بما لديهم من عتاد وأسلحة، فخاطبه خطابه، وألقى إليه الخبر مؤكداً: «إن بني عمك فيهم رماح».. وخذ قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾[1]، لما كان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على هدايتهم، مجهداً نفسه في إبلاغهم ما أنزل إليه، متطلعاً إلى استجابتهم وقبولهم الحق وإقلاعهم عن الضلال والكفر، لما كان كذلك نزل منزلة من يعتقد أنه يستطيع إسماع الصم وهداية العمى وينكر عدم قدرته على إسماعهم وهدايتهم فألقى إليه الخبر مؤكداً: «إنك لا تسمع الموتى».. وتأمل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2]، تجد أن الذين تابوا وآمنوا لا ينكرون مغفرة الله ورحمته، ولكنهم لما كانوا قد ارتكبوا السيئات واقترفوا الذنوب والآثام صاروا في خوف من عقاب الله، وكلما تذكروا ما اقترفوا اقشعرت جلودهم وتذكروا عذاب الله، فنزلت حالتهم هذه وما هم فيه من خوف وقلق وعدم أمن، منزلة من ينكر رحمة الله ومغفرته، وألقى إليهم الخبر مؤكداً: «إن ربك من بعدها لغفور رحيم، طمأنة لهم وتثبيتاً..» ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[3]، فقد أكد الخبر الأول «إنا نحن نزلنا الذكر» دفعاً لإنكار المنكرين - كما مر بنا - وأكد الخبر الثاني: «وإنا له لحافظون» بثاً للطمأنينة في قلوب المؤمنين الذين رأوا ما أصاب الكتب السابقة كالتوارة والإنجيل من تحريف وتبديل، فخافوا أن يصيب القرآن ما أصاب هذه الكتب وتطلعوا إلى حفظه من التحريف وجال القلق على القرآن في نفوسهم، ولذا خوطبوا خطاب المنكر فأكد لهم الخبر على خلاف مقتضى الظاهر، تثبيتاً لهم..

(١) سورة النمل: ٨٠، ٨١.
(٢) سورة الأعراف: ١٥٣.
(٣) سورة الحجر: ٩.

وتأمل قول الشاعر :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها   إن السفينة لا تجـرى على اليبس

فلما كان المخاطب يطلب النجاة ولم يأخذ بأسبابها ولم يسلك طرقها نزل منزلة من يعتقد أن السفينة تجرى على اليبس وينكر عدم جريانها عليه، فأكد له الخبر . إن «السفينة لا تجرى على اليبس» وانظر فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ⁽١٤⁾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ⁽١٥⁾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾[1]، تجده قد أكد الخبر الأول بمؤكدين وهو مما لا ينكر، وأكد الثانى بمؤكد واحد وهو مما ينكر ويدفع، حيث أنكر الكفرة البعث ولم ينكروا الموت، ويعلل ذلك القزوينى بقوله : «أكد إثبات الموت تأكيدين وإن كان مما لا ينكر، لتنزيل المخاطبين منزلة من يبالغ فى إنكار الموت، لتماديهم فى الغفلة والإعراض عن العمل لما بعده» ولهذا قيل «ميتون» دون تموتون . لإفادة الثبوت والدوام وأكد إثبات البعث تأكيداً واحداً وإن كان مما ينكر، لأنه لما كانت أدلته ظاهرة كان جديراً بألا ينكر، بل إما أن يعترف به أو يتردد فيه، فنزل المخاطبون منزلة المترددين تنبيهاً لهم على ظهور أدلته وحثاً على النظر فيها ولذا جاء «تبعثون» على الأصل»[2]. وتقول للمسلم الذى يهمل الصلاة ولا يدفع زكاة ماله، وللابن الذى يؤذى أباه : إن الصلاة لواجبة، وإن الزكاة لحق للفقير . . وإنما هو أبوك، فتنزله منزلة المنكر وتجرى الكلام على خلاف ظاهر حاله لعدم جريه على وفق ما يعلم . .

هذا وحال المخاطب ليست دائماً هى المعول الذى يعول عليه فى تأكيد الخبر أو عدم تأكيده، فقد يؤكد الخبر دون نظر إلى أحوال المخاطب، بل لدواع أخرى بعيدة عن تلك الأحوال، كما قد يترك توكيده دون أن يكون لحال المخاطب دخل فى ترك التوكيد . . انظر إلى قول الفرزدق يخاطب جريراً :

خالى الذى غصب الملوك نفوسهم   وإليه كان جباء جفنة ينقل

إنا لنضرب رأس كل قبيلة   وأبوك خلف أتانه يتقمل

---

(١) سورة المؤمنون : ١٤ - ١٦ .

(٢) الإيضاح ١ / ٥١ .

لا يتأتى أن يقال: إن الشاعر أكد الخبر في قوله: «إنا لنضرب»؛ لأنه يخاطب من ينكر عليهم هذا الضرب، أو من قد نزل هذه المنزلة إذ كيف يتصور الشاعر أن هناك من ينكر ذلك وهو يمدح ويفخر بالشجاعة وشدة الفتك، إن مجرد جريان مثل هذا فى ذهنه وخياله يناقض المعنى الذى أراد إثباته. . كما أنه لا يقال إن جريراً غير منكر للخبر الثانى «وأبوك خلف أتانه» بل هو ينكره أشد الإنكار، ومع ذلك ألقاه إليه الفرزدق خالياً من التوكيد، فحال المخاطب فى البيت لا يعول عليها فى تأكيد الخبر الأول، ولا فى ترك تأكيد الخبر الثاني. . فما المعول عليه إذاً؟ المعول عليه هو حال المتكلم نفسه، حيث نظر المتكلم إلى حال نفسه ومدى انفعاله بالحقائق التى يصورها، وحرصه على إذاعتها ونقلها إلى النفوس كما أحسها، فقد صاغ الخبر الأول، كما أحسه مؤكداً مقرراً وصاغ الثانى عارياً من التوكيد ليوهم أنها حقيقة لا ينبغى لجرير أن ينكرها. . ونظير ذلك قول ابن الرومى فى رثاء ابنه:

وإنى وإن متعت بابنىّ بعده ... لذاكره ما حنت النيب فى نجد

وقول الآخر:

إنا لمن معشر أفنى أوائلهم ... قيل الكماة ألا أين المحامونا

وقول أبى نخيلة فى مدح مسلمة بن عبد الملك:

أمسلم إنى يا ابن كل خليفة ... وياجبل الدنيا وياواحد الأرض
شكرتك إن الشكر حبل من التقى ... وما كل من أوليته صالحاً يقضي
وأنبهت لى ذكرى وما كان خاملاً ... ولكن بعض الذكر أنبه من بعض

وقول مضرِّس بن ربعى:

لعمرك إنى بالخليل الذى له ... على دلال واجب لمفجع
وإنى بالمولى لذى ليس نافعى ... ولا ضائرى فقدانه لممتع

ففى مثل هذه الأبيات لم ينظر فى تأكيد الخبر إلى حال مخاطب قد أنكر الحكم، وإنما أراد الشعراء أن يبرزوا أحوال أنفسهم وأن ينقلوا للسامع ما جال فى خواطرهم، فصاغوا هذه الأخبار كما شعروا بها وأحسوها مقررة مؤكدة. . .

وهذا كثير في النظم القرآني ، انظر إلى قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾[1] .

صاغ إبراهيم - عليه السلام - الخبر مؤكداً كما أحسه ، وكما انفعلت به نفسه ، ولم ينظر في صياغته إلى اعتبارات خارجية يلحظها عند المخاطب . . ومثله قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾[2] . وقوله عز وجل : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾[3] ، وقوله جل وعلا : ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ﴾[4] ، وانظر في قوله تبارك وتعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾[5] . تجد أن المنافقين قد أكدوا الخبر : «إنك لرسول الله» ليفيدوا أنه قد امتلأت به نفوسهم وأن هذه الشهادة صادرة عن صميم قلوبهم ولما كان قولهم هذا عن غير اعتقاد ، فقد جاء تأكيد الخبرين : «إنك لرسوله» ، «إن المنافقين لكاذبون» ليفيد أن ما قرروه وأكدوه . عن غير اعتقاد ، سيبقى مؤكداً قوياً في علم الله وفي اعتقاد المؤمن ، وليبرز كذبهم بنفس القوة والتأكيد الذى أكدوا به شهادتهم عن غير اعتقاد . وفي هذا توبيخ وتقريع لهؤلاء المنافقين . . . وتأمل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾[6] تجد أن إلقاء الخبر إلى الذين آمنوا قد جاء بلا تأكيد : «آمنا» وهذا يدل على أن نفوسهم غير ممتلئة به وأنه لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة واعتقاد ، أما إلقاؤه إلى شياطينهم فقد جاء مؤكداً : «إنا معكم ، إنما نحن مستهزءون» وهذا ينبئ أن نفوسهم قد امتلأت بهذا القول وأنهم يقولونه عن صدق رغبة واعتقاد ، ويجدون فيه أريحية لا يجدونها في القول الأول . . هذا وكما يكون داعي التوكيد هو رغبة المتكلم في إبراز الخبر مؤكداً كما أحسه وانفعل به وامتلأت به نفسه ، فقد يكون داعي التوكيد هو الرغبة في تحقيق الوعد أو الوعيد كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ

(١) سورة إبراهيم : ٣٧ .
(٢) سورة إبراهيم : ٣٨ .
(٣) سورة آل عمران : ٩ .
(٤) سورة آل عمران : ١٩٣ .
(٥) سورة المنافقون : ١ .
(٦) سورة البقرة : ١٤ .

يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾[٣]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾[٤] وقد يكون داعي التوكيد هو رغبة المتكلم في تقوية مضمون الكلام وتقريره في نفس المخاطب كما في الآيات الكريمة: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾[٥]، وقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً ﴾[٦]. وقوله: ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾[٧]، وقوله: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١) وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[٨].

وقد يكون التوكيد لغرابة الخبر كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾[٩].

وقد يأتي التوكيد للإشارة إلى مجيء الخبر على غير ما كان يرجو المتكلم ويأمل، وكأن نفس المتكلم تنكره فيؤكده لها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ ﴾[١٠]، وقوله عز وجل: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[١١]. إلى غير ذلك من الدواعي والأسباب التي يؤكد لها الخبر[١٢].

---

(١) سورة الحج: ٣٨، ٣٩.

(٢) سورة الأنبياء: ١٠١.

(٣) سورة الزمر: ٨.

(٤) سورة الأنبياء: ٩٨.

(٥) سورة النمل: ٧٩.

(٦) سورة الإنسان: ٢٣.

(٧) سورة طه: ١٤.

(٨) سورة الشعراء: ١٩١، ١٩٢.

(٩) سورة القصص: ٣٠.

(١٠) سورة آل عمران: ٣٦.

(١١) سورة الشعراء: ١١٧، ١١٨.

(١٢) ارجع إلى خصائص التراكيب ص ٥٧ وما بعدها.

التجوز في الإسناد

الإسناد - كما تقدم - معناه: بناء الجملة أو تكوين العبارة أو ضم الكلمة إلى الكلمة ليتكون نظمًا معبراً وكلاماً مفيداً وتركيباً جيداً، وهذا الإسناد لا يجرى دائماً على أسلوب الحقيقة، بل قد يتم عن طريق المجاز بمعنى أن يتجوز المتكلم في بناء جمله أو تكوين عباراته وقد يتم عن طريق الحقيقة، فمن الأبنية الحقيقية قولك: جاء محمد - ضرب زيد عمراً - ربح علي في تجارته - حمينا نساءنا - حيث تجد الفعل قد أسند إلى فاعله الحقيقي الذي فعله وقام به، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾[1] وقوله عز وجل: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾[2] تجد أن الأفعال ينزل، يعلم، تؤتى، تنزع، تعز، تذل، قد أسندت إلى فاعلها الحقيقي وهو «الله تعالى»، ومن الأبنية المجازية قولك ربحت التجارة، حمت السيوف النساء، سار الطريق، جرى النهر، أذل الحرص أعناق الرجال، تخطفهم الطريق، جمعتهم الطاعة وفرقتهم المعصية، حيث أسندت الأفعال كما ترى إلى غير فاعلها الحقيقي، فالتجارة لا تفعل الربح والسيوف لا تفعل الحماية والطريق لا يسير ولا يتخطف والنهر لا يجري والحرص لا يفعل الإذلال والطاعة لا تفعل الجمع والمعصية لا تفعل التفريق ولذا كان الإسناد في هذه الأمثلة إسناداً مجازياً، وانظر في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[3]، وقوله عز وجل: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾[4]. تلاحظ أنه قد أسندت «راضية» اسم فاعل إلى ضمير العيشة، والعيشة تكون مرضية لا راضية وأسند الربح إلى التجارة، والرابح هو صاحبها وليست هي، فالإسناد في الآيتين إسناد مجازي.

---

(١) سورة لقمان: ٣٤.

(٢) سورة آل عمران: ٢٦.

(٣) سورة القارعة: ٦، ٧.

(٤) سورة البقرة: ١٦.

ويزعم بعض الباحثين أن المجاز العقلي من ابتكارات الإمام عبد القاهر الجرجاني، ولكن عندما ترجع إلى أصول البلاغة في التراث العربي لدى الدارسين الأوائل، تراهم قد اهتموا بدراسة هذا الأسلوب وأشاروا إليه كما أشاروا إلى غيره من مسائل البلاغة وفنونها، وإن لم يسموه بهذه التسمية فقد أشار إليه سيبويه عند حديثه عن بيت الخنساء:

ترتع ما غفلت حتى إذا ادكرت   فإنما هي إقبال وإدبار

إذ يقول: «فجعلها الإقبال والإدبار مجاز على سعة الكلام كقولك: نهارك صائم وليلك قائم»[١]. وتحدث عنه أبو عبيدة في كتابه مجاز القرآن في أكثر من موضع، إذ يقول عن الآية الكريمة ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ وإنما يرضى بها الذي يعيش فيها[٢].

ويقول عن الآية: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾[٣]، : «مجازه مجاز ما كان العمل والفعل فيه لغيره أي: يبصر فيه، ألا ترى أن البصر إنما هو في النهار، والنهار لا يبصر كما أن النوم في الليل، ولا ينام الليل، فإذا نيم فيه قالوا: ليله نائم ونهاره صائم قال جرير:

لقد لمتنا ياأم غيلان فى السرى   ونمت وما ليل المطى بنائم[٤]

وينمو الحديث عن أسلوب المجاز العقلي عند الفراء، إذ أشار إليه في الآيات: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ وفى قول الشاعر:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

فالمعنى: لا معصوم اليوم من أمر الله، خلق من ماء مدفوق، في عيشة مرضية، واقعد فإنك أنت المطعوم المكسو[٥].

---

(١) الكتاب ١ / ١٦٩ .

(٢) مجاز القرآن ١ / ٢٧٩ .

(٣) سورة النمل : ٨٦ .

(٤) مجاز القرآن ٢ / ٩٦ .

(٥) انظر معاني القرآن ٢ / ١٥ ، ١٦ .

كما تحدث عنه في قوله تعالى: ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ ﴾ إذ يقول: «ربما قال قائل: كيف تربح التجارة وإنما يربح الرجل التاجر؟ وذلك من كلام العرب: ربح بيعك وخسر بيعك، فحسن القول بذلك، لأن الربح والخسران إنما يكونان في التجارة، فعلم معناه، ومثله من كلام العرب: هذا ليل نائم، ومثله من كتاب الله: ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ ﴾ وإنما العزيمة للرجال[1] فهنا نراه يضيف جديداً إلى دراسة هذا اللون وهو أن يكون المخاطب عالماً بموضع التجوز عارفاً الإسناد الحقيقي الذي عدل عنه، وهذا يتم عن طريق السياق وقرائن الأحوال، فلو قلت: خسر عبدك، على أن العبد تجارة يقع فيها الربح والخسارة، لا يعلم أنك متجوز في الإسناد إلا إذا أقمت قرينة دالة، كأن تقول ربحت أغنامك وإبلك وخسر بزك ورقيقك، وذلك لأن العبد قد يكون تاجراً وهذه إشارة دقيقة من الفراء.

وتحدث الجاحظ عن المجاز العقلي إذ يقول: «وسمع الحسن رجلاً يقول: طلع سهيل وبرد الليل، فكره ذلك وقال: إن سهيلاً لم يأت بحر ولا ببرد قط، ولهذا الكلام مجاز ومذهب، وقد كرهه الحسن كما ترى، وكره مالك بن أنس أن يقول الرجل للغيم والسحابة: ما أخلقها للمطر! وهذا كلام مجازه قائم وقد كرهه ابن أنس، كأنهم من خوفهم عليهم العود في شيء من أمر الجاهلية، احتاطوا في أمورهم، فمنعوهم من الكلام الذي فيه أدنى تعلق»[2] فالجاحظ هنا يشير إلى وجود أسلوب المجاز العقلي في اللغة، وإلى قضية خلق الأفعال التي شغلت المسلمين في عصره، فالمعتزلة اعتقدوا أن العبد يخلق أفعاله الاختيارية، وأهل السنة يعتقدون أن الأفعال كلها مخلوقة لله، وليس هذا موضع مناقشة تلك الأمور الاعتقادية ولكن ينبغي أن تعلم أن قولك: قام زيد، ليس مجازاً عقلياً، بل هو حقيقة، وزيد فاعل للقيام بتأثير الله عز وجل فيه، وفرق بين الخلق بمعنى: الإيجاد والتأثير وبين الخلق بمعنى القيام بالفعل بأمر الله، بمعنى: أن العرب إنما وضعت «قام» لفعل العبد الواقع بخلق الله تعالى، فالقيام معنى قائم بزيد، ووصف له، وله فيه كسب وتحصيل، وهذا يكفي ليكون الإسناد حقيقياً، فالإسناد الحقيقي ثلاثة أقسام:

١- ما يراد وقوعه من فاعله حقيقة بمعنى التأثير، وذلك يختص بالله تعالى كقولنا: خلق الله ورزق وأعطى وأحيا وأمات .

---

(١) معاني القرآن ١ / ١٤ .
(٢) الحيوان ١ / ٣٤١ .

٣- ما يراد وقوعه حكماً مثل : قام زيد وذهب عمرو .

٣- ما يراد به مجرد الاتصاف مثل : مرض زيد ، وبرد الماء[١] .

وهكذا نرى العلماء قد شغلوا بأمر المجاز العقلى وبوجوده في اللغة ، فنرى ابن قتيبة يتحدث عنه ويذكر شواهده في معرض حديثه عن المجاز ووجوده في القرآن الكريم وتفنيد مطاعن الطاعنين إذ يقول : «وأما الطاعنون على القرآن بالمجاز ، فإنهم زعموا أن المجاز كذب ، لأن الجدار لا يريد والقرية لا تسأل ، وهذا من أشنع جهالاتهم ، وأدلها على سوء نظرهم وقلة أفهامهم ولو كان المجاز كذباً ، وكل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلاً ، كان أكثر كلامنا فاسداً . لأنا نقول : نبت البقل وطالت الشجرة وأينعت الثمرة وأقام الجبل ورخص السعر . والله تعالى يقول : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ ﴾ وإنما يعزم عليه ، ويقول تعالى : ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ ﴾ وإنما يربح فيها ، ويقول : ﴿ جَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ وإنما كذب به . . . »[٢] .

ويقول المبرد في قول الشاعر :

حملت بـه في ليلـة مزءودة كرهـاً وعقـد نطاقهـا لم يحلل

«مزءودة : ذات زؤد وهو الفزع ، فمن نصب «مزءودة» ، فإنما أراد المرأة ، ومن خفض فإنما أراد الليلة ، وجعل الليلة ذات فزع لأنه يفزع فيها . قال الله تعالى ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ والمعنى : بل مكركم في الليل والنهار . . . »[٣] ، وكذا تحدث عنه ابن فارس وابن جني وعبد الجبار وغيرهم وأشاروا إلى شواهده وأمثلته في اللغة . ولما جاء عبد القاهر حلل هذه الشواهد وفصل القول فيه ووضع له تلك التسمية «المجاز العقلي» أو «المجاز الحكمي» وفرق بينه وبين المجاز اللغوي ، وشأن عبد القاهر في حديثه عن أسلوب المجاز العقلي ، شأنه في تناوله لغيره من فنون البلاغة ومسائلها ، فهو يتأثر بمن سبقه ويمتاز بالتحليل وعرض الشواهد وتفصيل القول . فمن الخطأ أن يقال : إن عبد القاهر هو الذي ابتكر هذا المجاز ، ولعل القائل بهذا وهو يغالي ويسرف في إثبات مدى تأثر عبد القاهر بأرسطو فيما

(١) شروح التلخيص ١ / ٢٢٨ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ٩٩ ، ١٠٠ .

(٣) الكامل ١ / ٧٩ .

يعرض من مسائل البلاغة - لعله لما لم يجد أرسطو قد تحدث عن المجاز العقلي، جعله من اختراعات عبد القاهر وابتكاره[١].

□□□

هذا ويطلق البلاغيون على المجاز العقلي تسميات كثيرة منها «المجاز في الإسناد» لكثرة وروده في النسب الإسنادية على نحو ما سترى، ومنها «مجاز الملابسة» ليشمل النسب الإسنادية وغيرها، ومنها «المجاز الحكمي» نسبة إلى حكم العقل، أو إلى الحكم الذي هو النسبة بين المسند والمسند إليه ومنها «المجاز النسبي» لوقوعه في النسبة كما قلنا. ويسميه بعضهم بالمجاز في الإثبات، والبعض بالمجاز في الجملة وآخرون بالمجاز التركيبي، وأشهر هذه التسميات: «المجاز العقلي» لرجوعه إلى تصرف العقل وحكمه.

وقد اعتاد البلاغيون أن يتحدثوا عن الإسناد الحقيقي قبل أن يتناولوا هذا المجاز، لأن معرفته تنبني على معرفة الحقيقة العقلية والإحاطة بها.

يقول الخطيب في تعريفه للحقيقة العقلية: «هي إسناد الفعل أو ما في معناه إلى ما هو له عند المتكلم في الظاهر»[٢].

وما في معنى الفعل يشمل اسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة واسم التفضيل والمصدر. فإنها تدل على الحدث مجرداً من الزمن، أما الفعل فإنه يدل على الحدث المقترن بالزمن، ولذا كانت الأسماء المذكورة فيها معنى الفعل حيث تدل على الحدث وهو جزء من معنى الفعل، ولا تدل على الزمن وهو جزء آخر من معنى الفعل.

وقوله «إلى ما هو له» يعني أن تسند الفعل أو ما في معناه إلى فاعله الذي هو له وفعله حقيقة أو حكماً كقولك: خلق الله الخلق وأحيا الأرض وأبدع السموات، فالله هو الفاعل الحقيقي لهذه الأفعال، هو المؤثر في إيجادها، وكقولك: قام زيد وذهب عمرو ومرض خالد وبرد الماء، فزيد وعمرو فاعلان للفعلين المذكورين حكماً بمعنى أن لهما كسباً

---

(١) مقدمة نقد النثر ٢٩.

(٢) الإيضاح ١ / ٥٤.

وتحصيلاً فيهما، وهذا يكفي لأن يكون الإسناد حقيقياً «وخالد والماء» قد اتصف كل منهما بالفعل الذي أسند إليه وهذا أيضاً كاف لكون الإسناد حقيقياً، فالفاعل إما أن يكون هو الذي فعل الفعل حقيقة وأثر في إيجاده وذلك لا يكون إلا لفاعل واحد هو الله سبحانه وتعالى، وإما أن يكون فاعلاً للفعل حكماً بمعنى أن يقوم به بأمر الله وتأثيره فيه ويكون له فيه كسب وتحصيل، وإما أن يكون متصفاً بالفعل. وفي كل ذلك يكون الإسناد حقيقياً كما في الأمثلة.

وقوله: «عند المتكلم في الظاهر»: قيد في التعريف يفيد أن المعول عليه في الإسناد هو اعتقاد المتكلم وما يبدو للمخاطب من ظاهر حاله، وبهذا يدخل في الحقيقة العقلية الأقوال التي تطابق الاعتقاد دون الواقع، والأقوال الكاذبة التي لا تطابق الواقع ولا الاعتقاد، كما يدخل فيها ما طابق الواقع والاعتقاد معاً، وما طابق الواقع دون الاعتقاد، فالحقيقة العقلية أربعة أقسام:

الأول: ما طابق فيه الإسناد الواقع والاعتقاد معاً، كقول المؤمن: شفى الله المريض. أنبت الله النبات، فشفاء المريض وإنبات النبات لله تعالى في الواقع وهو كذلك في اعتقاد المتكلم المؤمن.

الثاني: ما طابق فيه الإسناد اعتقاد المتكلم وخالف الواقع كقول الجاهل شفى الطبيب المريض. وأنبت الربيع النبات فاعتقاد الجاهل أن شفاء المريض من الطبيب وأن إنبات النبات من الربيع ولكن الواقع يخالف ذلك ويناقضه إذ الشفاء من الله والطبيب سبب له، والإنبات من الله تعالى والربيع ظرف له. ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن الدهريين: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[1]، فالدهري يعتقد أن الدهر هو الفاعل وهو الذي يهلك وهذا اعتقاد باطل لأن الواقع يدفعه والمؤمن عندما يسند الأفعال إلى الدهر أو الأيام، فإنه لا يعتقد أنها الفاعل، بل يكون متجوزاً كما سنرى.

الثالث: ما طابق فيه الإسناد الواقع وخالف اعتقاد المتكلم وذلك كقول المعتزلي لمن لا يعرف حاله وهو يخفيها عنه: «إن خالق الأفعال كلها هو الله». فإسناد خلق الأفعال إلى الله إسناد حقيقي، يطابق الواقع، ولكنه يخالف اعتقاد المعتزلي إذ اعتقاده أن الأفعال الاختيارية تسند إلى العبد لا إلى الله تعالى، ولا يمكن حمل هذا على المجاز لأن المخاطب

(١) سورة الجاثية: ٢٤.

لا يعلم حال المتكلم الخفية، فإن علمت هذه الحال أو وجدت القرينة الدالة على أن إسناد الفعل لغير ما هو له، كان الإسناد مجازياً.

الرابع: ما خالف الإسناد فيه الواقع والاعتقاد معاً، وذلك كالأقوال الكاذبة التي يكون القائل عالماً بها دون المخاطب كأن يقول نجح فلان وهو لم ينجح، فهذا القول يخالف الواقع ويخالف اعتقاد القائل، وإنما كان من قبيل الإسناد الحقيقي لأن المخاطب لا يعلم أنه كذب، والمتكلم الكاذب لا ينصب قرينة تدل على أنه كاذب.

هذا ونلاحظ أن الخطيب قد قصر الإسناد الحقيقي على الفعل وما في معناه، وكأن الإسناد الذي لا يكون المسند فيه فعلاً ولا ما في معنى الفعل نحو: زيد أخي وعمرو أخوك، ليس من الحقيقة العقلية، ولذلك كان تعريف عبد القاهر للحقيقة العقلية أدق وأصوب إذ عرفها بقوله: «كل جملة وضعتها على أن الحكم المفاد بها على ما هو عليه في العقل وواقع موقعه..»[1] فلم يقيد الإسناد بالفعل ولا ما في معناه، كما صنع الخطيب.

❑❑❑

أما المجاز العقلي فقد عرفه الخطيب القزويني بقوله: «هو إسناد الفعل أو ما فى معناه إلى ملابس له غير ما هو له بتأول»[2].

ونلاحظ أيضاً أنه قصر التجوز في الإسناد على الفعل وما في معناه وهو أعم من ذلك على نحو ما سنرى. والإسناد هنا في المجاز ليس إلى ما هو للمسند، أي: ليس إلى الفاعل الحقيقي، بل هو إلى ملابس للمسند غير ما هو له، وهذا هو الفرق بين الإسناد الحقيقي والإسناد المجازي، فالحقيقي إسناد الفعل إلى ما هو له، والمجازي إسناده إلى ملابس له، وعند إسناد الفعل إلى ملابسه لابد أن يكون هذا الإسناد بتأول، وإلا كان الإسناد حقيقة، فقول المسلم: شفى الطبيب المريض مسنداً الشفاء إلى الطبيب، لا يقوله إلا وهو متأول ومعتقد أن الطبيب سبب للشفاء وليس فاعلاً، ولذا كان إسناده مجازياً، أما قول الجاهل: شفى الطبيب المريض، فهو غير متأول بل يعتقد أن الطبيب فاعل الشفاء، ولذا كان الإسناد

(١) أسرار البلاغة ٢/ ٢٥٦.

(٢) الإيضاح: ١/ ٥٦.

حقيقة، فالمراد بالتأول في تعريف الخطيب: القرينة التي تدل على أن المتكلم قد تجوز في الإسناد، وسيأتيك حديث عن هذه القرينة، أما الحديث الآن فهو عن ملابسات الفعل، أو علاقات المجاز العقلي والبلاغيون ينظرون في تحديد هذه العلاقات أو تلك الملابسات إلى ما بين الفعل والفاعل المجازي من تعلق وارتباط، أو إلى ما بين الفاعل الحقيقي والفاعل المجازي، فقولك: سار الطريق وقوله عز من قائل: ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ ﴾، هنالك ارتباط وتعلق بين «سار»، «الطريق» باعتبار الطريق مكان للسير، كما أن هناك تعلق بين «ربح» والتجارة باعتبار التجارة مفعولاً يقع عليها الربح، وهنالك أيضاً تعلق وارتباط بين «الطريق والناس»، وبين «التجارة والمشترين» باعتبار تلبس الفعل وتعلقه بكل منهما. ولك أن تنظر في تحديد الملابسة إلى أيهما شئت، لأنه إذا كانت هناك ملابسة بين الفعل والفاعل المجازي لزم أن يكون هناك ملابسة بين الفاعلين الحقيقي والمجازي كما هو واضح وإليك بيان هذه الملابسات:

١- إسناد المبني للفاعل إلى المفعول، كما في قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾[1]، فالتجارة ليست هي الفاعل الحقيقي للفعل «ربح» وإنما أسند إليها لتلبسه بها من حيث وقوعه عليها، والأصل: فما ربح المشترون في تجارتهم، والتجوز هنا بإسناد الربح المنفي إلى التجارة، أفاد المبالغة في خسرانهم، فالذي خسر ليس هم، وإنما هو التجارة، وهي تجارة غريبة من نوعها حيث اشترى هؤلاء الضلالة ودفعوا الهدى ثمناً لها، وتلك تجارة لا يرتاب عاقل في بوارها، ولذا بولغ في تأكيد الخسران بإسناد عدم الربح إلى التجارة ذاتها، والذي لم يربح هم المتاجرون فيها ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾[2]، ففاعل راضية ضمير يرجع إلى العيشة والعيشة مرضية لا راضية، إذ الأصل: في عيشة رضي صاحبها بها، فأسند الرضا إلى العيشة لتلبسه بها من حيث وقوعه عليها، ويفيد هذا التجوز المبالغة في النعيم الذي أعده الله تعالى للمؤمنين في الجنة فرضوا به وسعدوا إلى درجة أن العيشة أصبحت راضية بصاحبها تألفه ويألفها، وتحبه ويحبها فهي عيشة دائمة باقية، لأنها مبنية على الألفة والمحبة، ولو كانت مبنية على التنافر مادامت،

---

(١) سورة البقرة: ١٦.

(٢) سورة القارعة: ٧.

وتأمل التعبيرين: المؤمن في عيشة راضية، والكافر في عيشة نافرة، تجد أن التجوز في الأول ينبئ بالدوام والبقاء حيث الرضا والألفة، أما التجوز في الثاني فينبئ بالفرقة والابتعاد حيث النفور والكراهية، ولذا كان أمر الحبيب عليه الصلاة والسلام بأن نحسن جوار النعمة إذ يقول لإحدى أزواجه: «أحسني جوار نعمة الله فإنها قلما نفرت عن قوم فكادت ترجع إليهم»، فتأمل المجاز في قوله: «نفرت النعمة» وما يوحي به من الكراهية التي تستلزم الزوال والمفارقة.. وخذ قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾[1]، تجد أن «دافق» قد أسند إلى ضمير الماء، والماء مدفوق وليس دافقًا، فالملابسة بين «دافق والماء» ملابسة بين الفعل ومفعوله، والتجوز في الإسناد هنا قد جعل المدفوق دافقاً مبالغة في سرعة اندفاعه.. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾[2]، فقد أسند «عاصم» اسم فاعل إلى ضمير المفعول، إذ المعنى: لا معصوم اليوم من أمر الله إلا من رحمه، وذلك مبالغة في نفي العصمة عمن كفر وتولى.. وانظر إلى قول الحطيئة في هجاء الزبرقان بن بدر:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فهو يهجوه ويطلب منه أن يدع المكارم ولا يسعى لطلب المعالي وأن يظل قاعداً فهو المطعوم المكسو الذي يطعمه غيره ويكسوه وقد أسند الشاعر «طاعم وكاس» إلى ضمير المفعول مبالغة في تحقيره والحط من شأنه والاستهزاء به.. ونقول: «سر كاتم» أي: مكتوم وذلك مبالغة في كتمانه وإخفائه، إذ الأصل: كتم الرجل السر، فلما أريد المبالغة في حفظ السر وكتمه، أسند الفعل إلى مفعوله فقيل: سر كاتم، تجوزاً في الإسناد، فقد بلغ الكتمان مبلغاً صار السر فيه كاتماً لا مكتوماً.

٢- إسناد المبني للمفعول إلى الفاعل.. كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾[3]، فقد أسند اسم المفعول «مستوراً» إلى

---

(١) سورة الطارق: ٥، ٦.

(٢) سورة هود: ٤٢، ٤٣.

(٣) سورة الإسراء: ٤٥.

ضمير الحجاب والحجاب ساتر أي: فاعل للستر، وليس مستوراً، فالملابسة بين اسم المفعول: «مستوراً» وبين نائب الفاعل «الحجاب» ملابسة بين الفعل وفاعله، إذ الحجاب فاعل للستر لا مفعول، والتجوز في الإسناد أفاد المبالغة في قسوة قلوبهم وشدة جحودهم، فقد زادت مكابرتهم وطغى عنادهم حتى وصل حداً لم يعودوا فيه مستورين بالحجاب، بل صار الحجاب هو المستور بطغيانهم وجحودهم. ومعنى الآية: إذا قرأت القرآن الناطق بالبراهين الدالة على الحق جعلنا بمقتضى حكمتنا في الإضلال والهداية بينك وبين الكفرة الذين ينكرون البعث حجاباً يمنعهم عن الحق، وذلك بالختم على قلوبهم ووضع الغشاوة والأغطية على سمعهم وأبصارهم، وقد جعل الحجاب المانع الساتر مستوراً - كما بينا - لإبراز شدة جحودهم وقسوة قلوبهم ولبيان أنهم بلغوا في العناد والمكابرة مبلغاً عظيماً. ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴾[1]، فقوله: «مأتياً» اسم مفعول وقد أسند إلى ضمير الوعد الذي هو فاعل في الحقيقة، لأن الوعد آت وليس مأتياً، وقد أفاد التجوز في الإسناد كمال المبالغة في إنجاز وعد الله وتحقيقه حيث جعله مأتياً إليهم وكأن هناك من يحمله ويأتي به إلى المؤمنين ساعياً به إليهم . . وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً ﴾[2]، وقوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾[3]، تجد أن «مسئولاً» قد أسند إلى ضمير العهد، و«سئلت» قد أسند إلى ضمير الموءودة، والعهد لا يسأل بل المسئول صاحبه، وكذا الموءودة لن تسأل، بل وائدها هو الذي يسأل، وقد أفاد التجوز في الإسناد كمال المبالغة في وجوب الالتزام بالعهد وشدة الوعيد والتهديد لمن يئد البنات . . . ونقول: «سيل مُفْعَم» بالبناء للمفعول، والمفعم هو المملوء، والسيل في الحقيقة مالئ للوادي، فالوادي هو الذي يُفْعَم أي يمتلئ بالماء والإسناد الحقيقي: «أفعم السيل الوادي» ولكننا تجوزنا في الإسناد فأسندنا «مُفْعَم» اسم المفعول إلى السيل الذي هو الفاعل الحقيقي، وكان حقه أن يسند إلى الوادي فيقال: واد مفعم، وقد

---

(١) سورة مريم: ٦١ .

(٢) سورة الأحزاب: ١٥ .

(٣) سورة التكوير: ٨، ٩ .

أفاد هذا التجوز شدة المبالغة في فيضان الماء وامتلاء الوادي به، حتى أصبح الماء مملوءًا لا مالئاً . . .

٣- إسناد الفعل المبني للفاعل إلى مصدره . . كما في قولهم: فلان ثارت ثورته وغضب غضبه وسحر سحره وشعر شعره وجد جده، فقد أسند الفعل المبني للفاعل في هذه الأمثلة إلى مصدره، والأصل: ثار فلان ثورة وغضب الغاضب غضبًا وسحر الساحر سحراً وشعر الشاعر شعراً وجد الجاد جداً، ولكنهم تجوزوا فأسندوا ما حقه أن يسند إلى الفاعل، إلى المصدر، وذلك تحقيقاً للمبالغة في الأفعال المذكورة . . ومن ذلك قول أبي فراس الحمداني:

سيذكرني قومي إذا جـد جدُّهـم وفي الليلة الظلمـاء يفتقد البـدر

فقد أسند المبني للفاعل «جد» إلى المصدر «جدهم» إسناداً مجازياً للملابسة بين الفعل ومصدره، وأفاد هذا الإسناد المبالغة فيما نزل بالقوم وحل بهم من خطوب جسام، أخذوا يستعدون لها ويفتقدون الغائب ويطلبونه، كما يفتقد البدر ويطلب عند اشتداد الظلام، وخاصة إذا كان الغائب من المدافعين عن الأحساب، الذائدين عن الحمى، أمثال أبي فراس . .

٤- إسناد المبني للفاعل إلى الزمان . . كما في قولك: نهاره صائم وليله قائم، فالليل لا ينام والنهار لا يصوم، وقد أسند إليهما اسما الفاعل: «قائم وصائم» لأنهما زمانان للقيام والصيام ويفيد هذا التجوز المبالغة في تمام الصيام وكمال القيام بوضوح أهدافهما في سلوك المسلم الصائم القائم .

ومن ذلك قول طرفة بن العبد:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لـم تزود

حيث أسند الفعل «تبدي» إلى زمانه «الأيام» على سبيل المجاز العقلي والأصل سيبدي لك الله في الأيام، ومنه قول الآخر:

هـي الأمـور كما شاهدتهـا دول من ســـره زمن ساءتـــه أزمان

فالزمن ليس فاعلاً للسرور ولا للإساءة، ولكن لما كان السرور واقعاً فيه وكذلك الإساءة، فقد أسندا إليه على سبيل المجاز العقلي لعلاقة الزمانية . . وقول جرير:

. لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى فنمت وما ليل المطي بنائم

. حيث أسند اسم الفعل «نائم» إلى ضمير الليل والليل ليس فاعلاً للنوم ولكنه زمان ينام فيه النائمون . . وانظر في قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ**﴾[1]، وقوله عز وجل: ﴿**فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا**﴾[2]، تجد أن اسم الفاعل «مبصرا» قد أسند إلى ضمير النهار والنهار لا يفعل الإبصار، بل هو زمان يبصر الناس فيه، وكذا الفعل «يجعل» قد أسند إلى ضمير اليوم، واليوم زمان يقع فيه الفعل، وحقيقة الإسناد: يوماً يجعل الله فيه الولدان شيباً فأسند الفعل إلى زمانه على سبيل المجاز العقلي.

٥- إسناد المبني للفاعل إلى المكان . . كما في قولهم : طريق سائر ونهر جار، أسندوا السير إلى ضمير الطريق، والجري إلى ضمير النهر، والسائر هم الناس، والذي يجري هو الماء، والطريق مكان للسير، والنهر مكان لجري الماء فأسند الفعل إليهما تجوزاً، ويفيد هذا المجاز المبالغة في قوة اندفاع الماء وشدة فيضانه، وكثرة ازدحام الناس في الطريق، حتى ليخيل للسامع أن النهر هو الذي يجري، وأن الطريق هو الذي يمضي . . ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا**﴾[3]، فالأنهار اسم للأمكنة والوديان التي تجري فيها المياه، وقد أسند إليها الجريان على سبيل المجاز العقلي لعلاقة المكانية وتكمن بلاغة المجاز في الآية في أن المياة لكثرة فيضانها وشدة جريانها ترى وكأن محلها هو الذي يجري، وكأن الجري قد تجاوز الماء إلى مكانه . . وعندما تقرأ الآيات الكريمة التي تحدثت عن الجنة وما أعد فيها من نعيم تجد الجري فيها قد أسند إلى الأنهار لا إلى المياه، لهذا السر البلاغي.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ **وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا** ﴾[4]، حيث أسند الإخراج إلى الأرض وهي مكان للأثقال، والأصل: وأخرج الله منها أثقالها، ويفيد هذا التجوز في الإسناد: التهويل والتفظيع من شأن ذلك اليوم، وشدة قذف الأرض وإلقاءها ما بداخلها

(١) سورة يونس : ٦٧ .
(٢) سورة المزمل : ١٧ .
(٣) سورة التوبة : ٧٢ .
(٤) سورة الزلزلة : ٢ .

من أثقال، وكأنها هي التي تخرج وتقذف تلك الأثقال. وخذ قوله تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا ﴾[1]، تجد أن اسم الفاعل «آمنا» قد أسند إلى الضمير العائد إلى الحرم، والحرم مكان للأمن، والأصل: حرماً آمناً أهله، فأسند الأمن إلى الحرم مبالغة في كمال النعمة، نعمة الأمن التي تفضل الله بها على سكان حرمه.

وانظر إلى قول الشاعر:

وكل امرىء يولي الجميل محبب وكل مكـان ينبت العـز طيب

فقد أسند الفعل ينبت إلى ضمير المكان، والمكان لا يفعل الإنبات والأصل: ينبت الله فيه، وإلى قول الآخر:

ملكنا فكان العفـو منا سجيـة فلما ملكتـم سـال بالـدم أبطح

فهو يفخر بأن قومه لما قدروا عفوا وصفحوا، بينما المخاطبون عندما قدروا أسرفوا في سفك الدماء حتى سالت بالأبطح وهو المسيل الواسع فيه دقائق الحصى، وقد أسند الشاعر «سال» إلى الأبطح مبالغة في كثرة الدماء التي أريقت من جراء الحكم الظالم، وأصل الإسناد: سالت الدماء بالأبطح..

٦- إسناد المبني للفاعل إلى السبب.. كقولنا: بنى الأمير المدينة وحقيقته: بنى العمال المدينة بأمر الأمير، فإسناد «البناء» إلى الأمير مجاز عقلي علاقته السببية؛ لأن الأمير سبب البناء، وهو ينبئ بمدى عناية الأمير واهتمامه بشأن المدينة، حتى كأنه فاعل البناء... ونقول: محبتك جاءت بي وسرتني رؤيتك، فنسند المجيء إلى المحبة وهي سببه، والسرور إلى الرؤية وهي سببه أيضاً مبالغة في قوة المحبة وكثرة السرور الناجم عن الرؤية.

ومنه قول أبي نواس:

يزيـدك وجهـه حسنـاً إذا مـا زدتـه نظـراً

فقد أسند «زيادة الحسن» إلى الوجه وهو سببها، مبالغة فيما أودعه الله فيه من دقائق الحسن والجمال.. وانظر إلى قول الآخر:

فلا تسأليني واسألي عن خليقتي إذا رد عـافي القدر من يستعيرها

(١) سورة القصص: ٥٧.

فالشطر الثاني من البيت كناية عن شدة الجدب، وذلك إذا كان المراد بعافي القدر: بقية المرق الذي يوجد في القدر، فيكون سبباً في أن يرد صاحبها من يطلب إعارتها، لشدة ما هم فيه من جدب وقحط، أما إذا كان المراد بعافي القدر: الضيف، فإن البيت يكون عندئذ كناية عن الكرم، إذ تسبب الضيف في رد المستعير حيث يرى القدر منصوبة له فلا يطلبها.. والشاعر قد أسند «رد» إلى «عافى القدر»، وعافى القدر لم يفعل الرد وإنما تسبب فيه وحقيقة الإسناد: إذا رد صاحب القدر من يستعيرها بسبب عافيها فهو مجاز عقلي علاقته السببية.. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]، أسند النفع إلى ضمير الذكرى وهي سببه، والأصل: ينفع الله بسببها المؤمنين.. وتأمل الآيات: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾[2]، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴾[3]، ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا ﴾[4]، ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾[5]. تجد أن الأفعال بها قد أسندت إلى أسبابها، فقد أسند «يذبح» ويستحيي إلى فرعون وهو الآمر بهما وليس فاعلها الحقيقي، وأسند البناء والإيقاد إلى هامان، وهما يفعلان بسببه، وأسند الإخراج إلى إبليس وهو سببه.. وتلاحظ أن المسند في الآيات الثلاث الأخيرة هو فعل الأمر أو النهي: ابن.. أوقد.. اجعل.. لا يخرجن.. وبهذا يتضح لك أن المجاز العقلى كما يقع في الخبر يقع في الإنشاء.

٧- إسناد الفعل إلى الجنس وهو في الحقيقة مسند إلى بعضه، كما في قولهم: بنو فلان قتلوا فلاناً، والقاتل واحد منهم.. وكما في قوله تعالى: ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾[6]، فقد أسند العقر إلى جميعهم وهو لبعضهم كما جاء في آية أخرى:

(١) سورة الذاريات: ٥٥.

(٢) سورة القصص: ٤.

(٣) سورة غافر: ٣٦.

(٤) سورة القصص: ٣٨.

(٥) سورة طه: ١١٧.

(٦) سورة الأعراف: ٧٧.

﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾[1]، وإسناد الفعل إلى الجميع وهو للبعض ينبىء بأنه قد تم بعلمهم ووقع برضاهم[2].

٨- إسناد الفعل إلى الجارحة التي هي آلته كقولهم: أبصرته عيني.. وسمعته أذني.. وعرفه قلبي.. وقاله لساني.. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ولَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾[3]، فقد أسند اسم الفاعل «آثم» إلى القلب وإنما الآثم هو الشخص؛ وذلك لأن كتمان الشهادة أن يضمرها الشخص ولا يتكلم بها، فلما كان إثماً مقترفاً بالقلب أسند إليه؛ لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ[4].

٩- إسناد الفعل إلى ماله مزيد اختصاص وقربى بالفاعل الحقيقي، كما في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِين﴾[5]، فقد أسندت الملائكة التقدير إلى أنفسهم والمقدر هو الله وحده، وذلك لأن لهم مزيد اختصاص وقربى من الله عز وجل..

هذا ولم يتحدث الخطيب القزويني عن الملابسات الثلاث الأخيرة، حيث ذكر من ملابسات المجاز العقلي الملابسات الست الأولى فقط، وقد لف لفه كثير من الدراسين بعده.. وعندما نرجع إلى تعريفه للمجاز العقلي نجد أنه قد قصره على إسناد الفعل وما في معناه، كما وضحنا، وقد ضاق هذا التعريف عن صور كثيرة من صور التجوز في الإسناد.. من ذلك:

١- النسبة الإضافية كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾[6]، والتقدير: بل مكركم في الليل والنهار، فقد أضيف المكر إلى الليل والنهار وهما زمان له، وكان حقه أن يضاف إلى الناس، كما في التقدير ومثله قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾[7] والتقدير: وإن

---

(١) سورة القمر: ٢٩.
(٢) الكشاف ٢/ ٩١.
(٣) سورة البقرة: ٢٨٣.
(٤) الكشاف ١/ ٤٠٦.
(٥) سورة الحجر: ٦٠.
(٦) سورة سبأ: ٣٣.
(٧) سورة النساء: ٣٥.

خفتم شقاق الزوجين في الحالة التي بينهما . . فقد أضيف الشقاق إلى الظرف «بين» على سبيل المجاز العقلي لعلاقة المكانية ، وكان حقه أن يضاف إلى الزوجين كما في التقدير .

٢- النسبة الإيقاعية ، بمعنى أن يقع الفعل المتعدى على غير ما حقه أن يقع عليه لعلاقة وقرينة مانعة ، وسميت نسبة إيقاعية ، لأن الفعل المتعدى واقع على مفعوله المجازي ، انظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾[1] ، تجد أن الأصل : ولا تطيعوا المسرفين بسبب أمرهم ، وقد وقع الفعل «تطيعوا» ، على المفعول «أمر» على سبيل المجاز العقلي لعلاقة السببية ، إذ لا تقع الطاعة على الأمر ، وإنما تقع على صاحب الأمر . . وخذ قوله تعالى : ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾[2] ، فقد وقع الفعل «فجر» على الأرض ، وهو في الأصل للعيون إذ المعنى ، وفجرنا عيون الأرض ، فهو مجاز عقلي علاقته المكانية وقد أفاد هذا المجاز المبالغة في فوران الماء واندفاعه ، وكأن الأرض قد صارت كلها عيوناً . . فكما أن إسناد الفعل إلى غير ما حقه أن يسند إليه مجاز ، فكذلك إيقاعه على غير ما حقه أن يوقع عليه مجاز أيضاً .

٣- النسبة الوصفية ، وذلك بأن يوصف الشيء بوصف صاحبه كقولنا : الكتاب الحكيم ، والأسلوب الحكيم ، وضلال بعيد ورجل عدل ، فالحكمة في الحقيقة ليست وصفاً للكتاب ولا للأسلوب ، وإنما هي وصف لصاحبهما وكذا البعد ليس وصفاً للضلال ، بل هو وصف للضال ، والعدل ليس وصفاً للرجل ، وإنما وصف لأقواله وأفعاله ، فالأصل أن يقال : رجل ذو عدل ، كما يقال : رجل ذو رأي ، ورجل ذو خلق . . فكما أن إسناد الفعل إلى غير ما حقه أن يسند إليه مجاز ، فكذا وصف الشيء بغير ما حقه أن يوصف به . .

٤- الإسناد بين المبتدأ والخبر كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ﴾[3] ، والأصل : ولكن ذا البر من اتقى . . أو ولكن البر بر من اتقى ، فقد أسند «من اتقى» إلى «البر» إسناداً مجازياً لعلاقة الفاعلية أو المفعولية ؛ لأن من اتقى فاعل والبر مفعول له . .

---

(١) سورة الشعراء : ١٥١ .

(٢) سورة القمر : ١٢ .

(٣) سورة البقرة : ١٨٩ .

ومن ذلك قول الخنساء فى وصف الناقة :

ترتع ما غفلت حتى إذا ادكرت فإنما هى إقبـــال وإدبـــار

يقول عبد القاهر فى تجلية المجاز العقلى فى هذا البيت : «ومما طريق المجاز فيه الحكم قول الخنساء -البيت- وذاك أنها لم ترد بالإقبال والإدبار غير معناهما فتكون قد تجوزت فى نفس الكلمة ، وإنما تجوزت فى أن جعلتها لكثرة ما تقبل وتدبر ولغلبة ذلك عليها واتصاله بها وأنه لم يكن لها حال غيرهما ، كأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار . . واعلم أن ليس بالوجه أن يعد هذا على الإطلاق معد ما حذف منه المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه مثل قوله عز وجل : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾[1] ، ومثل قول النابغة الجعدي :

وكيف تواصـــل من أصبحـت خلالتـــــه كأبـــى مرحــــب[2]

وقول الأعرابي :

حسبت بغـــام راحلتى عناقـــاً ومـا هى ويْبَ غُبْرك بالعنـــاق[3]

وإن كنا نراهم يذكرونه حيث يذكرون حذف المضاف ويقولون إنه فى تقدير : «فإنما هى ذات إقبال وإدبار» ذاك لأن المضاف المحذوف من نحو الآية والبيتين فى سبيل ما يحذف من اللفظ ويراد فى المعنى ، كمثل أن يحذف خبر المبتدأ أو المبتدأ إذ دل الدليل عليه إلى سائر ما إذا حذف كان فى حكم المنطوق به ، وليس الأمر كذلك فى بيت الخنساء ، لأنا إذا جعلنا المعنى فيه الآن ، كالمعنى إذا نحن قلنا : فإنما هى ذات إقبال وإدبار ، أفسدنا الشعر على أنفسنا وخرجنا إلى شيء مغسول ، وإلى كلام عامى مرذول وكان سبيلنا سبيل من يزعم مثلاً فى بيت المتنبي :

بدت قمـراً ومالت خـوط بـان وفاحـت عنبـــراً ورنت غـزالاً

أنه فى تقدير محذوف ، وأن معناه الآن كالمعنى إذا قلت : «بدت مثل قمر ومالت مثل خوط بان وفاحت مثل عنبر ورنت مثل غزال» ، فى أنا نخرج إلى الغثاثة ، وإلى شيء يعزل

---

(١) سورة يوسف : ٨٢ .

(٢) الخلالة : الصداقة ، وأبو مرحب : الظل ووجه الشبه هو الزوال وعدم الدوام .

(٣) بغام الناقة : صوتها . والعناق : أنثى المعز . والويب : الويل ، والخطاب في قوله : «حسبت» للذئب الذي حسب صوت ناقته صوت عناق ، ولذا قال له : ويب غبرك ، فتوعده بلونه لأن الذئب لونه أغبر

البلاغة عن سلطانها»[1] فهذا تحليل دقيق لبيان المجاز العقلى فى البيت وإبراز ما يفيده من المبالغة، وأن الناقة كأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار، وأنت إذا رمت تقدير مضاف لتبين الإسناد الحقيقي، فقلت: «فإنما هى ذات إقبال وإدبار»، ضاعت هذه المبالغة، وفقدت حلاوة الشعر، كما تضيع أيضاً وتفقد إذا أولت المصدر باسم الفاعل فقلت: فإنما هى مقبلة ومدبرة.

ولما كان تعريف الخطيب للمجاز العقلى لا يتسع لمثل هذه النسب فإننا نفضل عليه تعريف عبد القاهر له، إذ عرفه بقوله: «كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه فى العقل لضرب من التأول»[2]، وسبب ترجيحنا لتعريف عبد القاهر، أنه لم يحدد الإسناد بالفعل، وما فى معناه كما صنع الخطيب ولم يحدد أنواع العلاقات التى تسوغ الإسناد، فاتسع المجاز العقلى عنده لكل إسناد ولكل ملابسة.

❐❐❐

قرينة المجاز العقلي:

لابد للمجاز سواء أكان مجازاً عقلياً أم مجازاً لغوياً، من وجود قرينة دالة تبين المجاز وتوضح عدم إرادة المعنى الأصلى فى المجاز اللغوي، وعدم إرادة الإسناد الحقيقى فى المجاز العقلي، فالقرينة فى المجاز العقلى هى الأمر الذى يوضح أن المسند قد أسند إلى غير ما حقه أن يسند إليه، وأن المتكلم قد تجوز فى بناء الكلام وتأليف العبارة، وهذه القرينة إما لفظية وإما غير لفظية.

انظر إلى قول أبى النجم العجلي:

قد أصبحت أم الخيار تدعى ... على ذنبا كله لم أصنع

من أن رأت رأسى كرأس الأصلع ... ميز عنه قنزعا عن قنزع

* جذب الليالى أبطئى أو أسرعى *

(١) دلائل الإعجاز ٢٩٢.

(٢) الأسرار ٢ / ٢٥٧.

أفناه قيل الله للشمس اطلعي حتى إذا واراك أفق فارجعي[1]

تره قد أسند الفعل «ميز» إلى جذب الليالي، إسناداً مجازياً من إسناد الفعل إلى سببه أو زمانه، والقرينة هي قوله: «أفناه قيل الله»، وهي قرينة لفظية توضح عقيدة الشاعر، وأنه مؤمن حيث أسند إفناء شعر الرأس إلى الله تعالى، ومادام كذلك، فإنه يكون قد تجوز في كلامه الأول وهو إسناده: «ميز» إلى جذت الليالي.. ومثله قول الصلتان العبدي ينصح ابنه عمرا:

أشاب الصغير وأفنى الكبير كر الغداة ومر العشي

نروح ونغدو لحاجاتنا وحاجة من عاش لا تنقضي

تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقي

ألم تر لقمان أوصى ابنه وأوصيت عمرا ونعم الوصي

فملتنا أننا مسلمون على دين صديقنا والنبي

فالبيتان الأخيران يبرزان عقيدة الشاعر، إذ يريد بوصية لقمان قوله تعالى: ﴿ **يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾[2]، والبيت الأخير يفصح عن إيمانه وأن ملته الإسلام، وتلك قرينة لفظية تدل على أن الشاعر قد تأول ولم يرد الحقيقة عندما أسند «أشاب وأفنى» إلى تعاقب الليل والنهار. ونقول: «هزتني الأيام وشيبني الدهر والله وحده المستعان» فتكون الجملة الأخيرة: «والله المستعان» قرينة لفظية تدل على أن إسناد «هز» إلى «الأيام» و «شيب» إلى «الدهر» مجاز عقلي، وليس إسناداً حقيقياً. أما القرينة المعنوية، فهي أمر غير لفظي يدل على أن المتكلم متأول في إسناده ولم يرد الحقيقة، بل أراد المجاز، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ** ﴾[3]، تجد أن إسناد الفعل: «يذبح» إلى فرعون، مجاز عقلي لعلاقة

(١) القنزع: الشعر المتجمع في نواحي الرأس.. والأصلع: الذي سقط شعر مقدم رأسه. وجملة أبطئي أو أسرعي: حال من الليالي بتقدير القول أي مقولاً فيها ذلك. وجذب الليالي: مضيها. واراك: غيبك.

(٢) سورة لقمان: ١٣.

(٣) سورة القصص: ٤.

السببية، إذ فرعون لم يفعل التذبيح بل أمر به وفعله جنوده بأمره فهو سبب لوقوع الفعل وليس فاعلاً حقيقياً، والقرينة هنا معنوية وهى استحالة صدور الفعل من «فرعون» عادة، وإن أمكن ذلك عقلاً. ومثله قولك: بنى الأمير المدينة، وهزم الأعداء، فإسناد «البناء» وهزيمة الأعداء إلى الأمير مجاز عقلي، قرينته استحالة وقوع الفعل منه عادة، وإن أمكن عقلاً، وقد تكون القرينة استحالة وقوع الفعل من الفاعل عقلاً كقول الشاعر:

إذا المرء لم يحتل وقد جد جدُّه ... أضاع وقاسى أمره وهو مدبر

فإسناد الفعل «جد» إلى المصدر مجاز عقلى قرينته استحالة قيام الفعل بمصدره استحالة عقلية. ومثله قولهم: محبتك جاءت بى إليك، وأقدمنى بلدك حق لى على فلان، إذ يستحيل عقلا قيام المجيء بالمحبة، والإقدام بالحق. وقد تكون القرينة المعنوية هى صدور الكلام من المؤمن، كقول النبى صلى الله عليه وسلم: «إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم»[1]، وقوله عليه الصلاة والسلام لإحدى أزواجه: «أحسنى جوار نعمة الله فإنها قلما نفرت عن قوم فكادت ترجع إليهم» فوقوع الفعل منه صلى الله عليه وسلم، قرينة على أنه لم يرد الإسناد الحقيقى وأنه قد تأول عندما أسند الإنبات إلى الربيع والقتل إلى ما ينبته الربيع والنفور إلى النعمة وكذلك الرجوع، فالإسناد كما ترى مجازى، وقرينته صدور الكلام من خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام.

ما الفرق بين المجاز العقلى والمجاز اللغوي:

ومما سبق يتضح لك أن المجاز العقلى تجوز فى الإسناد، أى فى النسبة بين المسند والمسند إليه، فقولك: أنبت الربيع، ليس التجوز فى «أنبت» ولا فى «الربيع». وإنما فى إسناد الإنبات إلى الربيع، أما المجاز اللغوى فهو تجوز فى الكلمة لا فى الإسناد، فقولك: رأيت أسداً يتكلم، المجاز فى لفظ الأسد حيث نقل من الحيوان المفترس إلى الرجل الشجاع. يقول عبد القاهر: «ومما طريق المجاز فيه الحكم قول الخنساء:

ترتع ما غفلت حتى إذا ادكرت ... فإنما هى إقبال وإدبار

(١) حبطا: الحبط انتفاخ البطن، يقال: حبط بطنه إذا انتفخ يحبط حبطا، انظر لسان العرب مادة: حبط.

وذاك أنها لم ترد بالإقبال والإدبار غير معناهما فتكون قد تجوزت فى نفس الكلمة وإنما تجوزت فى أن جعلتها لكثرة ما تقبل وتدبر ولغلبة ذاك عليها واتصاله بها وأنه لم يكن لها حال غيرهما، كأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار، وإنما كان يكون المجاز فى نفس الكلمة لو أنها كانت قد استعارت الإقبال والإدبار لمعنى غير معناهما الذى وضعا له فى اللغة، ومعلوم أن ليس الاستعارة مما أرادته فى شيء»[1].

هذا والمجاز العقلى المتصرف فيه هو العقل، إذ هو الذى يقيم الروابط والصلات بين أجزاء الكلام، ولذا سمى مجازاً عقلياً، أما المجاز اللغوى فمرجعه إلى واضع اللغة، إذ هو الذى وضع مفرداتها، وحدد معانى المفردات، فكان التجوز فى تلك المفردات بنقلها من معنى إلى معنى، تصرف لغوى فى نطاق ما حددته اللغة ووضحت معانيه، ولذا سمى التجوز فى المفردات مجازاً لغوياً. وبعض العلماء يرون أن الواضع - واضع اللغة - كما وضع مفرداتها وضع كذلك تراكيبها. وهؤلاء يسمون التجوز فى الإسناد، مجازاً لغوياً، كالتجوز فى المفردات؛ لأن كليهما تجوز فى نطاق ما وضعته اللغة وحددته. ولا أرى داعياً للخوض فى مثل هذه الخلافات؛ إذ لا يجنى الدارس من وراء معرفتها والوقوف عليها ثمرة تذكر.

صور المجاز العقلي:

وينقسم المجاز العقلى باعتبار حقيقة طرفيه ومجازيتهما إلى أربعة أقسام وهي:

١ - أن يكون طرفا الإسناد، أى المسند والمسند إليه مستعملين استعمالاً حقيقياً. والتجوز إنما هو فى الإسناد فقط، كقولك أنبت الربيع النبات، فكل من «أنبت» و «الربيع» مستعمل فى معناه الحقيقى الذى وضع له، والمجاز فى إسناد الإنبات إلى الربيع ومثله قول الصلتان العبدى:

أشاب الصغير وأفنى الكبيـ ... ـر كر الغداة ومر العشى

وقول الآخر:

وشيب أيام الفراق مفارقى ... وأنشزن نفسى فوق حيث تكون

(١) دلائل الإعجاز ٢٩٢.

يريد أن أيام الفراق رفعت نفسه عن مكانها فى الجسم وبلغت بها الحلقوم. وواضح أن أجزاء الكلام من مسند ومسند إليه مستعملة فى معانيها الحقيقية، والمجاز إنما هو الإسناد فقط، فى إسناد «أشاب وأفنى» إلى «كر الغداة ومر العشى» وإسناد «أشاب وأنشز» إلى أيام الفراق، واقرأ الآيات الكريمة: ﴿ **وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا** ﴾ ﴿ **وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا** ﴾، ﴿ **فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ** ﴾ ﴿ **يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا** ﴾ تجد أن المجاز فى إسناد الزيادة للآيات، والإخراج للأرض والرضا للمعيشة. والجعل لليوم، أما طرفا الإسناد فلا مجاز فيهما . . . ومن ذلك قول رؤبة بن العجاج:

يـــارب قد فرجـــت عني غمـــي   قـــد كنت ذا هم وراعى نجـــم

* فنام ليلى وتجلى همى *

فقد أسند النوم إلى الليل إسناداً مجازياً لعلاقة الزمانية، أما النوم والليل فمستعملان فيما وضعا له. . وقول الآخر فى الرثاء:

فتى كان يعطى السيف فى الروع حقه   إذا ثوب الداعى وتشقى به الجزر

فتى كان يدنيـــه الغنـــى مـــن صديقـــه   إذا ما هو استغنـــى ويبعده الفقـــر

وصفه بالشجاعة والكرم حيث كان يضرب بالسيف فى حال الشدة ويجيب الداعى الذى يثوب أى يرجع صوته حتى يسمع فيجيبه الشجعان ويغيثونه، وكانت الجزر تشقى به إذ كان ينحرها لضيوفه وقد أسند الشاعر الإدناء إلى الغنى والإبعاد إلى الفقر إسنادًا مجازياً لعلاقة السببية، أما طرفا الإسناد فقد استعملا فيما وضعا له، استعمالاً حقيقياً.

٢- أن يكون المسند مجازاً لغوياً، والمسند إليه مستعملاً فيما وضع له استعمالا حقيقياً، كقولك: أحيا الأرض الربيع: فالمسند «أحيا» مجاز لغوى حيث استعير الإحياء للإنبات والمسند إليه «الربيع» مستعمل فيما وضع له. ومن ذلك قول المتنبي:

وتحيى له المال الصـــوارم والقنـــا   ويقتل مـــاتحيى التبســـم والجَـــدا

حيث يصف الممدوح بالشجاعة والكرم، فهو يحصل المال بشجاعته وقوته، ثم ينفقه على الضعفاء والمحتاجين كرما وسخاء، وقد أسند الشاعر «الإحياء» إلى «الصوارم والقنا» و«القتل» إلى التبسم والجدا إسناداً مجازياً، وكل من القتل والإحياء مستعمل فى غير ما

وضع له استعمالاً مجازياً، حيث استعير القتل «للإنفاق» والإحياء لجمع المال وتحصيله بقوة السلاح، أما المسند إليهما «الصوارم والقنا»، و«التبسم والجدا» فمستعملان فيما وضعا له استعمالا حقيقياً ونقول«أهلك الناس الدينار والدرهم» فإسناد «أهلك» إلى «الدينار والدرهم» مجاز عقلى علاقته السببية ولفظ «أهلك» المسند، ليس حقيقة، بل مجاز عن الفتنة، إذ الإهلاك مسبب عن الفتنة، فهو مجاز مرسل علاقته المسببية وقد أسند إلى الدينار والدرهم إسناداً مجازياً، فالتجوز واقع فى الإسناد، وفى المسند، فى الإسناد مجاز عقلي وفي المسند مجاز لغوي. وانظر فى قوله تعالى: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾[1]، حيث أسند «اشتعل» إلى «الرأس» إسناداً مجازياً لعلاقة المكانية، إذ الرأس مكان للاشتعال والذى يفعل الاشتعال حقيقة إنما هو الشعر ولفظ المسند «اشتعل» مجاز لغوي، إذ المراد به: ظهور شيب الرأس، فاستعير الاشتعال للظهور، وتفيد هذه الاستعارة عموم الشيب وإحاطته بجميع الرأس، كما تفيد المفاجأة فى ظهور الشيب، فهو اشتعال وليس ظهوراً، وتفيد أيضاً حب زكريا - عليه السلام- لهذا الشيب حيث أحس به إحساساً مشرقاً مضيئاً، لا نكاد نراه فى شعر الشعراء الذين يصورن ظهور الشيب بالرأس تصويراً حزيناً مؤلماً إذ يكون سبباً فى فراق الأحبة وابتعادهن. انظر إلى قول القائل:

لا تعجبي ياسلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

وقول الآخر:

فالت قتيلة ماله قد جللت شيباً شواته

وقول الثالث:

له منظر فى العين أبيض ناصع ولكنه فى القلب أسفع[2]

تجد أنهم يشعرون بالشيب شعوراً حزيناً كئيباً، لأنه يؤذن بتولى الشباب، ويعلن عن فراق الحبيبات. ونعود إلى المجاز العقلى لننظر فى شواهد هذه الصورة التى وقع التجوز فيها فى المسند وفى الإسناد، فمنها قولهم: «سال بهم الوادي»، استعير السيلان للسير، ثم

---

(١) سورة مريم: ٤.

(٢) الأبيض الناصع: شديد البياض، والأسود الأسفع: هو الأسود المائل إلى حمرة، وقد استعير الأسود الأسفع لما يحدثه الشيب من الهم والحزن.

اشتق منه سال بمعنى سار على سبيل الاستعارة التبعية، وأسند «سال» إلى «الوادي» إسناداً مجازياً لعلاقة المكانية، ويفيد هذا التجوز المبالغة فى سرعة سير القوم وكأن المكان قد فاض بهم ودفع، ومثله قول القائل:

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطى الأباطح

وقول الآخر:

سالت عليه شعاب الحى حين دعا ... أنصاره بوجوه كالدنانير

ففى إسناد «السيلان» إلى «الأباطح» وإلى «شعاب الحي» مجاز عقلى علاقته المكانية، والمسند «سال» مجاز لغوى حيث استعير «السيلان» للسير، ولا يخفى عليك بلاغة المجاز فى البيتين، فقد أبرز شدة اندفاع المطى فى الأباطح، وسرعة اندفاع الأنصار إلى الداعي، وكأن الشعاب قد فاضت بهم ودفعتهم إليه، وكأن الأباطح هى التى تسيل وتمضى لا الإبل، وما من شك فى أن المجاز اللغوى قد ساهم فى تحقيق هذه المبالغة بنصيب وافر.

٣- أن يكون المسند إليه مجازاً لغوياً والمسند مستعملاً فيما وضع استعمالاً حقيقياً، كقولك: أنبت شباب الزمان النبات فالمسند «أنبت» مستعمل فيما وضع له استعمالاً حقيقياً، والمسند إليه «شباب الزمان» مجاز لغوي، حيث استعير لزمن الربيع وإسناد الإنبات إلى «شباب الزمان» مجاز عقلى علاقته الزمانية.. وانظر إلى قول ابن خفاجة الأندلسي:

وإنى إذا ما شاقنى لحمامة ... رنين وهزتنى لبارقة ذكرى

لأجمع بين الماء والنار لوعة ... فمن مقلة ريًّا ومن كبد حرَّى

تجد أنه قد أسند الشوق إلى الرنين إسناداً مجازياً، لأن الرنين باعث الشوق وليس بفاعله، والرنين فى البيت مستعار لهديل الحمام وسجعه وترجيعه. وخذ قول الفرزدق:

سقاها خروق فى المسامع لم تكن ... علاطا ولا مخبوطة فى الملاغم[1]

(١) العلاط: صفحة العنق ويطلق على السمة في عنق البعير مجازاً مرسلاً من إطلاق المحل على الحال وقد كثر هذا حتى صار كأنه حقيقة. مخبوطة: موسومة.. والملاغم: الأشداق وما حولها.

فهو يتحدث عن إبلهم المهملة فى الصحراء والتى ترد الماء فلا يمنعها مانع . وخروق المسامع : مجارى الصوت فى الأذن، يقال : جرى حديثه فى خروق المسامع أي : سمعه الناس . ومنه قول القائل :

وكيف ترى ليلى بعين ترى بهــا	سواهـــا وما طهرتهـــا بالمدامع
وتلتذ منها بالحديث وقد جــرى	حديث سواها فى خروق المسامع

أي : وقد جرى حديث سواها فى أذنك، وقد استعمل الفرزدق خروق المسامع مجازاً مرسلاً فى شهرة الذكر وبعد الصيت، من إطلاق المحل على الحال، وفى إسناد السقى إلى خروق المسامع مجاز عقلى علاقته السببية، لأن خروق المسامع بمعنى الذكر وبعد الصيت سبب فى السقي، وليست فاعلته وهذا التجوز وضح السبب وأبرزه حين خيل أنه هو الذى سقى الإبل[1] :

٤- أن يكون كل المسند والمسند إليه مستعملاً فى غير ما وضع له استعمالاً مجازياً، فيكون فى الجملة ثلاثة مجازات، مجاز عقلى فى الإسناد، ومجازان لغويان فى كل من المسند والمسند إليه، وقد مثل البلاغيون لهذا بقولهم : أحيا الأرض شباب الزمان، حيث استعير الإحياء للإنبات وشباب الزمان للربيع وفى إسناد «أحيا» إلى، «شباب الزمان» مجاز عقلى علاقته الزمانية، ومن ذلك قولنا : «أحيتنا مصابيح الإسلام»، و«أحيانا نبراس من الله»، فقد استعيرت الحياة للهداية، ومصابيح الإسلام للعلماء، والنبراس، للقرآن، وفى إسناد الحيـاة إلى كل من المصـابيح والنبـراس مـجاز عـقلي، ففى كل جـملة ثلاثة مجازات، مجازان لغويان فى كل من المسند والمسند إليه، ومجاز عقلى فى الإسناد .

استلزام المجاز العقلى الحقيقة :

ما من ريب فى أن المجاز العقلى يستلزم الحقيقة العقلية، فكل تجوز فى الإسناد له فى التقدير فاعل حقيقي، إذا أسند إليه المسند صار الإسناد حقيقة، غير أن الفاعل الحقيقى تارة يكون تقديره واضحاً يدرك بيسر وسهولة كقـولك : شفى الطبيب المريض وأنبت الربيع النبات، وكقول الفرزدق :

(١) ارجع إلى خصائص التراكيب ص ٩١ .

يحمى إذا اختُرِط السيوف نساءنا ضرب تطير له السواعـد أرعـل[1]

وقـول الله عـز وجل: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾[2] فالفاعل الحقيقى فى مثل هذه الشواهد واضح وجرى به الاستعمال العربى حيث قالوا: شفى الله المريض، وأنبت الله النبات، وربح الناس فى تجارتهم، ونحمى نساءنا بضرب شديد أرعل، وتارة يكون الفاعل الحقيقى خفياً لا يدرك إلا بالتأمل والنظر، كقولهم: سرتنى رؤيتك وأمتعنى حديثك، ومحبتك جاءت بى وأقدمنى بلدك حق لى على فلان . وكقول أبى نواس:

وجوهـر عنـدنـا تحكـى بـدارة وجههـا القمـرا

يزيـدك وجهها حسنـا إذا مـا زدتـه نظـرا

وقول الأخر

أتيتك عائـذا بـك منـ ـك لمـا ضاقـت الحيـل

وصيرنـى هـواك وبـى لحَيْنـى يضـرب المثـل[3]

فإن ظفـرت بكـم نفسى فمـا لا قيتـه جلـل

وإن قتـل الهـوى رجـلاً فإنـى ذلك الرجـل

فالفاعل الحقيقى فى هذه الشواهد هو «الله تعالى» إذ التقدير: سرنى الله وأمتعنى وجاء بى وأقدمنى بلدك بسبب رؤيتك وحديثك ومحبتك وحق لى على فلان، وكذا التقدير فى البيتين: يزيدك الله حسناً بسبب النظر إلى وجهها، وصيرك الله بسبب هواه، ولكن لما كان الإسناد الحقيقى فى مثل هذه الشواهد لم يجر به الاستعمال العربي، وأن الإسناد المجازى قد كثر وجرى على ألسنتهم، خفى الإسناد الحقيقي، وصار لا يخطر على البال ولا يدرك إلا بشيء من التأمل والنظر وتذكر الحقيقة الثابتة التى تقرر أن الله تعالى هو خالق الأفعال كلها، هذا واستلزام المجاز العقلى الحقيقة العقلية قد أجمع عليه البلاغيون

(١) اخترط السيوف: استلت . وأرعل: من رعل النبات فهو أرعل إذا تهدلت أغصانه . والمعنى: أن الضرب يطير سواعد المضروب ويقطع لحمه فيدعه مدلى كما تتدلى الأغصان المتهدلة .

(٢) سورة البقرة: ١٦ .

(٣) الحين في الأصل: الهلاك وقد استعير هنا لما وصل إليه من سوء الحال فى هواه .

واتفقوا ولكن بعضهم خفى عليه كلام عبد القاهر فى هذا الصدد فاعتقد أنه ينكر أن يكون لكل فعل فاعل حقيقى يصار إليه عند التقدير، وكلام عبد القاهر لا يفيد هذا، إذ يذكر أن من أساليب المجاز العقلى ما يمكنك أن ترجع بالإسناد فيه إلى الفاعل الحقيقي، مثل نام ليلى وتجلى همي، وقوله تعالى: ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ ﴾ وقول الشاعر:

تجوب له الظلمـاء عين كأنهـا   زجاجة شرب غير ملأى ولا صفر

فمن السهل معرفة الفاعل الحقيقى فى مثل هذه الشواهد، إذ يقال: نمت فى ليلى وربحوا فى التجارة، ويجوب الجمل الظلماء بعينه، وهناك أساليب من المجاز العقلى لم يألفها الاستعمال مسندة إلى ما حقها أن تسند إليه، مثل: أقدمنى بلدك حق لى عليك، وقوله:

وصيرنـــى هــــواك وبـى   لحَيْنى يضــــرب المثــــل

وقول الآخر:

يزيــــدك وجههـــا حسنـــا   إذا مــــا زدتــــه نظــــرا

يقول عبد القاهر: «إنك لا تستطيع أن تزعم أن «لصيرني» فاعلاً قد نقل عنه الفعل فجعل للهوى، كما فعل ذلك في: «ربحت تجارتهم»: ولا تستطيع كذلك أن تقدر «ليزيد» فى قوله: يزيدك وجهه، فاعلاً غير الوجه..»[1] ومراد عبد القاهر بعد الاستطاعة أنه لم يؤلف الاستعمال الحقيقى فى مثل هذا ولم يجر على ألسنة القوم، بل الذى ألف وكثر استعماله وجرى على ألسنتهم هو الاستعمال المجازي.. وقد أخذ هؤلاء الذين خفى عليهم كلام عبد القاهر يقدرون لما ذكر من شواهد فاعلاً حقيقياً ثم يقولون: إن أى مسند إليه يرتضى العقل صحة إسناد هذه الأفعال إليه يكون الإسناد معه حقيقياً[2].. وعبد القاهر لم ينكر هذا كما رأينا، وقد وضحنا مراده.. ولا نرى للخوض فى مثل هذه الخلافات فائدة ترتجى، ولذا ننصح الدارس بعدم الخوض فيها وأن يتجاوزها إلى ما هو مفيد ومثمر..

---

(١) دلائل الإعجاز ٢٨٩.

(٢) نهاية الإيجاز.

إنكار المجاز العقلي:

وقد أنكر السكاكى المجاز العقلى ورجعه إلى الاستعارة المكنية، فقال فى نحو: أنبت الربيع البقل، إن الربيع استعارة مكنية، حيث شبه الربيع بالفاعل الحقيقى وهو الله تعالى فى تعلق الفعل بكل منهما، ثم حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الإنبات، وإثبات الإنبات للربيع استعارة تخييلية، وبهذا يخرج السكاكى المجاز العقلى من علم المعانى ويضعه فى علم البيان مع صور الاستعارة المكنية، والذى دفعه إلى هذا -كما قال- الرغبة فى تقليل الأقسام، ومن أجل تلك الرغبة أنكر أيضاً الاستعارة التبعية وأدخلها فى المكنية. . وممن أنكروا المجاز العقلى أيضاً يحى بن حمزة العلوي، صاحب الطراز، حيث عده من المجازات المركبة اللغوية، إذ يقول: «اعلم أن هذه المجازات المركبة التى ذكرناها ومثلناها بقوله تعالى: ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾[1]، وبقوله تعالى: ﴿ مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾[3] وغير ذلك من الأمثلة، فإنها كلها مجازات لغوية استعملت فى غير موضوعاتها الأصلية، فلأجل هذا حكمنا عليها بكونها لغوية، وبيانه هو أن صيغة «أنبت» وأخرج، و«أخذ» وضعت فى أصل اللغة بإزاء صدور الخروج والنبات والأخذ من القادر الفاعل، «فإذا استعملت فى صدورها من الأرض»، فقد استعملت الصيغة فى غير موضوعها، فلا جرم حكمنا بكونها مجازات لغـوية»[4] ومما لا ريب فيه أن تقليل الأقسام مما يفيد الدارس وينفع الباحث، بشرط ألا يؤدى هذا التقليل إلى تجاهل الخصوصيات ونحن عندما نقرأ صور المجاز العقلي، وننظر فى شواهده نرى لها مذاقاً يختلف وخصوصيات تبتعد عن مذاق الاستعارة المكنية وعن خصوصياتها، وكذا القول فى المجاز المركب، وفى الاستعارة التبعية، ولا يخفى عليك هذا عندما تنظر فى قوله تعالى: ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ ﴾ وقوله عز وجل ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ وفى قول الفرزدق:

سقاها خروق فى المسامع لم تكن ... علاطا ولا مخبوطة فى الملاغم

(١) سورة الزلزلة: ٢ .

(٢) سورة البقرة: ٦١ .

(٣) سورة يونس: ٢٤ .

(٤) الطراز ١/ ٧٥، ٧٦ .

وقوله أيضاً:

يحمى إذا اخترط السيوف نساءنا ضـرب تطير له السواعـد أرعـل

وقول الهذلي:

وإذا المنيـة أنشبت أظفارهـــا ألفيت كـل تميمـــة لا تنفـــع

وقول الحبيب صلى الله عليه وسلم: «خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار إليها» . . وقولنا للمتردد «أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى» وقول ابن ميادة:

ألـم تك فى يمنى يديـك جعلتنى فلا تجعلنى بعدهـا فى شمالكـا

وقول الآخر:

فإن تعافـوا العـدل والإيمانـا فـإن فى أيماننـــا نيرانـــا

حيث ترى أن الخصوصيات التى اقتضاها المجاز العقلى فى الآيتين الكريمتين، وفى بيتى الفرزدق، تختلف عن الخصوصيات التى اقتضتهما الاستعارة المكنية فى بيت أبى ذؤيب، والاستعارة التبعية فى الحديث الشريف، والاستعارة التمثيلية فى القول المذكور وفى بيت ابن ميادة، والاستعارة التصريحية فى البيت الأخير، وسيتضح لك هذا عندما تدرس هذه الألوان فى علم البيان، والمهم الآن أن تعرف أن مذاق المجاز العقلى يختلف عن مذاق تلك الألوان، ففى الآية الأولى أفاد إسناد الربح إلى التجارة المبالغة فى تأكيد سببية التجارة فى الربح، وفى الآية الثانية تجد أن إسناد الرضا إلى ضمير العيشة أفاد كمال المبالغة فى رضاهم بها وانسجامهم فيها، وفى البيت الأول للفرزدق أفاد إسناد السقى إلى خروق المسامع، تأكيد هذه السببية بجعلها فاعلاً للسقى، وكذا القول فى يحمى نساءنا ضرب، وهكذا تجد للمجاز العقلى مذاقاً لا تجده فى الألوان الأخرى، فلا مجال لإنكاره إذاً ورده إلى المجازات المركبة، أو رجعه إلى الاستعارة المكنية رغبة فى تقليل الأقسام، لأن تقليل الأقسام: إذا تنافى مع الخصوصيات التى يقتضيها المقام، فلا عبرة لهذا التقليل، ولا يصح الأخذ به.

هذا وقد دفع الخطيب القزوينى إنكار السكاكى للمجاز العقلى دفعاً شديداً ورده بردود قوية وذلك حيث يقول: «وفيما ذهب إليه نظر، لأنه يستلزم أن يكون المراد بعيشة

فى قوله تعالى ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ صاحب العيشة لا العيشة وبماء فى قوله: ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ فاعل الدفق لا المني، لأن مبنى الاستعارة بالكناية عنده أن المشبه يصير من أفراد المشبه به، وألا تصح الإضافة فى نحو قولهم: فلان نهاره صائم، لأن المراد بالنهار على هذا فلان نفسه وإضافة الشيء إلى نفسه لا تصح وألا يكون الأمر بالإيقاد على الطين فى الآية: ﴿ فَأَوْقِدْ لِى يَاهَامَانُ عَلَى الطِّين ﴾ لهامان مع أن النداء له - بل يكون لجنوده الذين شبه بهم- وأن يتوقف جواز التركيب فى نحو قولهم: أنبت الربيع البقل وسرتنى رؤيتك على الإذن الشرعي، لأن أسماء الله توقيفية. . . ثم ما ذكره منقوض بنحو قولهم: فلان نهاره صائم، فإن الإسناد فيه مجاز ولا يجوز أن يكون النهار استعارة بالكناية عن فلان، لأن ذكر طرفى التشبيه يمنع من حمل الكلام على الاستعارة ويوجب حمله على على التشبيه»[1].

بلاغة المجاز العقلى ودقة مسلكه:

وتكمن بلاغة المجاز العقلى فيما يفيده من المبالغة فى التعبير، وإيجاز القول، وإثارة الخيال عندما يسند الفعل إلى غير فاعله الحقيقي، كما ترجع بلاغة المجاز العقلى إلى أنه يفتح أمام المتكلم الميدان للتفنن فى القول، وتلوين العبارة، وإخضاع الكلام لما يريد، وتشكيل البناء حسبما يهدف إليه ويرمي، فهو يلجأ إليه لنفى تهمة، أو لتخلص من جريمة، أو لتحقيق مقصد من المقاصد، حيث يجد فى إسناد الفعل إلى غير فاعله الحقيقى ميداناً رحباً لتحقيق هذه المقاصد. ولذا يقول فيه عبد القاهر. . «وهذا الضرب من المجاز على حدته كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ، فى الإبداع والإحسان، والاتساع فى طرق البيان، وأن يجئ بالكلام مطبوعاً مصنوعاً، وأن يضعه بعيد المرام، قريباً من الأفهام»[2] ويتضح لك هذا من خلال تأملك لشواهده وأمثلته. . انظر فى قوله تبارك وتعالى ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ تجد أن الفعل قد أسند إلى مكانه وفى هذا الإسناد تخييل محرك ومثير. إذا يصور لنا الأرض فاعلة جاهدة تخرج أثقالها وتقذف بنفسها ما بداخلها، فلا تبقى فى باطنها شيئاً، وتأمل الشواهد التى أسند فيها الفعل إلى سببه أو إلى

(١) الإيضاح جـ١ ص ٧٠، ٧١.
(٢) دلائل الإعجاز ٢٨٨.

زمانه أو مكانه: بنى الأمير ونهاره صائم وليله قائم وطريق سائر، ولاحظ ما فيها من الإيجاز وتقليل الألفاظ، إذا المراد: بنى العمال بأمر الأمير وصام الناس فى النهار وقام العابد الليل ومضى السائرون فى طريقهم، وفضلاً عن إفادة الإيجاز تجد التجوز فى تلك الأمثلة قد أفاد المبالغة فى وقوع هذه الأفعال وشدة اهتمام الأمير بالبناء، وتأكيد كمال الصوم وتمام القيام وسرعة السير فى الطريق.. وكثيراً ما يلجأ المتكلم إلى المجاز العقلى لتحقيق مقصد من المقاصد -كما قلت- انظر إلى قولهم: «فلان قتله جهله وقضى عليه غروره»، وهم يريدون بهذا تبرئة القائل من جريمة قتله، ونفى التهمة عمن قضى على غيره، وذلك بإسناد القتل إلى جهل المقتول، «وقضى» إلى غرور المقضى عليه وتكبره وعجرفته. فقد وجدوا فى المجاز العقلى تحقيقاً لهذا المقصد.

ومن هذا ما روى أن عمار بن ياسر - رضى الله عنه- لما قتل يوم صفين وكان فى جند على -كرم الله وجهه-، اضطرب أهل الشام لعلمهم بقول النبى - صلى الله عليه وسلم-: «عمار تقتله الفئة الباغية» فقال لهم معاوية رضى الله عنه: «إنما قتله من أخرجه»، فقد وجد معاوية - رضى الله عنه- فى المجاز دفعاً للتهمة عن جماعته وإزالة لاضطراب الناس وارتيابهم. ومنه أيضاً ما ورد أن زياداً عندما كان والياً على الكوفة من قبل معاوية، اتهم حُجْر بن عدى وأصحابه بالخروج على معاوية، وأشهد على ذلك سبعين من وجوه الكوفة، ثم أرسلهم إلى معاوية مع شهادتهم بهذا الخروج فقتل معاوية حجراً وصحبه، فلما حج معاوية، مر على أم المؤمنين السيدة عائشة - رضى الله عنها- فأستأذن عليها فلما أذنت له وقعد سألته: «أما خشيت الله فى قتل حجر بن عدى وأصحابه؟ فأجاب: لم أقتلهم وإنما قتلهم من شهد عليهم. فقد وجد فى المجاز ما يدفع به عن نفسه تهمة قتل حجر وأصحابه.

هذا والمتكلم يحتاج فى استخدامه لهذا المجاز أن يهيىء العبارة له. فليس كل شيء - كما يقول عبد القاهر - يصلح لأن يتعاطى فيه هذا المجاز، بل تجدك فى كثير من الأمر وأنت تحتاج إلى أن تهيىء الكلام، وتصلحه لذلك بشيء تتوخاه فى النظم، وكلما هيأ المتكلم العبارة لهذا المجاز تجده قد صار أوقع فى النفس وألطف، وآكد وأبلغ. انظر إلى قول الشاعر:

تناسى طلابَ العامرية إذ نأت ... بأسجع مرقال الضحى قلق الضَّفْر
إذا ما أحسته الأفاعى تحيزت ... شـــواة الأفاعى من مُثَلَّمَة سُمْرِ

تجوب له الظلمـــاء عين كأنهـا   زجاجة شرب غير ملأى ولا صفرِ[1]

تجده قـد أسند «تجوب» إلى «العين» والأصـل : يجوب الجمل بعـينه الظلمـاء ، ولكنه عدل إلى المجـاز فأسند الفعل إلى آلتـه ، ثم هيأ البيت وتوخى من النظم مـا يجعل المجاز ألطف وأوقع فى النفس إذ تراه نكر العين ليتسنى له وصفها بالجملة الواقعة بعدها ، ولو قال : تجوب له الظلماء عينه ما تمكن من وصفها بتلك الجملة ، وعندما نكر العين وقطعها عن الإضافة إلى الجمل وصلها به بقوله «له» فبدون الضمير فى «له» يصير الكلام لا علاقة له بالجمل[2] .

وانظر فى قول الفرزدق :

يحمى إذا اخترط السيوف نساءنا   ضرب تطيـر له السواعـد أرعل

تجده قد قدم الشرط : «إذا اخترط السيوف» على الفاعل والمفعول فأبرز بهذا صعوبة الموقف وشـدة الحـال . ثم إن بناء الفـعل للمـجهـول «اختـرط» ، قـد أشار إلى سرعـة سل السيـوف باندفاع وتهـور ، وتأمل القـولين : يحـمى نسـاءنا ضـرب إذا اختـرطنا السـيـوف ، ويحمى إذا اختـرط السيـوف نسـاءنا ضـرب تجـد أن تقـديم الشـرط والمجىء به معـتـرضـا بين الفعل وفاعله ، قد هيأ العبارة للمجاز العقلى فدق ولطف ، ووقع فى النفس موقعه . . .
وخذ قول الخنساء :

ترتع ما غفلت حتى إذا ادكـرت   فإنمـــا هـى إقبـــال وإدبــــار

تجد أن أسلوب القصر قد هـيأ المجاز العقلى أحسن تهيؤ حيث قـصرت الناقة على الإقبـال والإدبار ، وقارن بين : هى إقبال وإدبار ، وإنما هى إقبال وإدبار ، فستتضح لك قوة المبالغة المنبعثة من أسلوب القصر . ثم تأمل قول كثير :

أخذنا بأطـراف الأحاديـث بيننا   وسالـت بأعنـاق المطى الأباطـح

---

(١) الأسجع من الإبل : الرقيق المشفر ، ومرقال : سريع العدو والضفر : الحزام فهو قلق الضفر من شدة الضمور . وشواه الأفاعي : جلودها ، وتحيزت : انقبضت . والمثلمة السمر : الأخفاف وثلمها من السير على الحجارة والسمر منها أقواها . وصفر : خالية ، وتجوب : تقطع وتنفذ .
(٢) الدلائل ٢٩٠ .

تجد أن اختيار هذا الجزء من الإبل «الأعناق» قد أضفى على العبارة جمالاً وأبرز وجلى ما يفيده المجاز العقلى من تخييل وتصوير الأباطح متحركة تدفع بهذه المطى دفعاً وتسيل بها سيلاناً، وذلك لأن حركة الإبل عندما تسرع فى السير تظهر تمام الظهور فى أعناقها، ويتضح لك هذا عندما تقارن بين قولك وسالت بالمطى الأباطح وبين ما قاله كثير :

* وسالت بأعناق المطى الأباطح *

وهكذا تجد المجاز العقلى فى حاجة إلى تهيئة العبارة وتوخى النظم، وأن الشاعر أو المتكلم عندما يراعى هذا فيتوخى من النظم ما يلائم المجاز ويهيىء العبارة له، فإنه يقع فى النفس موقعه، ويحقق ما يقصده الشاعر من الإيجاز والمبالغة والتخييل . .

❑❑❑

الفصل الثاني

أحوال المسند إليه

المسند إليه هو أحد أجزاء الجملة - كما عرفت- إذ تتكون الجملة من مسند ومسند إليه وأحد المتعلقات -إن وجد- كالمفعول والظرف والمصدر والجار والمجرور . . وسنتناول في هذا الفصل أحوال المسند إليه من حذف وذكر وتعريف وتنكير وإتباع وتقديم وتأخير . . . ثم نتبع ذلك بأحوال المسند وأحوال المتعلقات في الفصلين التاليين . . وفي ختام هذا الجزء سنعرض لظواهر أسلوبية تشمل كل أجزاء الجملة المذكورة .

حذف المسند إليه:

لابد لكل حذف يقع في اللغة من وجود أمرين بدونهما يكون الحذف عبثاً وضرباً من الهذيان ، وهذان الأمران هما :

١- وجود القرينة الدالة التي تدل على المحذوف وترشد إليه وتعينه .

٢- وجود سر بلاغي يدعو إلى الحذف ويرجحه على الذكر . . وهذه الأسرار كثيرة ، ولا يمكن استقصاؤها والإحاطة بها ، ولذا يقول عبد القاهر في إبراز فوائد الحذف وبيان قيمته البلاغية : «هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن . . وهذه جملة قد تنكرها حتى تخبر ،

وتدفعها حتى تنظر ، وأنا أكتب لك بديئاً أمثلة مما عرض فيه الحذف ، ثم أنبهك على صحة ما أشرت إليه ، وأقيم الحجة من ذلك عليه . . . »[1] وأخذ يعرض كثيراً من شواهد حذف المبتدأ والمفعول مبيناً دقة الحذف فيها ومزيته وفضله على الذكر ، وموضحاً أن تقدير المحذوف والنظر إليه واعتباره فى الكلام يعد تكلفاً ويذهب بمزية الحذف ويضيع رونقه . . «تكلف أن ترد ما حذف الشاعر وأن تخرجه إلى لفظك وتوقعه فى سمعك ، فإنك تعلم أن الذى قلت كما قلت وأن رب حذف هو قلادة الجيد وقاعدة التجويد . . إنك ترى نصبة الكلام وهيئته تروم منك أن تنسى هذا المبتدأ أو تباعده عن وهمك ، وتجتهد ألا يدور فى خلدك ، ولا يعرض لخاطرك وتراك كأنك تتوقاه توقى الشيء يكره مكانه ، والثقيل يخشى هجومه . . ترى النفس كيف تتفادى من إظهار المحذوف ، وكيف تأنس إلى إضماره ، وترى الملاحة كيف تذهب إن أنت رمت التكلم به . . فما من اسم أو فعل تجده قد حذف ثم أصيب به موضعه ، وحذف فى الحال التى ينبغى أن يحذف فيها ، إلا وأنت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره ، وترى إضماره فى النفس أولى وآنس من النطق به[2] .

هذا ونستطيع أن نقول إن هناك ثلاث مزايا تراها كامنة وراء كل حذف يقع فى اللغة وهي : الإيجاز ، وإثارة وتحريك خيال المخاطب وأحاسيسه ليدرك من العبارة ما طوى ذكره وسكت عنه ، والاحتراز عن العبث بناء على الظاهر ؛ لأن ذكر الكلمة التى أقيم عليها الدليل وأشار إليها السياق وأرشدت إليها قرائن الأحوال ، يعد عبثاً بمقتضى البلاغة ، وإن كان لا يسمى عبثاً عند التحقيق ، ولذا قيدوه بقولهم «بناء على الظاهر» .

وعندما ننعم النظر ونتأمل الشواهد التى طوى فيها المسند إليه نجد أن أهم الأسرار البلاغية الكامنة وراء حذفه تنحصر فيما يلي :

ذكر عبد القاهر أن حذف المسند إليه «المبتدأ» يكثر عند ذكر الديار والأطلال ، ويطرد كذلك عند المدح والفخر وعند الهجاء أو الرثاء إذ تراهم يبدأون بذكر الرجل ويقدمون بعض أمره ثم يدعون الكلام ويستأنفون كلاماً آخر ، وهم إذا فعلوا ذلك أتوا فى أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ . . ويعرض عبد القاهر كثيراً من الشواهد لهذا نحو قول الشاعر :

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٧٠ .

(٢) انظر الدلائل ١٧٤ ، ١٧٥ .

اعتـاد قلبَك مـن ليلى عـوائـــده ... وهـــاج أهـــواءك المكنـونـة الطـلـل

ربـــع قـــواء أذاع المعصـــرات بـــه ... وكـلُّ حيـــرانَ ســارٍ مــاؤه خَضِل[1]

أراد: ذلك ربع قواء فحذف المبتدأ

ومثله قول عمر بن أبى ربيعة:

هل تعرف اليوم رسم الدار والطللا ... كما عرفت بجفن الصَّيْقَل الخللا

دار لميــــه إذ أهلــــى وأهلهــــم ... بالكانسيـة نرعى اللهو والغـــزلا[2]

كأنه قال: تلك دار . . ونحوه قول ذى الرمة:

إلى لوائـح من أطـــلال أحويـــة ... كأنهـــا خِلَلٌ موشيـــة قشـب

ديـــــــارمية إذ مـــى تساعفنـــا ... ولا يرى مثلها عجم ولا عرب[3]

أراد: تلك ديار أو هذه ديار . .

ومما ورد من ذلك فى مقام المدح ونحوه قول الشاعر:

هـــم حلـوا من الشـــرف المعلـــى ... ومن حسب العشيرة حيث شاءوا

بناة مكـــــارم وأســــاة كلــــم ... دماؤهـــم من الكلـــب الشفـــاء[4]

وقول عمرو بن معد يكرب:

وعلمـــــــت أنى يـــــــوم ذا ... ك منــــــازل كعبـــــا ونهـــــدا

قـــــوم إذا لبســـــــوا الحديـــ ... ـــد تنمــــــروا حلقـًا وقـــــدا[5]

---

(١) قواء: موحش قفر. والمعصرات: السحاب وكذا الحيران والساري وخضل: كثير.

(٢) الصيقل: السيف المصقول. والخلل: مفردها خلة وهي جفن السيف المبطن بالجلد ونحوه والكانسية: موضع.

(٣) اللوائح: ما تبين ولاح. وأحوية: بيوت مجتمعة مفردها: حواء. وموشية: منقوشة. وقشب: جدد.

(٤) الكلم: الجرح. والكلب: داء يصيب الإنسان إذا عضه كلب، وكانوا يعتقدون أن دم الشريف إذا قطر في فم المصاب بداء الكلب فإنه يشفيه.

(٥) كعب ونهد: قبيلتان. وتنمروا: تشبهوا بالنمور، والقد: الجلد تصنع منه بعض الدروع. والحلق: حلق الدروع.

وقول الآخر:

سأشكر عمـــرا إن تراخت منيتي ... أيادي لـم تمن وإن هـي جلـت

فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ... ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت

وقوله:

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم ... دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

نجوم سمـاء كلما انقـض كوكب ... بدا كوكـب تأوى إليه كواكـبه(١)

وقول الأقيشر الأسدى فى هجاء ابن عمه:

سريع إلى ابن العم يلطم وجهـه ... وليس إلى داعى النـدى بسريـع

حريص على الدنيا مضيـع لدينـه ... وليس لمـــا فى بيتـــه بمضيـــع

أرادوا: هم بناة مكارم .. هم قوم إذا لبسوا الحديد تنمروا .. هو فتى .. هم نجوم سماء .. هو سريع وحريص.

وعبد القاهر كعادته يحيلك إلى الذوق لتدرك سر بلاغة الحذف فى تلك الشواهد، ويطلب منك أن تقارن بين الجمل وقد قدرت المحذوف وبين ما قاله الشاعر لتدرك بعد ما بين الكلامين وتعرف أن تقدير المحذوف قد أفسد المعنى الذى أراده الشاعر.

وأزيدك أن حذف المبتدأ عند ذكر الديار والأطلال يحقق معنى أراده الشاعر وهو كراهته أن تنسب تلك الرسوم والأطلال والدمن والآثار التى تغيرت وتبدلت وأذاعت بها المعصرات فصارت تلوح لك كالخلل الموشية، وكانت من قبل دياراً للهو والغزل .. كراهته أن تنسب تلك الديار التى بدلت إلى اسم حبيبته فيقال: تلك ديارمية . وذلك ربع ليلى، ونظير هذا أن ترى صديقاً حميماً لك قد رسب فى الامتحان ولم يوفق فتقول محدثاً عنه: رسب .. لم ينجح، ولا تذكر اسمه كراهة أن تضيف الرسوب إليه .. وقارن كما يقول عبد القاهر بين: «دار مية»، وبين «تلك دار مية»، فستجد أن ذكر اسم الإشارة قد جعل ديارمية تنسب إليه وهو مشار به إلى الرسوم والدمن التى عصفت بها الرياح فصارت تلوح

(١) الجزع: خرز فيه بياض وسواد.

لك، كالحلل الموشية القشب، أما طيه والسكوت عنه فيجعل الديار دياراً باقية بذكرياتها وحياتها، ذكريات اللعب ولهو الشباب وحياة الحب والعشق.

وشيء آخر وراء هذا الحذف وهو أن الشاعر عند ذكر الأطلال والديار والمنازل التى بددتها الأيام وغيرها الزمن، يكون ممتلئ النفس، متوتر الحس، حزيناً كئيباً، وتلك حال تقتضى الحذف، وتدعو إلى طى الكلمات وإيجاز القول.

أما حذف المبتدأ فى مقام المدح ونحوه، عندما يقطع الشاعر المعنى مستأنفاً معنى آخر، فأرى أن سر الحذف عندئذ هو رغبة الشاعر فى تميز هذه المعاني، وظهورها صنوفاً متباينة وألواناً مختلفة وأجناساً متغايرة وحذف المبتدأ فى تلك الجمل المستأنفة، يحقق هذه الرغبة، إذ يجعل الجمل المستأنفة مستقلة بمعانيها، غير مرتبطة بما قبلها، وعليك أن تقارن بين قولهم بناة مكارم.. قوم إذا لبسوا الحديد تنمروا.. فتى غير محجوب الغنى.. نجوم سماء كلما، سريع إلى ابن العم، وبين قولك: هم بناة مكارم.. هم قوم.. هو فتى.. هم نجوم سماء.. هو سريع إلى ابن العم.. فستجد أن ذكر الضمير «المسند إليه» قد ربط بين المعانى المسندة إليه، والمعانى السابقة، إذ يرجع إلى المتحدث عنهم فيجعل تلك الأوصاف التى يراد وصفهم بها واحدة مرتبطة يندمج بعضها فى بعض، وهذا ما لا يريده الشعراء فى هذا المقام، إذ أرادوا بحذفه من صدر الاستئناف، تميز المعانى المستأنفة عن المعانى السابقة وكأنها - كما قلت - ضروب متباينة وأجناس متغايرة، وإضافة تلك المعانى إلى المتحدث عنهم على هذا النحو مما يفيد كمال المبالغة فى المدح أو الفخر أو الرثاء أو الهجاء.. إلخ.

وشيء آخر وراء حذف المسند إليه فى هذا المقام، وهو أنه ينبيء بمدى انفعال الشاعر، وامتلاء نفسه بتلك المعاني، فيفيض بها صنوفاً مختلفة، وألواناً متميزة.

ومن الأسرار البلاغية الكامنة وراء حذف المسند إليه: «ضيق المقام» ويرجع ذلك إلى ما يكون فيه المتحدث من حزن، وألم، أو ملل وسأم، أو إلى خوفه من فوات فرصة أو ضياع شيء، أو إلى سماعه أمراً غريباً يدعو إلى التعجب ويثير الاستغراب.. انظر إلى قوله تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾[1]، فقد حذف المسند إليه وتقديره: «أنا عجوز عقيم»،

---

(١) سورة الذاريات: ٢٨، ٢٩.

وسر بلاغة حذفه، يرجع إلى تعجبها من بشارة الملائكة، واستبعادها أن تلد وهى عقيم وقد وصلت حد الكبر وصار بعلها شيخاً كبيراً، وكأن المقام وما هى فيه من تعجب واستغراب واستبعاد يضيق بالمسند إليه ويقتضى طيه وحذفه . . وتأمل قول الشاعر :

قال لي : كيف أنت قلت عليـــل   سهـــر دائـــم وحـــزن طويـــل

تجد أن ضيق المقام بسبب ما هو فيه من حزن وألم قد اقتضى حذف المسند إليه، وتقديره . قلت : أنا عليل وحالى حزن دائم وسهر طويل . . وتسمع من ينادى مستغيثاً : حريق أو غريق، والتقدير : هذا حريق، وهذا غريق، فضيق المقام بسبب خشية المنادى أن تفوت فرصة الإنقاذ، جعله يطوى المسند إليه، ويبادر بذكر المسند . . والحذف لضيق المقام يقع كثيراً فى اللغة، ومنه فى غير المسند إليه، قوله تعالى : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾[1] فى قراءة من قرأ بترخيم المنادى، فقد قالوا فى سبب هذا الترخيم : إنهم لشدة ما هم فيه من عذاب وتألم، عجزوا عن إتمام الكلمة، وكأن المقام لا يسعفهم لنداء مالك، فحذفوا آخر الاسم ترخيماً : «يامال» . . وقوله عز وجل : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾[2]، فقد حذف حرف النداء، وهذا الحذف يشير إلى ما صار إليه حال العزيز، وقد رأى براءة يوسف، وأيقن بثبوت التهمة على امرأته، وأنها هى التى أرادت السوء، وكأن الكلمات لا تسعفه حتى يتم النداء فطوى هذا الحرف، ثم أجمل القصة كلها فى اسم الإشارة «هذا» ؛ لأن المقام مقام ضيق وحزن، فهو يقتضى الإيجاز وطى الكلمات . . وانظر إلى قول الحارث يخاطب امرأته وقد أخذت تحثه على أخذ ثأر أخيه من قومه :

قومى هم قتلـــوا أميـــم أخـــى   فإذا رميـــت يصيبـــنى سهمـــي

فحال الشاعر حال حزينة مؤلمة ؛ لأن قاتلى أخيه هم قومه فكيف يثأر منهم، إنه إن رمى يصيبه سهمه . . وتأمل إضافة القوم إلى ياء المتكلم : «قومي» وما يكمن وراء هذه الإضافة من أحزان وآلام، تلك الحال قد اقتضت من الشاعر إيجاز القول وطى الكلمات، فحذف حرف النداء ورخم المنادى، إذ الأصل «قومى هم قتلوا ياأميمة أخى» وتأمل أيضاً قوله : «هم قتلوا»، ومايفيده تقديم المسند إليه وإيلاؤه الخبر الفعلى من تأكيد القتل وقصره

(١) سورة الزخرف : ٧٧ .

(٢) سورة يوسف : ٢٩ .

عليهم، فهذا القصر ينبعث منه ما يمزق نفس الشاعر ويوجع قلبه ويضيق صدره، فقد استطاع الشاعر أن يصور آلامه وأحزانه، وأن يبرز مبعث أساه: «قومي.. هم قتلوا» ومن ثم اقتضى المقام الحذف وإيجاز القول. وعد إلى المسند إليه. فانظر إلى طيه في قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾[1] تجد أنه قد طوى لأن المسند المذكور: «عالم الغيب» لا ينصرف إلا له «سبحانه وتعالى»، ولذا قال البلاغيون: إن سر حذف المسند إليه في الآية هو تعينه للمسند المذكور، وهو هنا متعين حقيقة إذ علم الغيب لا يكون إلا له تعالى، وقد يحذف لتعينه ادعاء ومبالغة كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾[2]، أي: هذا ساحر كذاب، فحذفوا المسند إليه لتعينه –في اعتقادهم– للمسند المذكور «ساحر كذاب»، وغلبة هذا المسند عليه وشهرة اتصاف موسى به – في اعتقادهم–، إلى حد أنه إذا أطلق لفظ «ساحر» أو «كذاب» انصرف إليه وكأنه قد تعين له ادعاء ومبالغة.. ومن ذلك قولنا «عادل في حكمه، نريد بهذا عمر الفاروق رضي الله عنه، فقد حذف المسند إليه في هذا القول لتعينه للوصف المذكور مبالغة في عدالته، وذلك لشهرته رضي الله عنه بالعدل.. ففي الحذف دلالة على أنه قد بلغ في الاتصاف بهذه الصفة حد الكمال.. وقد يحذف المسند إليه لتعينه عهداً كقولك لصديقك: «حضر» تريد شخصا معهوداً لك وله فقد طويت المسند إليه في هذا القول لتعينه للاتصاف بالمسند المذكور عهداً، إذ ينصرف ذهن صديقك إليه عند سماعه لقولك حضر.. وتأمل تلك الأمثال: رمية من غير رام.. قضية ولا أبا حسن لها.. شنشنة أعرفها من أخزم، تجد أنها قد وردت بحذف المسند إليه، إذا التقدير: تلك رمية.. هذه قضية وتلك شنشنة.. وعندما تضرب هذه الأمثال ينبغي عليك أن تلتزم حذف المسند إليه اتباعاً للاستعمال الوارد، لأن الأمثال لا تتغير.

ومن حذف المسند إليه: بناء الفعل للمفعول، إذ يحذف الفاعل ويقام مقامه غيره، ووراء هذا الحذف أغراض كثيرة، منها الخوف على الفاعل الحقيقي، كما في قول الشاعر:

نبئت أن أبا قابوس أوعدني ... ولا قرار على زأر من الأسد

والخوف منه كقولك: «سرق المتاع»، تريد: سرق اللص.

---

(١) سورة الرعد: ٩.

(٢) سورة غافر: ٢٣ - ٢٤.

واحتقاوه كما في قول الشاعر :

لئن كنت قد بلغت عنى خيانة　　لمبلغك الواشى أغش وأكذب

وضيق المقام كقول أبى فراس :

أسرت وما صحبى بعُزْل لدى الوغى　　ولا فرسى مُهْر ولا ربه غَمْر

والجهل به كقولك : قتل المجرم، والعلم به كقول الشاعر :

سُبِقْنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها　　مُنعْنا بها من جيئة وذُهوب

وكقوله عز من قائل : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ ﴾[1] وتأمل قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[2]، تجد أن الفعل قد بنى للمفعول فى قوله : «قيل . . غيض . . قضى» للعلم بالفاعل الحقيقى وهو الله القادر . ووراء حذف الفاعل سر آخر وهو الإشارة إلى سرعة الإجابة والامتثال وأن هنالك قوة خارقة قد اختطفت الماء فانمحى وزال . وانظر فى قوله عز وجل : ﴿ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (119) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴾[3]، تجد أن وراء حذف المسند إليه دقائق ولطائف أهمها الإشارة إلى قدرة الخالق فهو الغالب وليس موسى ؛ بل لقد أوجس موسى فى نفسه خيفة عندما رأى حبالهم وعصيهم وخيل إليه من سحرهم أنها تسعى، فقوله تعالى «غلبوا» بالبناء للمجهول إشارة إلى قدرة الله القاهر وتنبيهاً على أن الغلبة كانت بتدبيره وصنعه، وبهذا يظل موسى فى مرتبة العبودية العاجزة التى لا تصنع شيئاً خارقاً، وإنما يجريه الله تعالى على يديه . وتأمل قوله تعالى : ﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ﴾ وإشارته إلى سرعة امتثالهم لأمر الله وكأن قوة القهار قد نزعت العناد والكفر من رءوسهم فانكبوا ساجدين، مؤمنين برب العالمين . وقد يحذف المسند إليه لظهوره ظهوراً لا لبس فيه، انظر فى قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾[4] وقوله عز وجل : ﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾[5] تجد أنه قد طوى المسند إليه وتقديره : إذا

---

(١) سورة الجمعة : ١٠ .

(٢) سورة هود : ٤٤ .

(٣) سورة الأعراف : ١١٩ - ١٢٠ .

(٤) سورة القيامة : ٢٦ .

(٥) سورة الواقعة : ٨٣ .

بلغت الروح التراقى والحلقوم، وطيه فى الآيتين لظهوره ظهوراً بيناً، إذ لا يبلغ الحلقوم والتراقى عند الموت إلا الروح والنفس، وشيء آخر وراء الحذف فى الآيتين وهو الإشارة إلى ما عليه الروح من وشك المفارقة وكأن إسقاطها من العبارة يؤذن بذهابها وزوالها .
ومن ذلك قول حاتم :

أماوى ما يغنى الثـراء عن الفتى   إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

أراد : إذا حشرجت النفس فحذفت النفس لما بينا من أن طيها من العبارة يوحى بوشك زوالها وانتقالها إلى بارئها . ومن ذلك أيضاً قوله عز وجل : ﴿ **إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ** ﴾[1] فالمراد : حتى توارت الشمس، فحذفت لظهورها ظهوراً تاماً، ولإيذان الحذف بالموارة والاختفاء، وكأن إسقاطها من العبارة ينبىء بالغروب والاختفاء . وتأمل قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ** ﴾[2]، وقوله عز وجل : ﴿ **ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ** ﴾[3]، تجد أن المسند إليه قد حذف فى الآيتين والتقدير : لقد تقطع ما كان بينكم من علاقات موهومة . ثم بدا لهم الأمر وهو السجن وحذف المسند إليه يشير إلى عدم الاعتداد به وسقوطه فتلك علاقات واهية وأمور واهمة لا اعتداد بها، وهذا أمر ساقط جائر وضح لهم بعد ما رأوا الآيات فكيف يسجنونه عندئذ؟ الحذف فى الآيتين يشير إلى عدم الاعتداد بالمسند إليه، وكأن إسقاطه من العبارة ينبىء بأنه لا وجود له ولا اعتداد به عند ذوى العقول السليمة والأفكار السديدة .

هذا ويذكر البلاغيون من أغراض حذف المسند إليه : تعجيل المسرة بسرعة إيراد المسند والمبادرة بذكره كقولك لمخاطبك : انظر «دينار» تريد : هذا دينار، فحذفت المسند إليه تعجيلاً للمسرة بذكر الدينار، ومثله أن يبادرك أخوك بقوله : حفل مقام . يريد ذاك حفل، ومن تلك الأغراض أيضاً : تأتى الإنكار عند الحاجة كقولك فى شأن إنسان يطغى ويتكبر : لئيم فاجر غادر، ولا تصرح بذكر اسمه ليتأتى لك الإنكار إذا ما واجهك فتقول له : ما

---

(١) سورة ص : ٣٢ .

(٢) سورة الأنعام : ٩٤ .

(٣) سورة يوسف : ٣٥ .

قصدتك بقولي . . ومنها تحقير المسند إليه وصون اللسان عن النطق به كما فى قوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾[1] فحذف المسند إليه فى قوله : «يقاتلون . ظلموا» تحقيراً له وصوناً للسان عن ذكره أما حذفه فى قوله : «أذن» فللتعظيم والإجلال ، وللعلم به تعالى . . ومن الحذف تحقيراً وصيانة للسان قول بعضهم فى ابن عم له موسر سأله فمنعه ولم يعطه ولطم وجهه :

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه وليس إلى داعى الندى بسريع

حريص على الدنيا مضيع لدينه وليس لما فى بيته بمضيع

فقد حذف المسند إليه تحقيراً له وصونا للسان عن التلفظ به وقد ذكرنا سراً آخر وراء الحذف فى البيت فارجع إليه وتبينه ، وفى معنى صون اللسان عن النطق بالمسند إليه يقول الشاعر :

ولقد علمت بأنهم نجس فإذا ذكرتهم غسلت فمي

ومنها تعظيم المسند إليه وصونه عن اللسان ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾[2] ، فقد حذف لفظ الجلالة تعظيماً له . ومن ذلك حذف أسماء الممدوحين كما فى قول الشاعر :

نجوم سماء كلما انقض كوكب بدا كوكب تأوى إليه كواكبه

وارجع إلى ما قلناه من أسرار أخرى فى مثل هذا البيت ، ويعد من هذا القبيل إخفاء الشاعر لأسماء صواحبه حتى لا تتردد على ألسنة الغير ، وإيثاره أن ينطق بأسمائهن وحده بعيداً عن الناس ، كما يدل على هذا المعنى قول الشاعر :

وإياك واسم العامرية إننى أغار عليها من فم المتكلم

وقول ذى الرمة :

أحب المكان القفر من أجل أننى به أتغنى باسمها غير معجم

إلى غير ذلك من الأسرار والدقائق التى تراها وراء حذف المسند إليه والتى لا يمكن الإحاطة بها - كما ذكرت - لأن الذى يرشد إليها هو السياق وقرائن الأحوال ، فما يبدو

(١) سورة الحج : ٣٩ .

(٢) سورة البقرة : ٤ .

للمتأمل الواعى ذى الذوق السليم والطبع القويم، من دقائق كامنة وراء حذف المسند إليه وطيه فى الأساليب الجيدة، فهو ذاك الذى تبين له.

ذكر المسند إليه:

قد توجد فى الكلام القرينة القوية التى تدل على المسند إليه لو حذف ولكن المتكلم لا يحذفه بل يذكره على الرغم من وجود تلك القرينة القوية وذلك ليحقق غرضاً من الأغراض الآتية:

- زيادة التقرير والإيضاح كما فى قوله تعالى ﴿ **أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾[1] ففى إعادة ذكر المسند إليه: «وأولئك هم المفلحون» زيادة تقرير وإيضاح وإبراز لمكانة هؤلاء المؤمنين الذين آمنوا بالغيب وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وآمنوا بما نزل وأيقنوا بالدار الآخرة وما فيها من جزاء، فاستحقوا تلك المكانة السامية: «أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون»، فقد أدى تعريفهم باسم الإشارة، وإعادة ذكره، إلى زيادة إيضاح وتقرير تلك المعانى السامية المنسوبة إليهم «على هدى من ربهم.. هم المفلحون..» ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾[2] ففى إعادة ذكر المسند إليه: «الروح» زيادة تقرير وإيضاح، إذ تجد فى ارتباطهما بخبرها ما يثبت معنى الجملة فى النفس ويجمع أطرافها فى الفؤاد، فيزداد المعنى إيضاحاً وتقريراً ومثله قوله تعالى: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾[3] ففى إعادة ذكر اسم الإشارة: «أولئك» ما يبرز تلك المعانى المنسوبة إليهم ويزيدها إيضاحاً..

وترى ذكر المسند إليه لهذا الغرض يكثر فى مقام المدح والفخر والعتاب والرثاء ونحو ذلك، حيث يذكر الشاعر اسم الممدوح أو اسم من يعاتبه أو يرثيه، ثم يعيد ذكره مع كل خبر يريد أن يضيفه إليه، فتبدو المعانى بهذا فى صورة واضحة ومؤكدة.. انظر إلى قول عمرو بن كلثوم:

---

(1) سورة البقرة: ٥.

(2) سورة الإسراء: ٨٥.

(3) سورة الرعد: ٥.

وقد علم القبائل من معد إذا قُبب بأبطُحها بنينا
بأنا المنعمون إذا قَدَرنا وأنا المهلكُون إذا أتينا
وأنا العاصِمون إذا أطعنا وأنا الغارمُون إذا عُصِينا
وأنا الحاكمون بما أردنا وأنا النازلون بحيث شينا

تجد أن تكرار ذكر المسند إليه : «أنا» قد أبرز تلك المعانى التى افتخر بها الشاعر والتى قد علمتها القبائل من معد، ووراء هذه النون المشددة يكمن النغم الموسيقى الذى حلا للشاعر أن يتغنى به مفتخراً . . وتأمل قول الخنساء فى رثاء صخر :

وإن صخراً لكافينا وسيدنا وإن صخراً إذا نشتو لنحار
وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

تجد أن تكرارها لاسم صخر قد أبرز تلك المعانى التى أضافتها إليه فى صورة مقررة مؤكدة، كما أن فى ترديدها لهذا الاسم ما يخفف آلامها ويداوى جراحها، وشيء آخر وراء ذكر المسند إليه وتكراره فى البيتين، يشعر به الدارس الواعي، ويدركه المتأمل الدقيق، وهو إبراز هذا الاسم فى الوجودوتخليده فى الأذهان فهو وإن كان قد طوى من الحياة، إلا أنه مذكور فى العقول دائمًا ومخلد فى الأذهان أبداً . . وانظر فى قول ابن الدمينة معاتباً صاحبته :

وأنت التى قطعت قلبى حزازة وقرقت قرح القلب فهو كليم
وأنت التى كلفتنى دلج السرى وجون القطا بالجلهتين جثوم
وأنت التى أحفظت قومى فكلهم بعيد الرضا دانى الصدود كظيم

تجد أن الشاعر كرر ضمير صاحبته فى كل بيت مضيفاً إليه تلك الأخبار، فبدت فى صورة واضحة مقررة، وحققت ما أراده من العتاب واللوم.

ومن أغراض ذكر المسند إليه الرغبة فى إطالة الكلام وامتداد الحديث، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾[1] فقد كان يكفى الجواب أن يقول : عصا، ولكن موسى -عليه

---

(١) سورة طه : ١٧ ، ١٨ .

السلام- رغبة منه فى أن يطول الكلام إذ هو فى حضرة رب العزة جلا وعلا، ذكر المسند إليه «هى» وأضاف العصا إليه: «عصاي» ثم أخذ يتحدث عن عصاه: «أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى» وأجمل تلك المآرب طمعاً فى أن يسأل عنها فيجيب، وبهذا يزداد الحديث طولاً . .

وقد يذكر المسند إليه تلذذاً بذكره وتردده، ويحلو هذا فى مقام الغزل وذكر الأحبة كما فى قول الشاعر:

بالله ياظبيات القاع قلن لنا ... ليلاى منكن أم ليلى من البشر

وقول الآخر:

ألا ليت لبنى لم تكن لى خلة ... ولم تلقنى لبنى ولم أدر ما هيا

فقد كرر الأول اسم ليلى تلذذاً بنطق اسمها والتغنى به وكرر الثانى اسم لبنى لنفس الغرض، فحب الشاعر لاسم صاحبته يجعله يكثر من ذكره ويردده تمتعاً، بل يذكر ويردد كل ما أشبه اسمها أو قاربه:

أحب من الأسماء ما وافق اسمها ... وأشبهه أو كان منه مدانيا

وهو عندما يردد ذلك ويستمتع به، يختار الأماكن البعيدة النائية حتى لا يسمعه أحد فيردد ما ردد:

أحب المكان القفر من أجل أننى ... به أتغنى باسمها غير معجم

فهو يغار على صاحبته ويكره تلذذ الغير بترديد اسمها، ولذا أحب ذاك المكان القفر، بل توعد من يردد اسمها فقال:

وإياك واسم العامرية إننى ... أغار عليها من فم المتكلم

وقد يذكر المسند إليه بغرض التسجيل على السامع حتى لا يتأتى له الإنكار بعدئذ، انظر إلى قول الفرزدق فى على بن الحسين عندما أنكر هشام ابن عبد الملك معرفته له:

هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقى النقى الطاهر العلم

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهلـــه بجده أنبيـــاء اللــه قـــد ختمـوا

وليس قولك من هـــذا بضائـره العرف تعرف من أنكرت والعجم

فقد كرر المسند إليه مضيفاً إليه تلك الصفات تسجيلاً على المخاطب المنكر حتى لا يتأتى له الإنكار بعدئذ، وتلاحظ أن الفرزدق لم يعتد بإنكار المنكر فأورد له الخبر خالياً من التوكيد منبها بهذا إلى وضوحه وظهوره وأنه لا ينبغى لأحد إنكاره أو تجاهله . .

وذكر البلاغيون من أغراض ذكر المسند إليه كذلك : ضعف التعويل على القرينة كما إذا سئلت : من حضر ومن ذهب؟ فتجيب الذى حضر هو عمرو والذى ذهب خالد، لأنك لو حذفت المسند إليه فقلت : عمرو وخالد، لم يفهم السائل المراد لضعف القرينة عندئذ . . والتنبيه على غباء السامع كقولك لسائل غبى لا يفهم إلا بالتصريح، وقد سألك : من حضر؟ فتجيبه الذى حضر على . . وإظهار تعظيمــه أو إهانته كقولك لمن ينتظر مقدم الأمير، ويترقب رؤية السارق أمير المؤمنين سيأتي . . السارق اللئيم يتقدم أمامك الآن . . والتبرك بذكره كقولك فى جواب من سألك : هل الله يرضى هذا؟ وهل محمد خاتم الأنبياء؟ : الله جل جلاله يرضى هذا ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء . . إلى غير ذلك من الأغراض التى تجعل المتكلم يصرح بالمسند إليه ويعمد إلى ذكره فى الكلام .

تعريف المسند إليه:

يرد المسند إليه معرفة ويرد نكره ولكل منهما مقام يقتضيه وداع يستدعيه، وسيأتى الحديث عن تنكير المسند إليه، ودواعيه أما تعريفه فقد يكون بنفس اللفظ دون حاجة إلى قرينة، وذلك فى التعريف بالعلمية، وقد يكون بقرينة التكلم أو الخطاب أو الغيبة، وذلك فى التعريف بالضمائر، وقد يكون بقرينة حسية كتعريفه باسم الإشارة، أو بنسبة معهودة كتعريفه بالاسم الموصول، أو بحرف وهو المعرف بأل، أو بإضافة معنوية وذلك عند التعريف بالإضافة . وإليك بيان هذه المعارف وما يكمن وراء التعريف بها من دقائق وأسرار .

التعريف بالضمائر:

يؤتى بالمسند إليه ضميراً إذا كان الحديث فى أحد المقامات الثلاثة : التكلم- الخطاب - الغيبة ، فإذا كان المتكلم يتحدث عن نفسه ، كان المقام لضمير المتكلم نحو : أنا فعلت كذا ، ونحن فعلنا ، وتكمن وراء التعبير بضمير المتكلم معان دقيقة ومزايا لطيفة يدركها ذو الحس المرهف والذوق السليم . انظر فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (13) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾[1] تجد أن التعبير بضمير المتكلم : «إنى أنا ربك . وأنا أخترك ، إننى أنا الله لا إله إلا أنا» أفاد من الإيناس والتلطف ما لا يفيده غيره ، خاصة وأن الله تبارك وتعالى ينادى موسى أول مرة فالمقام يحتاج إيناساً وتلطفاً . وخذ قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[2] وتأمل إيثاره التعبير بضمير التكلم «إنا نحن نزلنا . إنا له » وما وراءه من تأكيد الحفظ وبث الطمأنينة فى نفس المؤمن . . ثم تأمل قول النبى صلى الله عليه وسلم : «أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب» وما وراء التعبير بضمير التكلم من الاعتداد بالنفس وتمام الثقة وبعث الطمأنينة فى نفوس المؤمنين وكذا القول فى بيت المتنبي :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ... وأسمعت كلماتى من به صمم

وقول بشار بن برد :

أنا المرّعث لا أخفى على أحد ... ذرت بى الشمس للقاصى وللداني[3]

وقول عمرو بن كلثوم :

ورثنا المجد قد علمت مَعَدٌّ ... نطاعن دونه حتى يبينا

ونحن إذا عماد الحى خرت ... على الأحفاض نمنع من يلينا

---

(١) سورة طه : ١١ - ١٤ .

(٢) سورة الحجر : ٩ .

(٣) المرعث : المقرط ، وكان بشار يلقب بالمرعث لقرط كان يعلقه في أذنه وهو صغير . وذرت : طلعت ، كناية عن الشهرة والذيوع ، يصف نفسه بأنه ذائع الصيت .

إذ لا يخفى عليك ما يكمن وراء التعبير بضمير التكلم فى الأبيات من الفخر والاعتداد بالنفس .

وإذا كان المتكلم يخاطب إنساناً أمامه ، كان المقام للخطاب ، كقوله تعالى مخاطباً النبى صلى الله عليه وسلم : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾(١) وقوله عز وجل : ﴿ **وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ** ﴾(٢) وقوله جل علا : ﴿ **فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴾(٣) ، ويكثر التعريف بضمير الخطاب فى مقام العتاب واللوم ، إذ يحلو للمتكلم أن يخاطب من يعاتبه وأن يردد ضميره مسنداً إليه ما يريد من لوم وعتاب ، على نحو ما نرى فى قول أمامة الخثعمية تخاطب ابن الدمينة :

وأنا الذى أخلفتنى ما وعدتنى	وأشمت بى من كان فيك يلوم
وأبرزتنى للناس ثم تركتنى	لهم غرضاً أرمى وأنت سليم

فأجابها ابن الدمينة :

وأنت التى قطعت قلبى حزازة	وقرقت قرح القلب فهو كليم
وأنت التى كلفتنى دلج السرى	وجون القطا بالجلهتين جثوم
وأنت التى أحفظت قومى فكلهم	بعيد الرضا دانى الصدود كظيم

وأصل الخطاب أن يكون للمعين المشاهد ، وقد يعدل عن هذا الأصل لسر بلاغي ، فيخاطب غير المشاهد إشارة إلى حضوره فى الذهن وقربه من القلب ، وتعلق النفس به ، كما رأيت فى الشواهد المتقدمة .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ** ﴾(٤) فتوجه المؤمن بالخطاب إلى المولى جل وعلا يكمن وراءه ما ذكرنا من التقرب

---

(١) سورة القلم : ٤ .

(٢) سورة الأحزاب : ٣٧ .

(٣) سورة الضحى : ٩ - ١١ .

(٤) سورة الفاتحة : ٥ ، ٦ .

إليه تعالى وتعلق الفؤاد به ودوام حضوره فى نفس المؤمن . . وقد يخاطب غير المعين كقولنا : «فلان لئيم إن أكرمته أهانك وإن أحسنت إليه أساء إليك . . » ، إذ لا يراد بالخطاب فى مثل هذا القول مخاطب معين ، بل يراد به العموم ، ويكمن وراء ذلك معنى دقيق وهو الإشارة إلى شناعة اللؤم وقبح الصنع وفظاعة الإساءة ، وأن هذا لا يختص بواحد دون آخر . . ومثله قول الشاعر :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته … وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وقول الآخر :

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها … هواناً بها كانت على الناس أهونا

وقول الثالث :

إذا ما كنت ذا قلب قنوع … فأنت ومالك الدنيا سواء

فليس المراد بالخطاب فى تلك الأبيات مخاطباً معيناً ، بل أريد عموم الخطاب وشموله لكل من يتأتى منه الخطاب . . وانظر فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾[1] ، نجد أن الخطاب فى قوله : «ترى» ، قد أريد به كل من يتأتى منه الخطاب ، وهذا ينبىء بأن الأمر من الوضوح بمكان وأن حال المجرمين وما هم فيه ، قد بلغ من الظهور لأهل المحشر مبلغاً يمتنع خفاؤه ، فلا يختص به راء دون آخر ، ولا يخفى عليك ما يفيده حذف جواب «لو» من شدة هذه الحال وفظاعتها ، كما لا يخفى عليك ما يريده النظم القرآنى من التنفير والتحذير من صنيع هؤلاء المجرمين الذى أدى بهم إلى تلك الحال المخزية .

ومثل هذا تراه فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾[2] ، وقوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾[3] ، وتأمل قول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم : «بشر المشائين إلى المساجد فى الظلمات بالنور

---

(١) سورة السجدة : ١٢ .

(٢) سورة سبأ : ٥١ .

(٣) سورة الإنسان : ٢٠ .

التام يوم القيامة . . » تجده صلى الله عليه وسلم لم يرد مخاطباً معيناً وإنما أراد أن : كل من يتأتى منه الخطاب ينبغى أن يقوم بهذا التبشير، وفى هذا غاية التكريم وتمام الرضا عن هؤلاء المشائين إلى المساجد فى الظلمات.

وإذا كان المتكلم يتحدث عن غائب فينبغى أن يتقدم ذكره إما لفظاً كقوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾[1] .

وقول الشاعر:

من البيض الوجـوه بنى سنـان	لو انك تستضىء بهـم أضـاءوا
هم حلـوا من الشـرف المعلـى	ومن حسب العشيرة حيث شاءوا

وتجد أن ضمير الغائب «هم» قد أبرزوا علو مكانتهم وبعد منزلتهم وإما معنى بأن يكون فى حكم الملفوظ به كقوله تعالى: ﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[2]، وقوله جل وعلا: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾[3]، فالضمير «هو» يعود إلى العدل والرجوع المفهومين من قوله: «اعدلوا . . فارجعوا . . .».

وقد يكون للمرجع قرينة تدل عليه كقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾[4]، فالضمير المستتر «هى» يرجع إلى الشمس، وقد دلت عليها قرائن السياق والأحوال من ذكر العشى والتوارى وفوات وقت الصلاة . . وقد يكون الضمير مفسراً بما بعده كما فى ضمير الشأن نحو قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ﴾[5]، فالضمير فى «إنها» مفسر بالجملة بعده ولا يخفى عليك ما فى ذلك من الإيضاح بعد الإبهام، وأن لهذا أثره ووقعه فى أنفس المخاطبين.

---

(١) سورة الأعراف : ٨٧ .

(٢) سورة المائدة : ٨ .

(٣) سورة النور : ٢٨ .

(٤) سورة ص : ٣٢ .

(٥) سورة الحج : ٤٦ .

التعريف بالعلمية:

ويؤتى بالمسند إليه معرفاً بالعلمية لأغراض كثيرة أهمها:

١ - أن يقتضى المقام إحضار مدلوله بعينه وشخصه فى ذهن السامع ابتداء باسم مختص به.. كما فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾(1)، فالمقام مقام رد على الملحدين وإيضاح التوحيد لهم والعلمية «الله» أنسب بهذا المقام دون سائر المعارف.. وانظر إلى قول مالك بن عويمر فى رثاء أبيه:

أبـــو مالك قاصـــر فقـــره ... على نفســـه ومشيـــع غنـــاه

فقد اقتضى مقام الرثاء أن يبرز الشاعر المرثى وأن يذكره بهذه الكنية التى تفيد تشخصه وإضافته إلى مالك، وبذا يبرز أمام الناس فرداً فى محاسنه، علماً فى مآثره وأمجاده.

وتأمل قول الحارث بن هشام معتذراً لفراره عن أخيه أبى جهل يوم بدر:

الله يعلـــم مـــا تركــت قتالهـــم ... حتى عَلــوا فرسـى بأشقـر مزبد

الأشقر: لون يأخذ من الأحمر والأصفر ويريد به الدم، والمزبد: الذى له زبد، وقد ناسب مقام الاعتذار أن يذكر الشاعر لفظ الجلالة ناسباً إليه العلم بأنه لم يفر إلا بعد أن أبلى بلاء حسناً وسالت دماؤه، ليعلم بهذا أنه صادق فى اعتذاره وأن ما يقوله صادر من قلبه، وتقديم المسند إليه على خبره الفعلي، وإفادة ذلك لقصر العلم عليه تعالى، مما يبرز إرادة الشاعر، ويظهر صدق اعتذاره وصدق قوله.. وترى مثل هذا الأسلوب يرد كثيراً فى النظم الكريم عند ذكر الأمور التى تختص بالمولى جل وعلا ولا تنسب إلا إليه تبارك وتعالى، ويتضح لك هذا فى قوله عز وجل: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾(2)، وقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾(3)، وقوله عز وجل: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾(4)، وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾(5)، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة.

---

(١) سورة الإخلاص: ١-٢.

(٢) سورة الرعد: ٨.

(٣) سورة آل عمران: ٣٦.

(٤) سورة الأنعام: ١٢٤.

(٥) سورة الرعد: ٢.

٢- أن يقصد إلى تعظيمه أو إلى إهانته وتحقيره، وذلك عند استخدام الكنى والألقاب المحمودة أو المذمومة كقولك: أبو الخير جارك وأبو المعالى جاء. وأبو الجهل صديقك وأنف الناقة حضر، والعربى بطبعه ينفر من الألقاب المذموة ويكره الانتساب إليها ويقبل إلى اللقب المحمود ويحب الانتساب إليه.. وقد كان لقب «أنف الناقة» مكروهاً، ولا يحب أهله الانتساب إليه حتى قال الشاعر:

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم   ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

فصاروا بعد ذلك يفخرون بالانتساب إلى أنف الناقة.. وكان الرجل من نمير يفخر بنسبته إليها ويمد صوته عند النطق بهذه النسمية «نميري» مفتخراً بذلك فلما قال الشاعر:

فغض الطرف إنك من نمير   فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

صار يكره وينفر من تلك النسبة.

٣- أن يقصد إلى التبرك والتلذذ بنطق العلم كقولك: الله ربى ومحمد نبيى.

وكقول الشاعر متلذذاً بليلاه:

بالله ياظبيات القاع قلن لنا   ليلاى منكن أم ليلى من البشر

وقول الآخر مردداً اسم لبنى ومتلذا بهذا الترداد:

ألا ليت لبنى لم تكن لى خلة   ولم تلقنى لبنى ولم أدر ما هيا

ولذا يقول المتنبى معللا ذكره لأسماء آباء الممدوح:

أبا شجاع بفارس عضد الدو   لة فناخسرو شهنشاها

أساميا لم تزده معرفة   وإنما لذة ذكرناها

٤- أن يقصد إلى التفاؤل كقولك: سعد فى دارك، أو إلى التطير كقولك: السفاح قادم.. إلى غير ذلك من أغراض يقصدها المتكلم بتعريف المسند إليه بالعلمية.

التعريف بالأسماء الموصولة:

عندما يعرف المسند إليه بالاسم الموصول ينبغي أن يكون المخاطب والمتكلم عالمين بجملة الصلة، فأنت لا تقول: الذى تحدث الآن رجل فاضل إلا إذا كنت عالماً بحديثه وكان مخاطبك أيضاً يعلمه، ولذا يعمد المتكلم إلى تعريف المسند إليه بالموصولية، إذا كان لا يعلم هو أو مخاطبة من أحوال المسند إليه سوى جملة الصلة، كأن يقول: الذى كان معنا بالأمس رجل صالح، وهو لا يعلم عن ذاك الرجل سوى وجوده بالأمس معهما، أو يعلم عنه ولكن المخاطب لا يعرفه إلا بهذه الصلة فقد وجد المتكلم فى جملة الصلة ما يمكنه من الحديث عمن تحدث عنه، حيث لا يعرف إلا بها . . ومن أغراض تعريف المسند إليه بالصلة: زيادة التقرير، كما فى قوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ﴾[1]، فجملة الصلة: «هو فى بيتها» أبرزت نزاهة يوسف - عليه السلام- وهى الغرض المسوق له الكلام وزادتها تأكيداً وتقريراً؛ لأن كونه فى بيتها وهى متمكنة منه: وعلى الرغم من ذلك أعرض ونأى وقال: «معاذ الله» مما يؤكد نزاهته وإعراضه عن تلك الفاحشة، وفى الصلة تقرير أيضاً للمراودة وهى المسند، لأن وجوده فى بيتها، وانفرادها به، مما يدعو إلى تمكنها منه، وإقبالها على مراودته، وتفننها فى تلك المراودة، وفيها أيضاً زيادة تقرير للمسند إليه وهو: «التي» وتأكيد أنها هى الفاعلة دون غيرها، ولو قيل: راودته امرأة العزيز أو زليخا، لأمكن احتمال أن المراودة غيرها أو شبيهة بها. فالتعبير بالاسم الموصول نفى أى احتمال يحتمل وأكد أنها هى الفاعلة للمراودة. ووراء التعبير بالموصول فى الآية سر بلاغى آخر وهو استهجان التصريح باسمها أو بنسبتها إلى العزيز، لأن من تقبل على فعل الفاحشة تنفر منها النفوس وتكره الألسن التفوه باسمها، وتأبى الطباع نسبتها إلى زوجها وهو ذو الشأن فى الدولة، إنه العزيز، وهى بفعلها هذا صارت لا تستحق أن تنتسب إليه . . ومما عرف فيه المسند إليه بالصلة استهجاناً للتصريح به قولنا: الذى يخرج من السبيلين ناقض للوضوء، والخارج هو البول والغائط وغيرهما وهو قذر ينفر اللسان من النطق به وتأبى الأذن سماعه، ولذا لجأنا إلى التعريف بالصلة تحاشياً للنطق به وتلافياً لإسماعه المخاطب . . وانظر إلى قول حسان رضى الله عنه فى تبرئة نفسه مما نسب إليه من حديث الإفك:

فإن كنت قد قلت الذى قد زعمتمو ... فلا رفعت سوطى إلى أناملى

(١) سورة يوسف: ٢٣ .

وإن الـــذى قد قيــل ليس بلائـط   بها الدهر بل قول امرئ بى ما حل

فقد استهجن أن يصرح بحادثة الإفك، وأن يذكر اتهام عائشة رضى الله عنها، فعبر بالاسم الموصول «الذي» وقد مكنته جملة الصلة من أن يشير إلى معنى لطيف دقيق، فتأمل: « قد زعمتمو . . قد قيل » فهو مجرد زعم، وهو قول ساقط غير منسوب إلى عاقل يستحق أن يذكر . . وقد يكون التعريف بالصلة لتنبيه المخاطب إلى خطئه، كما فى قول عبدة بن الطبيب من قصيدة له فى وصية بنيه:

إن الذيــن ترونهـــم إخوانكـــم   يشفى غليل صدورهم أن تصرعوا

فجملة الصلة: «ترونهم إخوانكم» تفيد: تنبيه الأبناء إلى خطئهم فيما يرون وأنهم مخدوعون فى هؤلاء حيث ظنوهم إخوانهم والواقع أن صدورهم تتوقد حقداً عليهم، ويتمنون هلاكهم، ولو قال عبدة: «إن قوم فلان يشفى غليل صدورهم أن تصرعوا» ما أفاد هذه الإفادة، وخذ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾[1]، تجد أن جملة الصلة: «تدعون من دون الله»، تفيد تنبيه المشركين إلى خطئهم فى عبادتهم غير الله تعالى. وقد يكون فى التعريف بالصلة إيماء إلى وجه بناء الخبر كما فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِيــنَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِيــنَ ﴾[2]، فإن الاستكبار عن عبادة الله الذى دلت عليه الصلة: «يستكبرون عن عبادتى»، قد أومأ إلى وجه بناء الخبر، وأنه من جنس العذاب والنكال: «سيدخلون جهنم» ومثله قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[3]، وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴾[4]، وقوله جل وعلا: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا﴾[5]، وهذا كثير فى النظم الكريم، ومنه شعرا قول الفرزدق:

إن الذى سمك السمــاء بنى لنا   بيتاً دعائمــــه أعــز وأطــول

(١) سورة الأعراف: ١٩٤ .
(٢) سورة غافر: ٦٠ .
(٣) سورة النور: ١١ .
(٤) سورة الكهف: ١٠٧ .
(٥) سورة فصلت: ٣٠ .

فقوله: «سمك السماء» يشير إلى أن الخبر من نوع الرفعة والسمو، وتقول: الذى لا يتذوق الجمال ألف فى البلاغة، فتشير بهذا إلى سوء ما ألف وحقارته، كما يفهم منه إهانة من ألف والحط من شأنه، وقد يفهم من تحقير الخبر تعظيم غيره كما فى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾[(١)]، فقد أومأت الصلة «كذبوا شعيباً» إلى وجه بناء الخبر وأنه من جنس الخسران والبوار، ويفهم من هذا تعظيم شعيب الذى كُذِّبَ ورفعة شأنه.

ومن أجل إيماء الصلة إلى وجه بناء الخبر عيب قول عبدة بن الطبيب:

إن التى ضربت بيتاً مهاجرة ... بكوفة الجند غالت ودها غول[(٢)]

فقد جرت عادة الشعراء على أن البعد والحرمان يلهب العاطفة ويضاعف الشوق والحنين، ولذا قال قائلهم:

لكم التمست البرء من داء الهوى ... بالبعد عنك فزدته أزمانا

وكم من شاعر قد اشتد غرامه واشتعل هيامه بعد رحيل القوم بفتاته وابتعادها عنه.. أما عبدة فقد انقطع حبه وزال وده لخولة بعد أن هاجرت وأقامت بعيداً عنه، وبيان ذلك أن جملة الصلة: «ضربت بيتاً مهاجرة بكوفة الجند» يومئ إلى أن وجه بناء الخبر هو اشتعال نار الحب وازدياد الود الروحى بينهما، ولكن الشاعر خالف هذا وبنى الخبر بناء مغايراً إذ جعله زوال الحب وانقطاع الود: «غالت ودها غول»، وهذا يناقض ما جرت عليه عادة الشعراء كما بينا. وربما يعتذر لعبدة أنه قد قال هذا البيت بعد تولى الشباب وحلول الشيخوخة وفتور الصبوة، وكأنه كان ينتظر هجرتها ليقطع وده ولذا قال عقب البيت المذكور:

فعد عنها ولا تشغلك عن عمل ... إن الصبابة بعد الشيب تضليل

وقد نظر السكاكى إلى هذا فجعل ما فى البيت إيماء إلى وجه بناء الخبر، بل إيماء إلى تحقيقه.. ونظر الخطيب إلى عادة الشعراء فجعل الصلة فى البيت تومىء إلى نقيض ما ذكره الشاعر[(٣)].

---

(١) سورة الأعراف: ٩٢.

(٢) غالت: أكلت، والود مفعول به مقدم والغول فاعل مؤخر وهو حيوان خرافي.

(٣) مفتاح العلوم ٩٧ والإيضاح ١/ ٨٩.

وقد يقصد من التعريف بالموصولية إفادة معنى التفخيم والتهويل كما فى قوله تعالى : ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾[1]، وقوله عز وجل : ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾[2]، وقوله جل وعلا : ﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴾[3]، فالاسم الموصول فى هذه الآيات الكريمة، فيه إيهام أدى إلى التفخيم والتهويل ولو أردت تفصيل ما أفاده الموصول فقلت : غشيهم من اليم أمور عظيمة مبهم أمرها . . إذ يغشى السدرة خلائق عظيمة مبهم أمرها فى الجلال والكثرة، لو قلت مثل هذا ما أفدت ما أفاده الاسم الموصول من تفخيم وتهويل، فقد أفاد ما لا يكتنهه النعت، ولا يحيط به الوصف . . وانظر إلى قول الشاعر فى وصف ما تفعله الخمر بعقل شاربها :

مضى بها ما مضى من عقل شاربها وفى الزجاجة باق يطلب الباقي

تجد أن الموصول : «ما مضى» أفاد تفخيم أمر الخمر وتهويل ما تفعله بعقول شاربيها، ونلمس وراء ذلك معنى لطيفاً وهو التحذير من شرب الخمر لما تصنعه بالعقل، ولأن من أدمن شربها فلن يتركها إلا بعد فقدان عقله، فلو بقيت بقية من عقله لطلبته الزجاجة حتى تذهبه : «وفى الزجاجة باق يطلب الباقي»، ومن ذلك فى غير باب المسند إليه قول الحماسي :

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه فلما علاه قال للباطل ابعد

وقول أبى نواس :

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم وأسمت سرح اللحظ حيث أساموا

وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه فإذا عصارة كل ذاك أثام

وقول كثير :

تجافيت عنى حين لا لى حيلة وخلفت ما خلفت بين الجوانح

(1) سورة طه : ٧٨ .

(2) سورة النجم : ١٦ .

(3) سورة النجم : ٥٤ .

ولا يخفى عليك ما يفيده التعريف بالموصولية فى الأبيات من تهويل وتفخيم . . وقد يعرف المسند إليه بالموصولية لتشويق السامع إلى الخبر حتى يتمكن فى ذهنه فضل تمكن ، كما فى قول أبى العلاء :

والـذى حـارت البريـة فيـه　　حيـوان مستحـدث من جماد

فقد تضمنت جملة الصلة أمراً غريباً جعلت السامع مشتاقاً إلى معرفة الخبر والوقوف عليه ، فعندما يأتى الخبر يتمكن فى نفسه فضل تمكن . . وقد يقصد بالتعريف بالموصولية إخفاء الأمر عن غير المخاطب كقول الشاعر :

وأخذت ما جـاد الأميـر بـه　　وقضيت حاجـاتى كما أهـوى

وقد يقصد إخفاء اسم المتحدث عنه رغبة فى هدايته واستمالة له نحو الحق والهدى ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ** ﴾[1] ، وقوله عز وجل : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ** ﴾[2] ، وقوله جل وعلا : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا** ﴾[3] ، إلى غير ذلك من المقاصد التى يقصد إليها البلاغى عندما يعرف بالموصولية . .

التعريف بأسماء الإشارة:

ويعرف المسند إليه باسم الإشارة لأغراض بلاغية كثيرة أهمها :

١ - أن يقصد تمييز المسند إليه أكمل تمييز ، لأن اسم الإشارة بطبيعة دلالته يفيد تحديد المراد منه تحديداً ظاهراً وتمييزه تمييزاً تاماً ، ولذا فإن المتكلم قد يقصد إلى هذا التحديد ليحضر المسند إليه فى ذهن السامع متميزاً تمام التميز ، وذلك عندما يكون معنياً بالحكم الذى يريد إضافته إليه ويرغب فى إبرازه وزيادة تأكيده .

(١) سورة البقرة : ٢٠٤ .
(٢) سورة الحج : ٨ .
(٣) لقمان : ٦ .

انظر إلى قول ابن الرومى فى مدح أبى الصقر الشيباني :

هذا أبو الصقر فرداً فى محاسنه   من نسل شيبان بين الضال والسلم

نجد أن اسم الإشارة : «هذا» أفاد تميز الممدوح وحضوره فى ذهن السامع محسوساً مشاهداً، وبعد هذا التميز أضاف إليه الشاعر هذه الصفات التى تفيد تفرده فى المحاسن وبلوغه الغاية فى العزة والمجد فهو من نسل شيبان عاش بين الضال وهو شجر السدر البري، والسلم وهو شجر ذو شوك، وتلك الأشجار بالبادية وهى مجد العرب وعزهم، وإضافة الشاعر هذه المآثر إلى الممدوح بعد تميزه فى الذهن واستحضاره أمام السامع يؤدى إلى تمكنها فى الأنفس فضل تمكن، وكأنه يتحدى أن يكون له ضريب أو نظير .

وتأمل قول الفرزدق مشيراً إلى على بن الحسين عندما تجاهله هشام :

هذا ابن خير عباد اللـه كلهـم   هـذا التقى النقى الطاهـر العلم

هذا الذى تعرف البطحـاء وطأته   والبيت يعرفـه والحـل والحـرم

إذا رأتــه قريش قــال قائلهــا   إلى مكـارم هـذا ينتهى الكـرم

يكاد يمسكـه عـرفـان راحتـه   ركن الحطيـم إذا ما جـاء يستلـم

فقد دفع الفرزدق إنكار هشام بهذا الفيض من الإشارات التى أكدت ذيوع مناقب على وشهرة مآثره، حيث أضيفت إليه هذه المناقب وتلك المآثر بعد كمال تميزه، وبعد صيرورته حاضراً فى الأذهان، مرئياً أمام الأعين .

ومن إفادة اسم الإشارة لكمال التميز قول الشاعر :

وإذا تأمل شخـص ضيف مقبـل   متسربـل سربـــال ليـــل أغبر

أومـا إلى الكومـاء هذا طـارق   نحرتنى الأعـداء إن لـم تنحري

فالكوماء : الناقة الضخمة، وقد أفادت الإشارة : «هذا» تحديد المقبل وتميزه فى ذهن الممدوح، ولا يخفى عليك ما وراء اسم الإشارة والإيماء إلى الكوماء، من فرحة غامرة أحاطت بالممدوح وألمت به عندما رأى الضيف المقبل، وكأنه كان يبحث عنه ويفتش، وهذا ينبىء بكرمه، ولكن يؤخذ على الشاعر تعبيره بالفعل «تأمل» الذى يفيد أن الممدوح لا يهم بالذبح إلا بعد التحقق من رؤية الضيف، ولو قال : «تخيل أو توهم» لكان أبلغ فى المدح بالكرم . . ومن ذلك قول المتلمس :

ولا يقيم على ضيم يراد به إلا الأذلان عير الحى والوتد

هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثى له أحد

تجد أن الإشارة : «هذا وذا . . » قد ميزت المسند إليه وحددته وجعلته ماثلاً أمام الأعين . . وإفادة الإشارة لكمال التميز تجدها كثيراً فى النظم الكريم، وترى لها مذاقاً حسناً، انظر إلى قوله تعالى فى حادثة الإفك : ﴿ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾[1]، فالحكم على ما وقع وخاض فيه الخائضون بأنه : «إفك مبين» بعد الإشارة إليه «هذا» وإبرازه أمام العين، يفيد قوة الحكم وصدق اليقين بأنه إفك مبين، وتأمل قوله عز وجل بعد ذلك : ﴿ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾[2]، تجد تميز الحدث وكمال إبرازه بالإشارة إليه : «أن نتكلم بهذا . . سبحانك هذا . . » قد جعل الحكم عليه بأنه : «بهتان عظيم» يقع موقعه فى الأنفس، ولا يخفى عليك ما وراء الإشارة من تحقير وإهانة لمن خاض فى هذه الحادثة .

٢- القصد إلى تعظيم المسند إليه أو إلى تحقيره، وهذا مقصد تحققه أسماء الإشارة أحسن تحقيق وتقوم به خير قيام، لأنك تعلم أن الإشارة تكون للقريب، فيقال هذا رجل، وللبعيد فيقال : ذلك وللتوسط فيقال ذاك وقد ينزل البعد أو القرب المعنوى منزلة القرب أو البعد الحسي، وعندئذ ترى أسماء الإشارة تفيد ما تفيد من التعظيم أو التحقير، فمن إفادة التحقير باسم الإشارة المشار به للقريب قوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴾[3]، وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾[4]، فقد أشير إلى النبى صلى الله عليه وسلم باسم الإشارة الموضوع للقريب «هذا» تحقيراً له، وإعلاناً عن رفضهم رسالته، وأنه لا يليق به أن يذكر آلهتهم بسوء، لقربه ودنو منزلته . . وانظر إلى قول الشاعر متحدثاً عن زوجه :

تقول ودقت نحرها بيمينها أبعلى هذا بالرحا المتقاعس

فقلت لها لا تعجبى وتبينى بلائى إذا التفت على الفوارس

(١) سورة النور : ١٢ .

(٢) سورة النور : ١٦ .

(٣) سورة الفرقان : ٤١ .

(٤) سورة الأنبياء : ٣٦ .

ففى إشارتها إليه بالقريب «هذا» معانى الاستخفاف والتحقير ودنو المنزلة، ولذا رد عليها مبيناً منزلته فى ميدان القتال، وبلاءه عند الموقف الصعب. . ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[1]، فقد أشار إلى الدنيا بالقريب «وما هذه» تنبيهاً على حقارتها وضعتها فى نفس المؤمن الذى لا يلقى لها بالاً .

ومن إفادة التعظيم باسم الإشارة المشار به للقريب قوله تعالى فى شأن القرآن: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، فأتى باسم الإشارة الموضوع للقريب مؤذناً بقربه قرباً يحقق الانتفاع به والاسترشاد بهديه العظيم، لأن المقام مقام حديث عن هدايته إلى أقوم الطرق؛ وكلما كان الهادى قريباً، كان أنجح لرسالته، وأقطع لعذر من ينصرف عن هدايته والاسترشاد به. . وعد إلى أبيات الفرزدق فى على بن الحسين، تجد أن إشارته إليه بالقريب يفيد تعظيمه وقربه من القلوب وتعلق الناس به ومحبتهم له. . ومن إفادة التحقير باسم الإشارة المشار به للبعيد قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾[3]، فقد دلت الإشارة بالبعيد «ذلك» على حقارة المكذب، وحرمانه من ساحة القرب وشرف الحضور. . وتقول: ذلك الواشى وشى بى عند فلان، فتحقره بالإشارة وتبعده عن نفسك وعن المخاطبين. . ومن إفادة التعظيم باسم الإشارة المشار به للبعيد قوله تعالى: ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾[4] .

أشار إلى القرآن بالبعيد «ذلك» لبيان بعد منزلته وعلو مكانته وأنه لا تدانيه منزلة، فقد بلغ الغاية فى الكمال والهداية. . وقوله تعالى: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾[5]، أشارت إليه بالبعيد وهو قريب لتظهر علو منزلته فى الحسن، ولتبرز عذرها فى الافتتان به، قوله . . . وقوله جلا وعلا: ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾[6]، أفادت الإشارة

(١) سورة العنكبوت : ٦٤ .
(٢) سورة الإسراء : ٩ .
(٣) سورة الماعون ١ ، ٢ .
(٤) سورة البقرة : ١ ، ٢ .
(٥) سورة يوسف ٣٢ .
(٦) سورة مريم : ٦٣ .

تعظيم الجنة وبعد مكانتها . . ومن أقوالهم فى هذا الصدد قول الفرزدق مفتخراً بآبائه ومشيراً إلى علو مكانتهم ورفعة شأنهم :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنا ياجرير المجامع

فقد أفادت الإشارة : «أولئك» تعظيم الآباء وسمو مكانتهم، وفى ذلك تعريض بالمخاطب ودنو آبائه وضعة شأنهم، والأمر فى قوله «فجئني» للتعجيز . . ومثله قول الحطيئة :

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البُنا ... وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا[1]

فقد أفادت الإشارة «أولئك» تعظيم المشار إليهم وبعد مكانهم وعلو مجدهم . . ولكن يؤخذ على الشاعر ، استخدامه «إن» دون «إذا» فقلل بهذا بناء المجد والعهد والعقد . . ولو استخدم «إذا» لكان أبلغ وأوفى للمدح . . وقد اجتمع التعظيم والتحقير فى قوله تعالى : ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾[2] .

٢- وقد يقصد بالتعريف باسم الإشارة : التنبيه على أن المشار إليه المذكور بعد أوصاف عديدة للشيء، جدير من أجل تلك الصفات بما يذكر بعد اسم الإشارة . . من ذلك قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[3] . فقد تقدم وصفهم بالتقوى وبالإيمان بالغيب وهو أعلى مراتب الإيمان، ثم وصفهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فوفوا بذلك حق الله وحق الفقراء . وهم يؤمنون بكل ما أنزل على أنبيائه ، ثم جاءت الإشارة «أولئك» لتفيد أنهم جديرون من أجل الصفات المتقدمة بما يذكر عقبها من الهدى والفلاح . . وهذا كثير فى النظم القرآني . . ارجع إلى قوله تعالى فى سورة «المؤمنون» : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾[4]، وفى سورة البقرة : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[5]،

---

(١) بنوا : يريد ما يبنونه من المجد والمكارم ويقال : بنا : يبنو : بناً فى المجد والشرف، وبني : يبني بناء في العمران . وعقدوا : أبرموا أمراً وعزموا عليه .
(٢) سورة المؤمنون : ١٠٢ ، ١٠٣ .
(٣) سورة البقرة : ٥ .
(٤) سورة المؤمنون : ١٠ .
(٥) سورة البقرة : ٢٧ .

وفى سورة الرعد: ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾[1]، وتأمل ما قبله وما بعده ليتضح لك ما قلناه.

٤- ومن أغراض التعريف بالإشارة: تجسيد المعنويات وإبرازها فى صورة محسوسة مشاهدة، على نحو ما ترى فى قوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾[2]، فالإشارة، قد أبرزت التقليب فى صورة محسوسة مرئية، ولكنها بعيدة: «ذلك» ؛ لأنه لا يأخذ العظة منها إلا النفوس المؤمنة القوية المهيأة للوعى والإدراك.. ومثله قوله تعالى: ﴿ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾[3]، فقد أبرزت الإشارة البعث فى صورة محسوسة مرئية.. وقوله تعالى: ﴿قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾[4].. وعد إلى الآيات التى ذكرناها فى حادثة الإفك لترى كيف أبرزت الإشارة تلك الحادثة فى صورة مرئية مشاهدة.

٥- ومن مزايا اسم الإشارة أنك تجده فى كثير من الأساليب يلخص الكلام إذ يستطيع به المتحدث أن يطوى جملاً كثيرة بل وربما صفحات كاملة دون حاجة إلى إعادتها؛ لأن اسم الإشارة يقوم مقام هذه الإعادة ويغنى عنها.. انظر إلى قوله تعالى فى سورة الإسراء﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾[5] تجد اسم الإشارة: «ذلك» قد أغنى عن آيات عديدة حوت كثيراً من الأوامر والنواهي.. وهذا كثير فى النظم الكريم وفى الأساليب الرفيعة وهو لا يخفى على الناظر الدقيق والمتأمل الواعى..

٦- ومن مزايا اسم الإشارة أيضاً أنه يقوم مقام أدوات الربط فيصل بين الجمل المستأنفة والجمل المتقدمة على نحو ما ترى فى الآيات الكريمة: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾[6].. ﴿ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ

---

(١) سورة الرعد: ٢٢.

(٢) سورة النور: ٤٤.

(٣) سورة المؤمنون: ٨٢، ٨٣..

(٤) سورة يوسف: ٣٧.

(٥) سورة الإسراء: ٣٩.

(٦) سورة ص: ٤٨، ٤٩.

من نفاد (٥٤) هذا وإن للطاغين لشر مآب﴾[١] . . إلى غير ذلك من الأغراض والمزايا والمعانى اللطيفة الدقيقة التى تكمن وراء التعريف بأسماء الإشارة .

التعريف بالألف واللام:

يعرف المسند إليه بالألف واللام لغرضين أولهما : الإشارة إلى فرد من أفراد الحقيقة ، معهود بين المتكلم والمخاطب ، وتسمى اللام عندئذ لام العهد الخارجي وتأتى على ثلاثة أنواع :

١- لام العهد الخارجى الصريحي : وهى التى يتقدم لمدخولها ذكر صريح فى الكلام ، كما فى قوله تعالى : . ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾[٢] ، فلفظا «المصباح والزجاجة» كل منهما مسند إليـه ، وقد جـاءا معرفين «بأل» إشارة إلى معهود خـارج ، وهذا المعهود قد صرح به فى قوله تعالى : «فيها مصباح . . فى زجاجة» ولذا تسمى اللام ، لام العهد الخارجى الصرحى . . ومنه قولك : غرسـت شجرة فأثمرت الشجـرة وأينعت وآتت أكلهـا . .

٢- لام العهد الخارجى الكنائي : وهى التى يتقدم لمدخولها ذكر كنائى كما فى قوله تعـالى : ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّى إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ﴾[٣] ، فلفظ : «الذكر» مسند إليه ، وقد عرف «بأل» إشارة إلى العهد الخارجى الكنائي ، حيث لم يصرح بلفظه ، وإنما كنى بقوله تعالى : «ما فى بطنى محرراً» إذ أرادت ذكراً كى تهبه لخدمة بيت المقدس ، أما «أل» فى «الأنثى» فللعهد الخارجى الصريحى لتقدم مدخولها صريحاً فى قوله تعالى : «رب إنى وضعتها أنثى» . .

(١) سورة ص : ٥٤ ، ٥٥ .
(٢) سورة النور : ٣٥ .
(٣) سورة آل عمران : ٣٥ ، ٣٦ .

٣- لام العهد الخارجي العلمي، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾(١)، فاللام في: «الشجرة» للعهد الخارجي العلمي حيث لم يتقدم لمدخولها ذكر لا صريحاً ولا كنائياً.

ثانيهما: الإشارة إلى نفس الحقيقة وتسمى اللام عندئذ لام الحقيقة أو لام الجنس وترد أيضاً على ثلاثة أنواع:

١- لام الجنس أو الحقيقة، وهي التي يكون مدخولها مراداً به الحقيقة نفسها، كقولك: الرجل خير من المرأة، أي: حقيقة الرجل خير من حقيقة المرأة، فلام الجنس أغنت عن تفصيل يتعذر إذ لا يستطيع القائل أن يستقصي جميع أفراد الجنس في تلك المفاضلة، كما أن التعريف بلام الجنس في المثال المذكور، لا ينافي أن بعض أفراد حقيقة المرأة، خير من بعض أفراد حقيقة الرجل، ففي هذا إيجاز وإيحاء دقيق.. ومن ذلك قول أبي العلاء المعري:

والخل كالماء يبدي لي ضمائره مع الصفاء ويخفيها مع الكدر

أراد جنس الخل وجنس الماء.. وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾(٢)، نجد أن اللام في «الناس» يصح أن تكون لام العهد العلمي، أي: كما آمن الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه ويصح أن تكون لام الجنس، أي: كما آمن جنس الناس، والجنسية هنا يتولد منها معنى لطيف؛ لأنها تشير إلى أنهم هم الناس الكاملون في الإنسانية، فالذين آمنوا هم جنس الناس، ومعدن الإنسانية، ومن عداهم ليسوا منها في شيء(٣).

٢- لام العهد الذهني: وهي أن يأتي المعرف بلام الحقيقة أو الجنس مراداً به فرد مبهم من أفراد الحقيقة باعتبار عهديته في الذهن لاشتمال الحقيقة عليه، كقولك لمخاطبك: «ادخل السوق» وليس بينك وبينه سوق معهودة في الخارج.. وعليه قول الشاعر:

ولقد أمر على اللئيم يسبني فأعف ثم أقول لا يعنيني

---

(١) سورة الفتح: ١٨.

(٢) سورة البقرة: ١٣.

(٣) الكشاف جـ١ ص ١٨٢

فالمراد باللئيم فرد غير معين من أفراد الحقيقة، وليس المراد به الحقيقة لاستحالة المرور على ما لا وجود له، ولا فرداً معيناً من أفرادها، إذ لا عهد به في الخارج، ومثله قول الآخر:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وقوله عز وجل: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾[1] فلفظ «الذئب» في الآية المراد به فرد من أفراد حقيقة الذئاب، كما أن لفظي «الكريم» و «اللئيم» في البيت المراد بالأول فرد من أفراد حقيفة الكرام، وبالثاني فرد من أفراد حقيقة اللئام.

٣- لام الاستغراق: وهي التي يراد بمدخولها جميع الأفراد المندرجة تحت الحقيقة عند قيام القرينة الدالة على ذلك، وقد سميت لام الاستغراق لاستيعابها جميع الأفراد، والاستغراق إما حقيقي، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[2]، فاللام في «الإنسان» للاستغراق الحقيقي لجميع أفراد جنسه، ولذا استثنى الذين آمنوا فهم ليسوا في خسران. ومنه قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾[3]، أي: كل غيب وكل شهادة، «فأل» فيهما للاستغراق الحقيقي، إذ أريد بمدخوليها جميع الأفراد التي يتناولها اللفظ بحسب الوضع.

وإما عرفي كقولك: امتثل الطلاب رأى المعلم، «فأل» في الطلاب أريد بها الاستغراق العرفي، لأن مدخولها أريد به جميع الأفراد التي يتناولها بحسب العرف وما جرت به العادة، لا جميع الأفراد حقيقة، ومثله قولك: جمع الأمير الصاغة، فالمراد: جمع صاغة بلده أو أطراف مملكته فحسب لا صاغة الدنيا، فأل في «الصاغة» للاستغراق العرفي.

التعريف بالإضافة:

ويعرف المسند إليه بالإضافة لإفادة أغراض بلاغية والدلالة على أسرار ومزايا عديدة أهمها ما يلي:

(١) سورة يوسف: ١٣.
(٢) سورة العصر: ٢.
(٣) سورة الأنعام: ٧٣.

١ - إرادة الإيجاز كقولك : كتابى مفيد، إذ الإضافة فيه هى أخصر طريق لإحضار المسند إليه «كتابي» فى ذهن السامع فما من ريب فى أن هذا أخصر من قولك : الكتاب الذى أملكه مثلاً . . وانظر إلى قول جعفر الحارثى وكان مسجوناً بمكة فزارته فتاته مع ركب قومها فلما رحلت عنه قال واصفاً ألمه وأحزانه :

هواى مع الركب اليمانين مصعد   جنيب وجثمانى بمكة موثق[1]

تجد أن الإضافة فى قوله : «هواي» هى أخصر طريق لإحضار المسند إليه فى ذهن المخاطب، وقد اقتضى المقام هذا الإيجاز، لأن الشاعر حزين متألم ضائق الصدر لسجنه وفراق أحبته ومثل هذا المقام يلائمه الإيجاز وطى الكلمات واختصار القول .

٢ - أن يكون التعريف بالإضافة مغنياً عن تفصيل يتعذر أو عن تفصيل تركه أرجح لاعتبار ما، فمن الأول قولك : أهل مصر كرام، إذ يتعذر عليك ذكرهم والإحاطة بهم . . ومثله قول الشاعر :

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم   أسود لها فى غِيلِ خفَّانَ أشْبُلُ[2]

إذ يتعذر عليه الإحاطة ببنى مطر واستقصاء أسمائهم، ومن الثانى قول الحارث بن وعلة الجرمى - وقد مر بك :

قومى هم قتلوا أميم أخى   فإذا رميت يصيبنى سهمي

فالإضافة فى قوله : «قومي» أغنت عن تفصيل تركه أرجح ؛ لأنه لو فصل فذكر القتلة بأسمائهم لأوغر صدورهم عليه، ولا يخفى عليك ما وراء الإضافة والاختصاص «هم قتلوا» وترخيم المنادى : «أميم» من حزن وألم ومن إبراز لجريمة قومه وتصوير لبشاعتها[3] .

---

(١) هواي : المراد الذي أهوى فهو من إطلاق المصدر على اسم المفعول مجازاً مرسلاً، واليمانين : جمع يمان وألفه عوض عن ياء النسب والمصعد : اسم فاعل من أصعد بمعنى أبعد في السير ، والجنيب : المستتبع من جنب البعير إذا قاده إلى جنبه، وموثق : مقعد محبوس .

(٢) بنو مطر : قوم الشاعر أو قوم الممدوح . والغيل : الشَّجر الملتف . وخفان : مأسدة قرب الكوفة ، والأشبل : أولاد الأسود مفرده شبل .

(٣) ارجع إلى ما قلناه في هذا البيت عند حديثنا عن حذف المسند إليه .

٣- أن تكون الإضافة متضمنة تعظيم المضاف كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾[١]، وقوله عز وجل: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾[٢] وقوله جل وعلا: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾[٣]، فالإضافة إلى الله تعالى تشريف ما بعده تشريف وتعظيم ما بعده تعظيم، ولذا حق للشاعر أن يقول مفتخراً بعبوديته لله الخالق تبارك وتعالى:

وممـــا زادنـي شرفـــاً وتيهـــا ... وكـدت بأخمصـي أطأ الثريـا

دخولي تحـت قولك: «ياعباد» ... وأن جعلـت أحمـد لـي نبيـاً

أو تعظيم المضاف إليه كقولك: خادمي جاء.. أموالي لا تعد، تفتخر بأنك عظيم لك خادم ولديك أموال، فالإضافة تضمنت تعظيم المضاف إليه أي: «المتكلم».

٤- أن يقصد بالإضافة تحقير شأن المضاف أو المضاف إليه كقولك: أعداء الإسلام يتربصون به - أموال السارق لم تنفعه، فلا يخفى عليك تحقير المضاف في الأول والمضاف إليه في الثاني.. وقد اجتمع التحقير والتعظيم في قول الشاعر:

أبوك حُبَابٌ سارقُ الضيف بُرْدَه ... وجَـدِّي ياحَجَـاجُ فارسُ شُمَّـــرا

فالإضافة في «سارق الضيف» أفادت تحقير أبي المخاطب «حباب» وفي «فارس شمرا» أفادت تعظيم جد الشاعر.

٥- وقد يقصد بالإضافة إفادة معنى لطيف كما في قول الشاعر:

إذا كوكب الخرقاء لاح بسحـرة ... سهيل أذاعت غزلها في الأقارب[٤]

فقد جعل للخرقاء كوكباً وأضافه إليها لأدنى مناسبة وهي أنها لا تتذكر كسوة الشتاء إلا وقت طلوعه سحراً، وهو لا يطلع سحراً إلا في الشتاء، وتكمن وراء تلك الإضافة

(١) سورة الجن: ١٩.

(٢) سورة مريم: ٣٠.

(٣) سورة الفرقان: ٦٣.

(٤) الخرقاء: يريد: المرأة الخرقاء أي المهملة الكسول. وسهيل بدل من الكوكب، وأذاعت غزلها في الأقارب: فرقته عليهم ليعاونوها ويسعفوها.

معان دقيقة كالمداعبة والمزاح، والسخرية من تلك المرأة الخرقاء الكسول، وإثارتها وحثها على العمل وترك الإهمال.

٦- وقد يقصد بالإضافة الاستعطاف والحث على الشفقة، كما في قوله تعالى: ﴿لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾[١]، فقد أضيف الولد إليها وإلى الأب: «بولدها.. بولده» استعطافاً لهما وحثا على الإشفاق عليه، والكف عن مضرته، أو عن المضارة بينهما بأن يضر كل منهما الآخر بسببه. لأن تلك المضرة ترجع في الأخير إلى ولدهما.. يقول الزمخشري: «فإن قلت: كيف قيل بولدها وبولده؟ قلت: لما نهيت المرأة عن المضارة أضيف إليها الولد استعطافاً لها عليه، وأنه ليس بأجنبي منها فمن حقها أن تشفق عليه، وكذلك الوالد»[٢].

تنكير المسند إليه:

يأتي المسند إليه نكرة لإفادة أنه فرد غير معين من أفراد جنسه، أو لإفادة النوعية، فإذا قلت: جاءني رجل، صلح هذا القول لإرادة الإفراد، أي: جاءني رجل لا رجلان، وصلح لإرادة النوعية أي: جاءني رجل لا امرأة، وهذه الإفادة إفادة أصلية للنكرة، وقد تتمحض النكرة للدلالة على العدد، وذلك إذا وصفت به كقولك: جاءني رجل واحد، ورجلان اثنان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾[٣]. وقد تتمحض لإفادة النوعية أي الجنس، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[٤] فقد محض الوصف في الأرض.. ويطير بجناحيه» النكرتين: «دابة وطائر»، لإفادة الجنس.. هذا وقد يقصد بتنكير المسند إليه وجوه بلاغية كثيرة أهمها:

١- القصد إلى أن المسند إليه فرد غير معين من أفراد حقيقته حيث لا يتعلق بتعريفه غرض، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾[٥]، وقوله جل وعلا:

(١) سورة البقرة: ٢٣٣.
(٢) الكشاف جـ١ ص ٣٧١.
(٣) سورة النحل: ٥١.
(٤) سورة الأنعام: ٣٨.
(٥) سورة القصص: ٢٠.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾[1]، فقد نكر المسند إليه في الآيتين: «رجل» لأن القصد إلى إفادة أنه فرد غير معين من أفراد جنسه، إذ لا حاجة إلى تعريفه ولا غرض من تعيينه، فالمراد أن يصل إلى موسى نبأ الائتمار لقتله، وأن يعلم المخاطب أن قولا قد قيل وأن تنبيهاً إلى ما في قتل موسى من خطأ، قد وقع، ولا يخفى عليك ما وراء التنكير من تعظيم المسند إليه وإعلاء شأنه، فقول كلمة الحق في مثل هذه المجتمعات الفاسدة لا يصدر إلا من رجل عظيم الشأن جليل القدر، كما لا يخفى عليك ما أفاده تنكير المفعول في قوله تعالى: «أتقتلون رجلاً» من تعظيم لموسى عليه السلام.

٢- القصد إلى تعظيم المسند إليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2]، فقد نكرت الحياة التي يحققها القصاص للإشارة إلى أنها حياة عظيمة.. وقوله عز وجل: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[3] أفاد تنكير اليسر وتكراره الدلالة على تفخيمه وتعظيمه. يقول الزمخشري: «فإن قلت: فما معنى هذا التنكير.. قلت: التفخيم، كأنه قيل إن مع العسر يسرا عظيماً، وأي يسر»[4] ومن ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة» أي سحراً عظيماً وحكمة رائعة.. ومنه من غير باب المسند إليه قول المتنبي:

أهم بشيء والليالي كأنها ... تطاردني عن كونه وأطارد

فقد نكر «بشيء» ليشير إلى أن ما يهم به شيء عظيم تطارده الليالي عن إدراكه، ويطاردها، فهو يهم بعظائم الأمور ويطارد الليالي من أجل نيل جلائل الأشياء.

٣- القصد إلى تحقيره، كقولك: لك عدو لا يعتد به، أي: عدو حقير الشأن، لا يقام له وزن، ولا يلقى له بال، وكقول إبراهيم بن العباس وكان والياً على الأهواز من قبل الواثق بالله ثم عزل في وزارة محمد بن عبد الملك الزيات فقال مخبراً بنبو الدهر عنه وتخلي الصاحب وتسلط الأعداء وغياب النصير:

---

(١) سورة غافر: ٢٨.

(٢) سورة البقرة: ١٧٩.

(٣) سورة الانشراح: ٥، ٦.

(٤) الكشاف جـ ٤، ص ٢٦٧.

فلو إذ نبا دهر وأنكر صاحب ... وسلط أعداء وغاب نصير

تكون عن الأهواز دارى بنجوة ... ولكن مقادير جرت وأمور

فقد نكر الدهر ليشير إلى أنه دهر منكر ومجهول، وليس هو الدهر الذى كان يعهده أيام ولايته على الأهواز، ولذا تمنى أن تكون داره بعيدة عنها عندما تغير وتبدل الدهر، وقلب له ظهر المجن.. كما نكر «صاحب» ليشير إلى حقارته ولؤمه، ثم تأمل بناء الفعل للمجهول وأنه لم يقل «وأنكرت صاحباً» حتى لا يسند إنكار الصاحب إلى نفسه صريحاً فى اللفظ، ولو كان صاحباً لئيماً حقيراً، وتأمل تنكير الأعداء وبناء الفعل للمجهول: «سلط أعداء» للإشارة إلى حقارتهم وضعة شأنهم، وأنهم أداة فى أيدى الغير وليسوا من مشاهير الرجال.. أما تنكير «نصير» فى قوله: «وغلب نصير» فللإشارة إلى تعظيمه وفخامته، وأنه لولا غيابه لما حدث للشاعر ما حدث، ومما اجتمع فيه التعظيم والتحقير قول الشاعر.

فتى لا يبالى المدلجون بنوره ... إلى بابه ألا تضىء الكواكب

له حاجب عن كل أمر يشينه ... وليس له عن طال العرف حاجب

فقد أفاد تنكير «حاجب» الأول: التعظيم والتفخيم، فهو حاجب أى جاجب، ذلك الذى يحول بينه وبين فعل ما يشين، إنه حاجب قوى هائل، وأفاد تنكير «حاجب» الثانى التحقير والتقليل، فليس له حاجب ما، يحول بينه وبين طالبى معروفه، ومثله قول الأخر:

ولله منى جانب لا أضيعه ... وللهو منى والخلاعة جانب

فتنكير «جانب» الأول للتعظيم والثانى للتحقير والتقليل.

أما قوله تعالى: ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾[1] فقد قالوا: إن تنكير «عذاب» يفيد أنه عذاب هائل عظيم لا يكتنه ولا يحيط به الوصف، ولا تتعارض هذه الإفادة مع ذكر «المس»، لأنه ذكر مع العذاب العظيم: ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[2]، كما لا تتعارض مع ذكر الرحمن،

(١) سورة مريم: ٤٥.

(٢) سورة النور: ١٤.

لأن عذاب الرحمن يكون أشد وأعظم، وغضبه يكون أقوى وأعتى، ولذا قال الحبيب صلى الله عليه وسلم: «أعوذ بالله من غضب الحليم» وقيل: «اتق شر الحليم إذا غضب» ورأى الزمخشرى أن تنكير «عذاب» فى الآية، يفيد التقليل؛ لأن الكلام لم يخل من حسن الأدب مع أبيه إذا لم يصرح بأن العذاب لاحق به ولاصق، بل قال: «أخاف» وذكر أنه مس والمس أقل تمكناً من الإصابة، ثم نكر العذاب وذكر «الرحمن» ولذا يكون تنكير العذاب - فى رأيه - للتقليل وليس للتعظيم والتهويل كما ذكر البلاغيون[1].

٤- القصد إلى تكثيره، كما فى قولهم: «إن له لإبلا وإن له لغنماً» يريدون بذلك الكثرة، أى: إبلاً كثيرة وغنماً عديدة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾[2] أفاد تنكير المسند إليه أنهم يريدون أجراً كثيراً ومكافأة كبيرة إن تحققت لهم الغلبة على موسى - عليه السلام- وقد أجابهم فرعون بأن لهم ما طلبوا وزيادة: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[3].

ومن ذلك حسان فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم:

لــه همــم لا منتهــى لكبارهــا   وهمته الصغرى أجــل من الدهــر

أفاد تنكير «همم» التكثير والتعظيم، أى: همم كثيرة عظيمة، ولذا قال: «لا منتهى لكبارها» . . «أجل من الدهر» فدل الأول على الكثرة ودل الثانى على التعظيم والتفخيم. . ومنه قول الآخر:

وفى السماء نجوم لا عداد لها   وليس يكسف إلا الشمس والقمر

أراد: نجومًا كثيرة ومما أفاد التكثير والتعظيم معاً قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾[4]، فالمقام مقام تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وقد أفاد تنكير «رسل» الإشارة إلى أنهم رسل عظام كثيرو العدد.

٥- القصد إلى إفادة التقليل، كما فى قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٥١١ .
(٢) سورة الأعراف : ١١٣ .
(٣) سورة الأعراف : ١١٤ .
(٤) سورة فاطر : ٤ .

﴿أَكْبَرُ﴾[1]، أفاد تنكير «رضوان» الإشارة إلى أن القليل من رضوان الله أكبر من كل نعيم، فالمعنى: وشيء ما من رضوان الله أكبر من ذلك كله، لأن رضاه سبب كل سعادة وفلاح، فالعبد إذا علم أن مولاه راض عنه فهو أكبر فى نفسه مما وراءه من النعيم، ولذا كان القصد من تنكير المسند إليه «رضوان» إفادة التقليل، أي: أقل قدر من رضاء الله خير من كل نعيم، ولا يخفى عليك ما وراء ذلك من تعظيم رضوان الله تعالى.. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾[2]، فقد أفاد تنكير المسند إليه: «سلام» التقليل، لأنه من قبل الله تعالى: والقليل منه كثير ومغن عن كل تحية، ولذا جاء معرفاً فى قصة عيسى عليه السلام : ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[3]، لأنه ليس وارداً من جهة الله بل هو من قول عيسى - عليه السلام - ولهذا الغرض، تجد أن السلام لم يرد من جهة الله تعالى فى النظم الكريم إلا منكراً، ارجع إلى الآيات الكريمة: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ ﴿اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا﴾ ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾.

ومما أفاد تنكيره التقليل أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾[4]، فقد أفاد التنكير وبناء المرة فى «نفحة» التقليل؛ أي: نفحة قليلة ضئيلة، ولا يخفى عليك ما فى هذا اللفظ من التهكم والسخرية؛ لأن النفح يستعمل فى الخير كنفح الطيب ونفح الهواء العليل، وقد استعملت هنا فى الشر على حد قوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾[5]، وقوله جل وعلا: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[6].

٦- القصد إلى إفادة أن المسند إليه من نوع خاص متميز عما يعرفه المخاطب ويألفه ويعهده، من ذلك قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾[7] فقد أفاد تنكير «غشاوة» الإشارة إلى أنها نوع خاص من الغشاوة متميز عن

(١) سورة التوبة: ٧٢.
(٢) سورة مريم: ١٥.
(٣) سورة مريم: ٣٣.
(٤) سورة الأنبياء: ٤٦.
(٥) سورة الدخان: ٤٩.
(٦) سورة آل عمران: ٢١.
(٧) سورة البقرة: ٧.

سائر الغشاوات، لا يعرفه الناس، ولا يعهدونه فهو يغطي ما لا يغطيه شيء من الغشاوات المعهودة، ولا يخفى عليك ما يفيده التنكير بالإضافة إلى ذلك من تعظيم وتهويل.

ومنه في غير باب المسند إليه قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾[1] أي: على نوع من أنواع الحياة يكون زائداً، ومميزاً عن حياة الناس، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾[2]، فالتنكير فيها يحتمل النوعية بمعنى خلق كل نوع من أنواع الدواب من نوع من أنواع الماء، ويحتمل الإفراد، أي خلق كل فرد من أفراد الدواب من فرد من أفراد النطف. ومما أفاد تنكير المسند إليه فيه النوعية قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[3] أي: حياة متميزة خاصة، فاقت كل حياة وأربت عليها، وقد مر بك ما أفاده التنكير في هذه الآية أيضاً من تعظيم وتفخيم لشأن تلك الحياة الخاصة.. ومن ذلك قول عبد الله بن المعتز:

وإني على إشفاق عيني من العدا ... لتجمح مني نظرة ثم أطرق

فقد أشار بتنكير النظرة إلى أنها نظرة من نوع خاص، نظرة ظامئة شرود، ولذا وصفها بالجموح وأخبر أنه لا يستطيع أن يردها ويسيطر عليها إلا بعد زمن طويل ممتد «ثم أطرق» وذلك على الرغم من وجود الرقباء وإشفاقه منهم، وهذا يوضح أنها نظرة متميزة تختلف عن النظرات المعهودة لدى البشر.

ومنه قول الآخر:

لكل داء دواء يستطب به ... إلا الحماقة أعيت من يداويها

أفاد تنكير الداء والدواء النوعية وأن لكل نوع من الداءات نوعاً خاصاً من الأدوية، يصلح لعلاجه، فمتى اهتدى إلى ذلك النوع الخاص من الدواء وعولج به الداء شفي وعوفي صاحبه إلا داء واحد وهو الحماقة فإنها داء أعيا الأطباء فلم يجدوا لها دواء.

٧- وقد يقصد بتنكير المسند إليه: كراهة أن ينسب الفعل إليه معرفاً، ويكون ذلك في مقامات المدح والفخر التي تقتضي المبالغة في الصفات..

---

(١) سورة البقرة: ٩٦.

(٢) سورة النور: ٤٥.

(٣) سورة البقرة: ١٧٩.

انظر إلى قول الشاعر :

إذا سئمــــت مهنــــده يميــــن		لطــول الحمــل بدلــه شمــــالا

فالمراد «بيمين» : يمين الممدوح، ولكن الشاعر نكرها فلم يقل : «إذا سئمت مهنده يمينه» احترازاً من نسبة السآمة فى اللفظ إلى يمين الممدوح ؛ لأن فى ذلك الإسناد جفوة ينبو عنها حس الشعر حيث يقلل من شأن المبالغة فى صفة الشجاعة التى يقتضيها مقام المدح، ويؤخذ على الشاعر استخدامه إذا، التى تفيد تحقق وقوع الشرط، ولو عبر «بإن» دون «إذا» لكان أبلغ فى هذا المقام حيث تفيد «إن» ندرة وقوع الشرط كما سيأتي .

❒❒❒

توابع المسند إليه:

وقد يتبع المسند إليه بتابع كالوصف والبدأ والتوكيد والعطف وذلك لغرض يقصد إليه البلاغي، وشأن المسند إليه فى هذا شأن غيره من أجزاء الجملة، كما لا يخفى عليك أن الأحوال التى ذكرناها للمسند إليه تجرى أيضاً على غيره من أجزاء الكلام وإليك بيان هذه التوابع .

١- الو صف:

يوصف المسند إليه أو المسند أو أحد متعلقات الفعل لدواع بلاغية كثيرة . منها أن يكون الوصف مفسراً وكاشفاً عن معنى الموصوف كما فى قول أوس بن حجر يرثى نضالة بن كلدة :

أيتهــا النفــس أجملــى جزعــا		إن الــذى تحذريــن قــد وقعــا
إن الذى جمع الشجاعــة والنجـ		ـدة والبــــر والتقــى جمــعا
الألمعى الذى يظــن بك الظــن		كــأن قـــد رأى وقــد سمعــا
أودى فلا تنفــع الإشاحـــة مـــن		أمــر لمــرء يحـــاول البدعــــا

فقوله: «الألمعي» صفة كاشفة وموضحة للمسند إليه «الذى جمع الشجاعة والنجدة والبر والتقى» ولذا حكى أن الأصمعى سئل عن الألمعى فأنشد تلك الأبيات ولم يزد. .

واقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[1] فقوله «هلوعا» حال من نائب الفاعل فهو وصف كاشف ومفسر وموضح لحقيقة الإنسان، يقول الزمخشري: «الهلع سرعة الجذع عند مس المكروه، وسرعة المنع عند مس الخير، من قولهم «ناقة هلوع» : سريعة السير وعن أحمد بن يحيى[2] قال لى محمد بن عبد الله بن طاهر: ما الهلع؟ قلت: قد فسره الله تعالى. . .[3].

ومنها أن يكون الوصف مخصصاً للموصوف، ومعنى تخصصيه له: تحديده ورفع احتمال غيره فى المعارف، وتقليل الاشتراك فى النكرات كقولك: زيد التاجر حضر ومحمد العالم ذهب. . ورجل فقير عندى وامرأة مؤمنة تزوجت . . ومنها أن يكون الوصف مشعراً بمدح كما فى قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وقوله عز وجل ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾[4]، وقوله عز وعلا: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[5] أو بذم كما فى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[6] أو بتأكيد لإظهار الفرح والسرور أو التأسف ونحو ذلك كقولك: أمس الدابر كان يومًا عظيماً . . ومنها أن يكون الوصف بياناً للموصوف ومحدداً للمراد منه كما فى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾[7]، وذلك أن الاسم النكرة الحامل لمعنى الإفراد والثنية دال على شيئين: الجنسية والعدد المخصوص فإذا أريدت الدلالة على أن المعنى به منهما والذى سيق له الحديث هو العدد شفع بما يؤكده فدل به على القصد إليه، والعناية به، ألا ترى أنك لو قلت: إنما هو إله ولم تؤكده بواحد لم يحسن وخيل أنك تثبت الألوهية لا الوحدانية،

---

(١) المعارج ١٩ - ٢١ .

(٢) أحمد بن يحيى هو أبو العباس ثعلب من أئمة اللغة والنحو .

(٣) الكشاف ٤ / ١٥٨ وانظر الإيضاح ١ / ١٠٨ .

(٤) سورة الحشر : ٢٤ .

(٥) سورة التوبة : ١٢٨

(٦) سورة النحل : ٩٨ .

(٧) سورة النحل : ٥١ .

وكذا إذا أريدت الدلالة على أن المعنى به منهما الجنسية شفع بالصفة التي تبين ذلك . كما فى قوله تعالى : ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[1] فقد شفع لفظ «دابة» «بفى الأرض» ولفظ طائر «بيطير بجناحيه» لبيان أن القصد بهما إلى الجنسية لا إلى العدد، وفى ذلك زيادة لمعنى التعميم والإحاطة ، كأنه قيل : وما من دابة قط فى جميع الأرضين السبع ولا طائر قط فى جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم . .
ومنها إفادة الترحم وطلب المغفرة كما فى قول الشاعر :

إلهى عبـــدك العاصـــى أتـــاك مقـــراً بالذنـــوب وقد دعـــاك

فقد وصف العبد التائب المقر بالذنوب «بالعاصي» استعطافاً وطلباً للمغفرة والرحمة . .

هذا وعندما تقع الجملة صفة للنكرة يشترط فيها أن تكون خبرية ، لأنها فى المعنى حكم على صاحبها كالخبر ، فلا يستقيم أن تكون إنشائية ، أما قول عبد الله بن رؤبة التميمي :

حتى إذا جـــن الظـلام واختلـط جاء بمـذق هل رأيت الذئب قط[2]

فمعناه : جاءوا بمذق يقال عند رؤيته : هل رأيت الذئب قط؟ فالجملة الاستفهامية ليست صفة وإنما هى مقول للصفة المحذوفة كما هو واضح .

٢- التوكيد:

يؤكد المسند إليه وكذا المسند أو أحد المتعلقات ليتحقق بهذا التأكيد أغراض بلاغية يقصد إليها المتكلم . . منها إبراز المؤكد وزيادة تقرير المعنى فى ذهن السامع كقولك : هو يعطى الجزيل هو يدفع الشدائد ، فتقديم المسند إليه على خبره الفعلى فى المثالين قد أفاد تأكيد المعنى وتقريره وإبراز المسند إليه لوقوعه فى ابتداء الكلام فانشغل الذهن به وتطلع إلى خبره ، وأيضاً لتكرار الإسناد ؛ لأن الفعل أسند إلى الضمير المذكور مرتين ، مرة باعتباره

---

(١) سورة الأنعام : ٣٨ .

(٢) جن الظلام أقبل أوله ، واختلاطه : إنما يكون بعد ذهاب نور النهار كله . والمذق : اللبن المخلوط بالماء فهو مصدر بمعنى اسم المفعول . . والشاعر يصف قومًا أضافوه فأطالوا عليه ثم أتوه بهذا المذق .

مبتدأ وأخرى باعتباره فاعلا[1] . . ومنها دفع توهم التجوز، كقولك : قطع الأمير نفسُه السارق، فلو لـم تقل : «نفسه» لجاز أن يتوهم أن القاطع غيره بأمره على ما جرت به العادة فى ذلك . . ومنها دفع توهم السهو كقولك : نجحت أنا، وأقبل زيد زيد، وجاءنى محمد محمد، وقلت أنت هذا القول، فهذا التأكيد يدفع توهم السامع أن المتكلم سها فى إثبات الحكم لغير ما هو له . . ومنها دفع توهم عدم الشمول كقولك : عرفنى الرجلان كلاهما، وجاءنى القوم كلهم، فإنك لو قلت : عرفنى الرجلان، جاءنى القوم، بلا تأكيد، لتوهمْ أن أحد الرجلين هو الذى عرفك وأن بعض القوم قد جاء والبعض لم يأت، ولكنك لم تعتد بمن لم يعرفك ولا بمن لم يأت فأطلقت الكل وأردت البعض على سبيل المجاز . . فدفعاً لهذا التوهم جاء التوكيد لإفادة الشمول والعموم، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسه﴾[2]، وقوله عز وجل : ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾[3]، وقوله جل وعلا : ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ۝٤١ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[4]، وقوله تبارك وتعالى : ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾[5] ولا يخفى عليك ما فى الآية الأولى من إشارة إلى عظم النعمة، حيث أحل لهم كل طعام، كما لا يخفى عليك ما فى الآيات الأخرى من إشارة إلى فظاعة تكذيب فرعون وقومه فقد كذبوا بالآيات كلها، وإلى فظاعة استكبار إبليس اللعين، حيث سجد الملائكة كلهم أجمعون إلا هو أبى واستكبر وكان من الكافرين . .

هذا ولفظ «كل» تارة يقع تأكيداً وذلك عندما يستخدم مع المعارف كما فى الشواهد المذكورة، ومعنى وقوعها تأكيداً أن الشمول مفاد بدونها فهى تأتى لتوكيده ودفع توهم غيره – كما رأيت – وتارة تقع تأسيساً وذلك عن إضافتها إلى النكرات كما فى قوله تعالى : ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[6]، وقوله عز

(١) ارجع إلى تقديم المسند إليه ص ١٣٢ وما بعدها .

(٢) سورة آل عمران : ٩٣ .

(٣) سورة طه : ٥٦ .

(٤) سورة القمر : ٤١ ، ٤٢ .

(٥) سورة الحجر : ٣٠ ، ٣١ .

(٦) سورة المؤمنون : ٥٣ .

وجل: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾[1]، وقوله جلا وعلا: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾[2]، ومعنى وقوعها تأسيساً أنها هي التي تفيد الشمول وتؤسسه، فهو لا يفاد أصلاً إلا بها، وهذا واضح في الآيات الكريمة، إذ بدون «كل» لا تجد فيها شمولاً.

٣- عطف البيان:

ويقصد البلاغي إلى عطف البيان لأغراض بلاغية أهمها: إيضاح المعطوف عليه اسم مختص به كقولك: قدم صديقك خالد، فخالد عطف بيان للصديق وقد وضحه وبينه، لأن المخاطب له أصدقاء كثيرون، فعندما تقول له: جاء صديقك، لا يدرى أيهم، وعندما تقول: خالد. فقد وضحت وبينت، إذ حصرت المجيء في خالد دون غيره من الأصدقاء.

وقد يكون عطف البيان غير مختص بمتبوعه ولكن يحصل الإيضاح والاختصاص بمجموعهما، كما في قول الشاعر:

والمؤمنِ العائذات الطيرِ يمسحها ... ركبانُ مكة بين الغَيْل والسَّنَد

ما إن أتيت بشيء أنت تكرهه ... إذن فلا رفعت سوطًا إليَّ يَدِى [3]

والمعنى: والله الذى آمن الطير الملتجئة للحرم والساكنة به للأمن من الاصطياد والأخذ، وقد حصل لها ذلك؛ إذ لا يجوز لأحد أخذها، بل الركبان القاصدون مكة المارون بين الغيل والسند تمسحها ولا تتعرض لها.. فالطير عطف بيان للعائذات وهو غير مختص بها، لأن العائذات صادق على الطير وعلى غيره مما يعوذ بالحرم ويؤمنه الله

(١) سورة الإسراء: ١٢.

(٢) سورة الأنبياء: ٩٦.

(٣) والمؤمن: الواو لقسم والمراد بالمؤمن: الله جل جلاله. والعائذات: جمع عائذة من العوذ وهو الالتجاء وتعرب مفعولاً به للمؤمن أو مضافاً إليه، والطير: عطف بيان على العائذات.. والغيل: فتح الغين وسكون الياء، السند بفتح السين والنون: موضعان في جانب الحرم فيهما الماء.. وجواب القسم قوله: «ما إن أتيت بشيء» وإن فيه: زائدة للتأكيد.

سبحانه وتعالى فيه . . وعند التأمل نجد أن عطف البيان فى المثال الأول غير مختص أيضاً بمتبوعه، لأن الصداقة تطلق على خالد وعلى غيره . . ولذا فالمهم أن يكون عطف البيان أخص من متبوعه حتى يتحدد ويتضح ذلك المتبوع فى ذهن السامع عندما ينصرف إلى تابعه . . ومنها مدح المتبوع والدلالة على عظم شأنه كما فى قوله تعالى : ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾[1] فالبيت الحرام عطف بيان للكعبة قصد به المدح والدلالة على عظم شأنها لا الإيضاح؛ لأن الكعبة أظهر من نار على علم، فليست فى حاجة إلى إيضاح وبيان، وكان البيت الحرام مدحًا وتعظيمًا؛ لأن فيه دلالة على أن هذا البيت موصوف بالحرمة والاحترام والمنع من كل امتهان وانتهاك . . ومنها ذم المتبوع بالدلالة على حقارته، كما فى قوله تعالى : ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾[2]، فالصديد بيان للماء قصد به الذم والدلالة على حقارته وامتهانه وقبحه . . وذلك حتى ينزجر ذلك الجبار عن عناده .

٤- البدل:

ويقع الإبدال من المسند إليه أو المسند أو أحد المتعلقات لأغراض بلاغية يقصد إليها المتكلم ويقتضيها المقام، أهمها : زيادة التقرير والإيضاح كقولك : جاء زيد أخوك، فأخوك بدل من زيد وقد دل على تقريره وإبرازه؛ لأن مفهومه هو مفهوم زيد . . ومنه قوله تعالى : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[3] فصراط الذين أنعمت عليهم، بدل من الصراط المستقيم وفيه بيان وإيضاح وزيادة تقرير لكون الصراط المستقيم هو صراط المنعم عليهم بالإيمان والرضوان . . ومنها التفصيل بعد الإجمال والإيضاح بعد الإبهام، كما فى قوله تعالى : ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾[4] فقوله : «يلق أثامًا» فيه إجمال للعقاب وقوله بعده : «يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا» بدل من القول الأول وفيه تفصيل وإيضاح لما أجمل

(١) سورة المائدة : ٩٧ .

(٢) سورة إبراهيم : ١٥-١٧ .

(٣) سورة الفاتحة : ٦، ٧ .

(٤) سورة الفرقان : ٦٨، ٦٩ .

فيـه، ولا يخفى عليك ما للبيـان والتفـصيل بعد الإجـمال من وقع فى النفس، لأنه عند الإجمال تتطلع النفس وتستشرف إلى التفصيل، فعندما يأتى التفصيل يكون له وقعه وأثره، حيث أتى والنفس إليه متطلعة وله مترقبة .

ومنه قول الشاعر :

وكنت كذى رجلين : رجل صحيحة ورجل رمـى فيهـا الزمـان فشلت

ففـى قـوله : «ذى رجلين» إبهـام وإجـمـال أزاله ووضـحـه البـدل فى قـولـه : «رجل صحيحة ورجل رمى فيها الزمان فشلت . . » .

ومثله قول الآخر :

بلغنا السمـاء مجدنـا وسناؤنـا وإنا لنرجـو فـوق ذلك مظهـراً

ففى قوله : «بلغنا» إجمال وقد جاء البدل : «مجدنا وسناؤنا» مفصلاً وموضحاً لهذا الإجـمال . . ولا يخـفى عليك أن البـدل فى البيت الأخـير ، بدل اشـتـمـال وفى الشـواهد السابقة بدل مطابق .

ومن بدل الاشـتـمـال أيضـاً قـولك : سلب عـمرو ثوبه . . وأعـجبنى المعلم علمه . . والغرض البلاغى من البدل فى المثالين هو الإيضاح والتفصيل بعد الإبهام والإجمال، لأن قولك : سلب عمرو، وأعجبنى المعلم . . فيه إبهام وإجمال يظل معه المخاطب متعلقاً إلى إيضاحه ومستشرفاً إلى تفصيله وعندئذ يأتى البدل : «ثوبه وعلمه»، موضحاً ومبيناً فيقع المعنى فى النفس موقعاً حسناً ويثبت فيها ويرسخ . . ومن بدل البعض قولك : جاءنى القوم أكثرهم، وفيـه كـمـا ترى، زيادة إيضـاح وتقـرير، وبيـان لما فى المسند إليـه «القـوم» من إجمال . . ومن الأغراض البلاغية للبدل، القصد إلى المبالغة والتفنن فى بناء العبارات، ويكثر هذا فى بدل الغلط كما فى قول البحتري :

ألمع برق سرى أم ضوء مصبـاح أم ابتسامتهـا بالمنظـر الضاحـي

حيث أراد المبـالغة فى وصف الابتسامة ومدى وقعـها عليه فـتفنن فى العبـارة كـما ترى . . وقوله أيضاً فى وصف الإبل الأنضاء :

كالقسى المعطفـات بـل الأسـ ـهم مبريـة بـل الأوتـار

فقد قصد إلى المبالغة فى وصف الإبل المهازيل فتفنن فى التشبيه مترقياً عن طريق الإضراب من الدقيق إلى الأدق.

وبهذا يتضح لك أن نظرة البلاغى للتوابع تختلف عن نظرة النحوى فالبلاغى ينظر إلى ما وراءها من دقائق وأغراض ومزايا جمالية، أما النحوى فينظر إلى أحكامها وكيفية استعمالها فى الكلام، ولذا تجد النحوى مثلاً يسوى بين البدل المطابق وعطف البيان فيجعلهما شيئاً واحداً، وليس الأمر كذلك عند البلاغي، بل هما مختلفان ولكل منهما مقامات خاصة به ومقاصد يقصد إليها على نحو ما رأيت فى الشواهد.

٥- عطف النسق:

يستخدم البلاغى عطف النسق ليحقق أغراضاً بلاغية ومقاصد يقصد إليها، وهذه الأغراض تراها كامنة وراء حروف العطف وهى: الواو وثم والفاء ولا وبل ولكن وحتى وأو، وما بين تلك الحروف من فروق دقيقة، فالواو لمطلق الجمع، والفاء للترتيب مع التعقيب و «ثم» للترتيب مع التراخى وبل للإضراب وصرف الحكم عن محكوم له إلى آخر، و «لا» للعطف ونفى الحكم عما بعدها و «لكن» عكس لا، وحتى للتدرج إلى الأعلى أو إلى الأدنى، وأو: للتخيير أو للإباحة أو للشك أو للتشكيك.. والبلاغى يستغل تلك المعانى - كما قلت - ليحقق أغراضاً يهدف إليها، تقول مثلاً: جاءنى زيد وعمرو وخالد، فتفيد تفصيل المسند إليه مع الإيجاز، حيث أفادت الواو اشتراك زيد وعمرو وخالد فى المجىء ففصلت المسند إليه وأغنت عن قولك: جاءنى زيد وجاءنى خالد وجاءنى عمرو، وهذا هو وجه الإيجاز فى المثال.. وتأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾[1] تجد أن فرعون وهامان قد ذكرا مفصلين معطوفاً أحدهما على الآخر ثم عطف عليهما بقية القوم «إجمالاً» و «جنودهما» وذلك لغرض بلاغى وهو أن فرعون وهامان كانا السبب فى الخطيئة دون جنودهما.. وتقول: جاء زيد فعمرو فتفيد تفصيل المسند «المجىء» مع الإيجاز والإنباء بالتعقيب إذ المراد: جاء زيد، وجاء عمرو بعده مباشرة، وتقول: جاء زيد ثم عمرو فتومئ. إلى ما بين المجيئين من تراخ

(١) سورة القصص: ٨.

بالإضافة إلى إفادة التفصيل والإيجاز . . وكذا تقول : اشتدت العاصفة ثم هدأت مشيراً بالحرف «ثم» إلى امتدادها وأنها لم تسكن إلا بعد زمن طويل . . وقد تريد التدرج بالمعانى علوا أو دنوا فتستعمل «حتى» فى عطف تلك المعانى . . . انظر إلى قول الشاعر :

قهرناكم حتى الكماة فأنتم تهابوننا حتى بنينا الأصاغرا [1]

حيث ارتفع بقهرهم إلى أعلاهم : «حتى الكماة» ثم انخفض بهيبتهم إلى مالا يخيف : «حتى بنينا الأصاغر»، وهذا معنى جميل وتموج رائع، إذ بدأ بالأدنى مرتفعاً بالقهر ثم انحدر بالإخافة منتهياً إلى أدنى ما يمكن أن يخيف . . وقد يلجأ البلاغى إلى عطف النسق ليرد السامع عن الخطأ فى الحكم إلى الصواب بأخصر طريق فيقول مثلاً : جاء زيد لا عمرو، لمن اعتقد أنهما جاءا معاً أو أن الذى جاء عمرو دون زيد . . وكذا تقول ما جاء زيد ولكن عمرو وما جاء زيد بل عمرو لمن اعتقد مجيئهما معاً أو مجيء زيد دون عمرو . . وقد يراد بالعطف التشكيك كما فى قول الشاعر :

وقد زعمت ليلى بأنى فاجر لنفسى تقاها أو عليها فجورها

فقد عطف «بأو» ليشكك السامع وعندئذ ينظر فى أمره ويتأمل حتى يصل إلى الخبر اليقين ويعرف أفاجر الشاعر أم تقى .

وقد يراد به الإبهام استماله للمخاطب وترغيباً له فى الحق والاهتداء، كما فى قوله تعالى : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[2] ومنه قول الشاعر :

نحن أو أنتم الأولى ألفوا الحق فبعداً للمبطلين وسحقاً

فقد استخدمت «أو» للإبهام حتى لا يواجه الضال بضلاله فيكون فى هذا تنفير له من قبول الحق والهداية .

وبهذا يتضح لك أن البلاغى يجد فى معانى حروف العطف وسائل لتحقيق مآربه وإبراز أهدافه البلاغية السامية، التى يهدف إليها ويقصد .

---

(١) الكماة : جمع كمي وهو الفارس المقدام .

(٢) سورة سبأ : ٢٤ .

تعقيب المسند إليه بضمير الفصل :

وقد يعقب المسند إليه بضمير الفصل فيفيد ذلك القصر ، أى قصر المسند على المسند إليه كقولك : زيد هو المنطلق وخالد هو الذى يجود بماله ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾[1] ، فالمعنى لا يقبل التوبة عن عباده إلا الله . . أو قصر المسند إليه على المسند ، وكقولك : الكرم هو التقوى ، والحسب هو المال ، أى : لا كرم إلا بالتقوى ، ولا حسب إلا بالمال . . وقد يكون ضمير الفصل لمجرد التوكيد ، وذلك إذا كان القصر مفاداً بغيره بأن تكون الجملة معرفة الطرفين مثلاً ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾[2] ، وقوله عز وجل : ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾[3] ، وقوله جل وعلا : ﴿لا يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[4] . . وسيتضح لك هذا عند دراستك لأسلوب القصر وطرقه فى الجزء الثانى من هذا الكتاب .

تقديم المسند إليه :

اهتم البلاغيون فى دراستهم لتقديم المسند إليه بدراسة تقديمه على الخبر الفعلى فى النفى أو فى الإثبات نحو : ما أنا فعلت هذا ، وأنا ما فعلت هذا ، وأنا فعلت . . كما اهتموا بدراسة تقديم النكرة ، ومثل وغير ، وألفاظ العموم نحو : كل وجميع ، ولعل اهتمام البلاغيين بدراسة هذه الأمور وإبرازها ، يرجع إلى ما يكمن وراءها من دقائق وأسرار ينبغى على الدارس الوقوف عليها والإحاطة بها . . وإليك بيان ذلك :

تقديم المسند إليه فى النفى :

إذا قدم المسند إليه فولى أداة النفى مثل : ما أنا فعلت . . ما محمد صنع هذا ، أفاد التقديم عندئذ «الاختصاص» لأن مثل هذا التعبير : «ما أنا فعلت . . ما أنت قلت . . ما هو يجود بمال . . ما محمد صنع» . . يفيد - كما قال عبد القاهر - ثلاثة أمور :

(١) سورة التوبة : ١٠٤ .
(٢) سورة الذاريات : ٥٨ .
(٣) سورة المائدة : ١١٧ .
(٤) سورة الحشر : ٢٠ .

١ - نفى الفعل عن المسند إليه المقدم .

٢ - إثبات نفس الفعل المنفى .

٣ - وجود فاعل آخر غير المسند إليه المقدم قد فعل هذا الفعل .

فعندما تقول : ما أنا قلت هذا الشعر . . ما أنا بنيت هذه الدار . . فأنت تنفى عن نفسك قول هذا الشعر ، وبناء تلك الدار ، وتثبتهما لفاعل آخر غيرك ، ولذا كان من الخطأ أن تقول : ما أنا قلت هذا الشعر ولا قاله أحد . . ما أنا بنيت هذه الدار ولا غيرى . ما محمد صنع هذا الشئ ولا غيره . . لأن صدر الجملة أفاد بتقديمك المسند إليه ، أن الفعل قد انتفى عنه وأثبت لغيره ، وعجزها أفاد نفى الفعل المذكور عن الغير وهذا تناقض وتدافع ، إذ كيف تثبت الفعل للغير وتنفيه عنه في آن واحد . . إن العطف فى الأمثلة المذكورة قد جعل الفعل يقع بغير فاعل وهذا محال ، فالصواب أن يقال : ما أنا قلت هذا الشعر بل قاله غيرى . . ما أنا بنيت هذه الدار بل بناها أحد غيرى . . ما محمد صنع هذا الشىء بل صنعه غيره .

فإن قلت : ألا يجوز أن تقول : ما قلت هذا ولا قاله أحد غيرى . . ؟ ما بنيت هذه الدار ولا بناها غيرى . . ؟ ما صنع محمد هذا الشىء ولا صنعه أحد غيره . . ؟ فالجواب : يمنع من هذه الأقوال اسم الإشارة المذكور ، لأنك تشير به إلى معين قد وجد وفعل ، تشير إلى الشعر مقولاً «هذا الشعر» وإلى الدار مبنية : «هذه الدار» وإلى الشىء مصنوعاً : «هذا الشىء» ولا يتأتى أن يكون المشار إليه ، الموجود أمامك ، لم يفعله أحد لا أنت ولا غيرك ، اللهم إلا إذا قيل : إن اسم الإشارة ، لم يشر به إلى شىء محقق مرئى ، بل أشير به إلى معنى فى ذهن المخاطب . . إلى دعوى قد ادعاها . . وكأنه قد ادعى أن شعرا قيل وأن داراً بنيت وأن شيئاً قد صنع ، فأنت تقول : «هذا» مشيراً إلى ما ادعاه وقاله ، لا إلى شىء مشاهد أمامكما وكأنك تقول له : إن ما ادعيته لم يفعل لا منى ولا من غيرى ، فأنت فى دعواك واهم ، وهذا الذى فى ذهنك لا وجود له مطلقاً ، إن أردت ذلك فما سألت عنه جائز ولك أن تقوله .

ومن الخطأ أيضا أن تقول : ما أنا أكلت اليوم شيئاً . ما أنا قلت شعراً قط فتجعل المنفى هكذا عاماً ، لأنّه يقتضى المحال وهو أن يكون ههنا إنسان غيرك قد قال كل شعر فى الدنيا وأكل كل شىء يؤكل . ولكن الصواب فى مثل هذا أن تقول : ما أكلت اليوم

شيئاً . . ما قلت شعراً قط ، لأن قولك «ما فعلت» ، لا يفيد سوى نفى الفعل عنك فقط ، دون تعرض للغير لا بنفى عنه ولا بإثبات له . ومن الخطأ كذلك قولك : ما أنا ضربت إلا زيداً ، لأن معناه : ما أنا ضربت أحداً إلا زيداً ، وهذا يقتضى أن يكون هناك أحد غيرك قد ضرب جميع الناس ماعدا زيداً وهذا محال . . فالصواب فى مثل هذا أن يقال : ما ضربت إلا زيداً .

ومما جرى على هذا الأسلوب فى إفادة الاختصاص من التعبيرات الجيدة والأساليب الرفيعة ، قول المتنبى :

وما أنا أسقمت جسمى به ... ولا أنا أضرمت فى القلب ناراً

فالمعنى : هذا السقم الحاصل فى جسدى وتلك النيران المشتعلة فى فؤادى ، لم أفعلها أنا ، بل فعلهما غيرى ، ووراء هذا التركيب معنى لطيف هو عجز الشاعر أمام عواطفه المشبوبة التى أضنته وكأنه يقول : لو كان الأمر بيدى لأنقذت نفسى ، ولكن لا طاقة لى بذلك . . ومثله قوله أيضاً :

وما أنا وحدى قلت ذا الشعر كله ... ولكن لشعرى فيك من نفسه شعر

فهو ينفى أن يكون هذا الشعر الكائن قد قاله هو وحده وإنما قاله معه غيره ، وهذا الغير هو الشعر نفسه لأنه شعر شاعر . . وتلاحظ أن المسند فى كل ما ذكر من شواهد وأمثله فعل ، فهل تلك الإفادة ، إفادة تقديم المسند إليه بعد النفى للقصر ، قاصرة على الخبر الفعلى؟ قال بهذا بعض البلاغيين ، وقال آخرون : هى ليست قاصرة على الخبر الفعلى . بل تتعداه إلى غيره ، وأن قولك : ما أنا ضارب زيداً . وما محمد بجاحد نعمة ربه ، يفيد الاختصاص كما يفيده قولك : ما أنا ضربت . وما محمد جحد نعمة ربه .

والذى أراه أن السياق هو الذى يحدد الإفادة . . ففى قوله تعالى : ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾[1] ، فقوله تعالى : «وما أنت علينا بعزيز» أفاد الاختصاص بمعنى نفى العزة عن شعيب وإثباتها لرهطه ، ولذا قال -عليه السلام- فى جوابهم منكرًا ذلك منهم : «أرهطى أعز عليكم من الله» ومثله قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا

(١) سورة هود : ٩٢ .

كرَّةً فنتبرَّأ منهُمْ كما تبرَّءُوا منَّا كذلكَ يُريهمُ اللَّهُ أعْمالَهُمْ حسرات عليْهمْ وما هُم بخارجين من النَّار﴾[1] ، فالخروج من النار منفى عن المسند إليه المقدم «هم» العائد إلى الكفار الذين تبرأ بعضهم من بعض، ومثبت لغيرهم عصاة المؤمنين لأن المؤمن العاصى لا يخلد فى النار . .

أما قوله عز وجل : ﴿ومن النَّاس من يقُولُ آمنَّا باللَّه وباليوْم الآخر وما هُم بمُؤْمنين (٨) يُخادعُون اللَّهَ ﴾ [2] وقوله عز وجل: ﴿مَّا أنا بمُصْرخكُمْ وما أنتُم بمُصْرخيَّ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿فذكّرْ فما أنت بنعْمت ربّك بكاهنٍ ولا مجْنُونٍ ﴾ [4] ، فواضح أن تقديم المسند إليه «وما هم بمؤمنين» «ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى» . «فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون» ، لا يفيد الاختصاص ، بل يفيد فقط تأكيد نفى المسند إليه المقدم . . ولهذا ينبغى علينا ألا نغفل دور السياق وأثره فى تحديد الإفادة فى مثل هذه الأساليب وأن ننظر إليها فى سياقها ، فما يحكم به السياق ويقضى فهو ذلك . . كما أنه ينبغى أن تبنى الأحكام البلاغية على الأكثر والغالب ولا تبنى على القطع والإطلاق ، لأننا عندما نتأمل التراكيب الجيدة نرى أن ما قطع البلاغيون بإفادته للقصر وهو تقديم المسند إليه على الخبر الفعلى بعد النفى نحو : ما أنا فعلت ، نراه منخرماً وقابلاً للرد . انظر إلى قوله تعالى : ﴿لوْ يعْلمُ الَّذين كفرُوا حين لا يكُفُّون عن وُجُوههمُ النَّار ولا عن ظُهُورهمْ ولا هُمْ يُنصرُون (٣٩) بلْ تأتيهم بغْتةً فتبْهتُهُمْ فلا يسْتطيعُون ردَّها ولا هُمْ يُنظرُون﴾ [5] تجد أن قوله «ولا هم ينصرون» ، قد أفاد الاختصاص ، إذ النصر فى هذا اليوم منفى عن الكفرة مثبت لغيرهم وهم المؤمنون فالله عز وجل ينصرهم فى ذلك اليوم ويتجلى عليهم بنعمه ، وهذا يتفق مع ما قاله البلاغيون . . أما قوله تعالى : «ولا هم ينظرون» فالتقديم فيه يفيد التأكيد وتقوية الحكم ، ولا يفيد الاختصاص ، لأنه لا أحد ينظر حين تأتيه الساعة . وهذا يتعارض مع ما قاله البلاغيون . ولذا نقول ينبغى أن تبنى الأحكام البلاغية على الأكثر والغالب ، لا على القطع ، الإطلاق[6] .

---

(١) سورة البقرة : ١٦٧ .

(٢) سورة البقرة : ٨ ، ٩ .

(٣) سورة إبراهيم : ٢٢ .

(٤) سورة الطور : ٢٩ .

(٥) سورة الأنبياء : ٣٩ ، ٤٠ .

(٦) خصائص التراكيب ١٧٩ .

الذين كفروا فهم لا يؤمنون

فإذا قدم المسند إليه على أداة النفى نحو : أنا ما فعلت وأنت ما قلت ومحمد لا يصنع هـذا والمؤمـن لا يرضى الضيم، أفاد هذا التقديم، إمـا الاختصاص وإما التوكيد وتقويه الحكم . . والسياق هو الذى يحدد المراد، انظر إلى قوله عز وجل : ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾[1] . وقوله تعالى : ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ﴾[2] وقوله جل وعلا ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾[3] تجد أن التقديم فى هذه الآيات الكريمة قد أفاد من التأكيد وتقوية الحكم مالا يفيده تأخير المسند إليه، وتأمل قولك : «فلا يؤمنون» وما عليه النظم الكريم «فهم لا يؤمنون»، فستدرك ما قد أفاده تقديم المسند إليه فى النظم القرآنى من تأكيد نفى الإيمان عن هؤلاء . .

وقد يفاد بهذا التقديم القصر كقولك : أنا لا أقبل الظلم . . المؤمن لا يسعى فى الشر، إذا كنت تريد نفى الفعل عن المسند إليه المقدم وإثباته لغيره .

تقديم المسند إليه فى الإثبات :

وتقديم المسند إليه فى الإثبات يفيد كذلك أحد الأمرين المذكورين، إما التأكيد وتقوية الحكم وإما الاختصاص، حسبما يحدد السياق وقرائن الأحوال، فقولك محمد يفعل الخير، صالح لإفادة التأكيد فهو آكد من قولك : يفعل محمد الخير وصالح لإفادة الاختصاص، إذا كنت تريد أن فعل الخير مقصور على محمد المقدم ومنفى عن غيره . .

وتقول : أنا فعلت كذا . . أنا أطعم الفقير . . تريد أنك وحدك تفعل هذا أو أنك تفعله دون فلان، فيكون التقديم مفيداً للقصر الحقيقى أو القصر الإضافى وأقرأ قوله تعالى : ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[4] . وقوله عز وجل : ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ

---

(١) سورة يس : ٧ .

(٢) سورة القصص : ٦٦ .

(٣) سورة الأنفال : ٢٢ . ٥٥

(٤) سورة التوبة : ١٠١ .

ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[1] . وقوله جل وعلا ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾[2] . وقوله عز من قائل : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً﴾[3] . واقرأ فى سورة النحل : ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ..... وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ....وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ .... وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .... وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا .... وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا....... وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾[4] - تجد أن الفعل مختص بالمسند إليه المقدم وهو لفظ الجلالة أو الضمير العائد إليه، فالتقديم فى الآيات الكريمة قد أفاد الاختصاص - كما لا يخفى - وعندما يفيد التقديم الاختصاص فهو يفيد التوكيد لا محالة، لأن الاختصاص يستلزم التوكيد . . ومن ذلك المثل المشهور : «أتعلمنى بضب أنا حرشته» أى : صدته فالتقديم فيه أفاد الاختصاص، لأن المراد : أنه حرشه وحده دون غيره فهو عليم به وخبير، ولذا أنكر أن يعلمه به أحد .

ومما أفاد التقديم فيه التأكيد وتقوية الحكم دون الاختصاص قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[5] فقوله : «وهم يخلقون»، أفاد التقديم فيه تأكيد خلقهم فهم من مخلوقات الله تعالى والمخلوق لا يعبد ولا يستطيع أن يخلق شيئاً وفيه ما فيه من تسفيه أحلام الكفرة الذين دعوا هؤلاء من دون الله . . ولا يفيد التقديم فى الأية الكريمة اختصاصاً، لأن الخلق ليس مقصوراً عليهم، فالله تعالى يخلقهم ويخلق غيرهم .

وقد علل البلاغيون سر إفادة تقديم المسند إليه على الخبر الفعلى للتأكيد وتقوية الحكم، فقال عبد القاهر : «فإن قلت : فمن أين وجب أن يكون تقديم ذكر المحدث عنه

(١) سورة هود الآية : ٦١ .
(٢) سورة الزمر : ٢٣ .
(٣) سورة الإنسان : ٢٣ .
(٤) سورة النحل ٦٥ - ٨١ .
(٥) سورة النحل : ٢٠ .

بالفعل آكد لإثبات ذلك الفعل له، وأن يكون قوله : «هما يلبسان المجد» أبلغ فى جعلهما يلبسانه من أن يقال : يلبسان المجد ؟ . فإن ذلك من أجل أنه لا يؤتى بالاسم معرى من العوامل إلا لحديث قد نوى إسناده إليه، وإذا كان كذلك فإذا قلت : عبد الله، فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه، فإذا جئت بالحديث فقلت مثلاً : قام أو قلت : خرج أو قلت : قدم، فقد علم ما جئت به، وقد وطأت له وقدمت الإعلام فيه فدخل على القلب دخول المأنوس به، وقبله قبول المتهيئ له المطمئن إليه وذلك لا محالة أشد لثبوته وأنفى للشبهة وأمنع للشك وأدخل فى التحقيق . . وجملة الأمر أنه ليس إعلامك الشئ بغته مثل إعلامك له بعد التنبيه عليه والتقدمة له، لأن ذلك يجرى مجرى تكرير الإعلام فى التأكيد والإحكام، ومن ههنا قالوا : إن الشئ . إذا أضمر ثم فسر كان ذلك أفخم له من أن يذكر من غير تقدم إضمار . . »(1) .

وعلله السكاكى بتكرار الإسناد ففى مثل قولهم : «هم يضربون الكبش يبرق بيضه» قد أسند الضرب إليهم مرتين، مرة إلى واو الجماعة فى «يضربون» والثانية فى إسناد جملة : «يضربون» إلى الضمير «هم» الذى هو المسند إليه المقدم، فهذا التكرار للإسناد هو منشأ التوكيد وتقوية الحكم ودفع الشك عند السكاكى (2) .

وقد ذكر عبد القاهر المقامات التى تقتضى التأكيد وتقوية الحكم والتى ينبغى أن يقدم فيها المسند إليه على خبره الفعلى وهى :

١ - ما سبق فيه إنكار من منكر كقولهم : هو يعلم وإن أنكر، وهو يعلم أن الكذب فيما قال وإن حلف عليه، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(3) أى يعلمون كذبهم، فهم ينكرون الكذب، وينكرون أيضاً علمهم بكذبهم لأن الكاذب لا يعترف بكذبه، إذا لم يعترف بكذبه كان أبعد من ذلك أن يعترف بالعلم بأنه كاذب . . ومعلوم أن الإنكار يقتضى توكيد الحكم، ومن أجل ذلك قدم المسند إليه .

(1) دلائل الإعجاز ١٥٩ .

(2) مفتاح العلوم ٩٣ .

(3) سورة آل عمران : ٧٥ .

٢ – مقام التكذيب وإبطال دعوى مدع، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴾[١] فقولهم «آمنا» دعوى منهم أنهم لم يخرجوا بالكفر كما دخلوا به، فالمقام مقام تكذيب يقتضى التأكيد إبطالاً لما ادعوه، ولذا قدم المسند إليه «وهم قد خرجوا به» .

٣ – فيما القياس فى مثله ألا يكون، كما فى قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[٢]، وقوله جل وعلا : ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[٣] وذلك أن عبادتهم لتلك الآلهة تقتضى أن تكون خالقة لا مخلوقة، لأن من شأن المعبود أن يكون خالقاً، وهم وإن كانوا لا ينكرون أنها مخلوقة، إلا أنهم نزلوا منزلة من ينكر ذلك، فأكد لهم الكلام، تنبيها إلى خطئهم وضلالهم .

٤ – أن يكون الخبر غريباً لوقوعه على خلاف العادة، كقولك : البقرة تكلمت . . الجبان يصارع الأسود . . ونحو ذلك .

٥ – فى مقام الوعد والضمان، كقولك للفقير : أنا أعطيك وأكفيك . . أنا أقوم بهذا الأمر، وذلك لأن من شأن من تعده وتضمن له أن يعترضه شك فى تمام الوعد وفى الوفاء به فهو أحوج إلى التوكيد .

٦ – يكثر فى مقام المدح والفخر والرثاء، كقولك : هو يعطى الجزيل . . وأنت تقرى الضيف . . ومنه قول الشاعر :

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى ... لا ترى الآدب منا ينتقر[٤]

وقول الآخر :

هم يضربون الكبش يبرق بيضه ... على وجهه من الدماء سبائب[٥]

---

(١) سورة المائدة : ٦١ .

(٢) سورة النحل : ٢٠ .

(٣) سورة الفرقان : ٣ .

(٤) المشتاة : زمن الشتاء أو مكانه . والجفلي : الدعوة العامة لا يخص بها أحد . والآدب : الداعي إلى الطعام . . وينتقر : يدعو النقرى وهي الدعوة الخاصة .

(٥) الكبش : رئيس القوم ، والبيض : مفردها بيضة وهي الخوذة . والسبائب : الطرائق .

وقوله :

هُـم يفرشـون اللِّبدَ كل طمـرَّةٍ وأجـرد سبـاح يبـذ المغاليـا[1]

وقوله :

هما يلبسان المجـد أحسن لبسـة شحيحان ما اسطاعا عليه كلاهما

وإنما احتاج المدح والفخر إلى التوكيد، لأن من شأن المادح والمفتخر أن يلقيا الخبر مؤكدا كما امتلأت به أنفسهما وأن يمنعا السامعين من الشك فيه والارتياب[2] .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾[3] ، تجد التقديم فى قوله : «فهى تملى» قد أكد الخبر وأنبأ بما فى أنفس الكفرة ورغبتهم فى أن يلقى الخبر مؤكداً وأن تقرع به الأسماع قوياً فيثبت فيها ويقر، ولا يكون هنالك مجال للشك فيما يخبرون والارتياب فيما يصفون، بل تمتلئ به أنفس السامعين ويرسخ بها كما امتلأت به أنفس الكفرة . . وخذ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِى نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾[4] وتأمل قوله : «وهو يتولى الصالحين»، وكيف أفاد تقديم المسند إليه قوة إيمان المصطفى – صلى اللّه عليه وسلم – وكمال ثقته بربه، حيث جاء الخبر قوياً مؤكداً، قد امتلأت به نفسه – عليه الصلاة والسلام – فلا شك – ولا ارتياب فى نصر اللّه تعالى وتوليه له . وانظر إلى قوله عز وجل : ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[5] وقف على معنى كلمة «يوزعون»، إذ معناها : يحبس أولهم على آخرهم بإيقاف أولهم حتى يلحق به آخرهم، هذا خبر غريب جرى على خلاف ماتقضى به العادة، إنس وجن وطير على هيئة من الإبزاع والتداخل قد ضج بهم المكان واضطرب،

---

(١) اللبد : المتلبد من الصوف أو الشعر . والطمرة : الفرس الكريمة والذكر طمر . والأجرد : القصير الشعر . والسباح : الذي يشبه سيره السباحة في اللين واليسر ، ويبذ : يغلب . والمغاليا : المبالغ في عدوه .

(٢) دلائل الإعجاز ١٦٠ ، ١٦١ .

(٣) سورة الفرقان : ٥ .

(٤) سورة الأعراف : ١٩٦ .

(٥) سورة النمل : ١٧ .

فغرابة هذا الخبر تقتضى تأكيده حتى تأنس به النفوس ويتقرر لديها، ولو قيل : «يوزعون» هكذا مرسلاً بلا تأكيد، لما كان التركيب ملائماً لحال النفس المتلقية[1] .

ولذا رأينا عبد القاهر يقول فى مثل هذه الآيات الكريمة : «ومما هو بهذه المنزلة فى أنك تجد المعنى لا يستقيم إلا على ما جاء عليه من بناء الفعل على الاسم قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِى نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ ، فإنه لا يخفى على من له ذوق أنه لو جئ فى ذلك بالفعل غير مبنى على الاسم فقيل : إن ولى اللّه الذى نزل الكتاب ويتولى الصالحين، واكتتبها فتملى عليه، وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فيوزعون : لوجد اللفظ قد نبأ عن المعنى، والمعنى قد زال عن صورته والحال التى ينبغى أن يكون عليها»[2] .

ونبو اللفظ عن المعنى عندئذ مرجعه إلى خلو التركيب من التوكيد الذى اقتضاه المقام على نحو ما بينت لك .

تقديم النكرة :

إذا كان المسند إليه نكرة وقدمت على الخبر الفعلى فإن تقديمها لا يختلف فى الدلالة عن تقديم المعرفة سوى أن النكرة قد يراد بها الجنس وقد يراد بها العدد، فأنت تنظر فى إفادة تقديم النكرة للاختصاص أو للتأكيد إلى أحد هذين الأمرين : الجنس أو العدد، فتعتبر التخصيص أو التأكيد لأحدهما، حسبما يقتضيه المقام ويحدده السياق وقرائن الأحوال فإذا قلت : ما رجل جاءنى، فالمراد نفى المجئ عن الرجل وإثباته لغيره، وهذا الغير إما : امرأة وإما رجلان أو أكثر حسبما يقتضيه المقام . فإن كان المخاطب يعتقد أن الذى جاء رجل وقد أتتك امرأة، فالمراد عندئذ : ما رجل جاءنى بل امرأة وإن كان يعتقد أن من جاءك رجل واحد وقد جاءك أكثر من رجل، كان المراد ما رجل جاءنى بل رجلان أو ثلاثة أو أربعة

---

(١) خصائص التراكيب ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٢) دلائل الإعجاز : ١٦٣ .

حسب العدد الذى قد حل بك ونزل عندك . . وإذا قلت : رجل جاء، فالمراد إما التأكيد وتقوية الحكم وإما التخصيص حسبما يقتضى المقام . فإن كان مخاطبك ينكر المجئ ويجحده أو يشك فيه أو يستبعده . . فالمقام عندئذ يستدعى التأكيد ويتطلب التقوية، وعندما تقول له : رجل جاء وتقدم المسند إليه النكرة، فأنت تؤكد له الخبر ليقر فى ذمنه ويثبت . . أما إن كان يعتقد أن الذى جاء امرأة، أو أكثر من رجل، فالمراد بالتقديم عندئذ تخصيص الجنس فى الأول وتخصيص العدد فى الثانى، أى : رجل جاء لا امرأة . . ورجل جاء لا رجلان، ومنه المثل : «شر أهر ذاناب» . . فإذا لم ترد لا تأكيداً ولا تخصيصاً قلت : جاء رجل بدون تقديم . . وكذا القول فى نحو قولك «رجل ما جاءنى»، على حسب مامر بك فى تقديم المعرفة .

تقديم «مثل» و«غير» :

مثل وغير يلزم تقديمهما إذا أريد بهما الكناية عما أضيفتا إليه بدون تعريض، كما فى قولنا : مثلك يرعى الود . . مثلك يعطى الجزيل . . غيرك لا يجود، ونريد بذلك الكناية عن الممدوح دون أن نعرض بشخص آخر، فالمراد : أنت ترعى الود، وأنت تعطى الجزيل، وأنت تجود، أستعملت «مثل وغير» مكنى بهما عما أضيفتا إليه دون تعريض بغيره أو إيماء إلى أن هذا الغير لا يفعل مثلما يفعل المتحدث عنه . . وتقديم «مثل وغير» إنما يكون لازماً عندئذ، لأن الكناية أبلغ من التصريح وآكد فهى كدعوى الشئ بدليل وبينة والدعوى المشفوعة بالبينة، والمصحوبة بالدليل أقوى وآكد من الدعوى المرسلة، الخالية من الدليل، العارية من البينة . . فلما كان الغرض هو التأكيد والتقوية لزم أن تقدم «مثل وغير» لأن تقديمهما مما يحقق التأكيد، ويفيد التقوية . . ولزوم التقديم إنما هو لزوم بلاغى مرجعه إلى استعمال العرب وإلى كون التقديم أعون على تحقيق الغرض المقصود . . ولذا ذكر عبد القاهر أن هذا التقديم كاللازم حيث يقول : «ومما يرى تقديم الاسم فيه كاللازم «مثل وغير»، فى نحو قوله :

مثلك يثنى الحزن عن صوبه ويسترد الدمع عن غربه [1]

(١) يثني الحزن : يكفه ويمنعه وصوبه : انسكابه وغرب الدمع : انهماله من العين.

وقول الناس : مثلك رعى الحق والحرمة ، وكقول الذى قال له الحجاج لأحملنك على الأدهم، يريد القيد، فقال على سبيل المغالطة : «مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب» (١) .

فقد كنى المتنبى فى البيت المذكور عن الممدوح وهو عضد الدولة وقد كان يعزيه فى فقد عمته، كنى عنه بقوله : «مثلك»، ولم يرد «بمثل» شخصاً آخر مماثلاً له، وقد صرح بهذا فى نفس القصيدة إذ قال :

ولم أقل مثلك أعنى به ... سواك يا فردا بلا مشبه

فكان تقديم لفظ المثل لا زماً لزوماً بلاغيا أو كما قال عبد القاهر «كاللازم» ليفيد مع الكناية المبالغة فى التوكيد وتقوية معنى المدح . . وكذا قول الناس «مثلك رعى الحق والحرمة»، وقول الخارجى للحجاج : «مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب، المراد بلفظ المثل فيهما : الكناية عما أضيفتا إليه، ولذا لما قال الحجاج للخارجى : «إنه الحديد» قال : لأن يكون حديداً خير من أن يكون بليداً، ومراد عبد القاهر بقوله : «على سبيل المغالطة» أسلوب الحكيم، وقد كان يسميه بالمغالطة وهى مغالطة أدبية لطيفة - كما سنرى عند دراسة هذا الأسلوب . . ومما جاء فيه لفظ : «غير» مقدماً على سبيل الكناية عما أضيفت إليه، قول أبى تمام :

وغيرى يأكل المعروف سحتاً ... وتشحب عنده بيض الأيادى (٢)

لم يرد أبو تمام شخصاً آخر مغايراً له هو الذى يصنع ذلك بل أراد الكناية عن نفسه، وأنه لا يفعل ما ذكر، وكان قد وشى به واش إلى وزير المعتصم فزعم أن أبا تمام قد هجاه، وكانت للوزير أياد بيض على أبى تمام فقال مدافعاًوراداً لتلك الوشاية : «كيف أهجوك وقد غمرنى معروفك؟ لو فعلت لكنت آكلاله حراماً وأنا لا آكل المعروف حراماً»، فقد أراد بقوله : «غيرى يأكل» الكناية عن نفسه - كما قلت - ولم يرد تعريضاً بغيره . . . ومثله قول المتنبى :

غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع ... إن قاتلوا جَبُنُوا أو حدثوا شجعُوا

---

(١) دلائل الإعجاز : ١٦٤ .

(٢) السحت : الحرام ، وشحب لونه تغير من هزال أو مرض، وبيض الأيادي : النعم، من إضافة الصفة إلى الموصوف.

أراد : أنه لا ينخدع ولم يقصد التعريض بشخص آخر يغر ويخدع فقد كنى عن نفسه بقوله : «غيرى»، كنى عن نفسه بضد هذا الحكم، وهو أنه لا يغر ولا يخدع .

فإن أريد بمثل شخص آخر مماثل أو مشابه لما أضيفت إليه . . وأريد بغير شخص مغاير له، فعندئذ لا يلزم تقديمهما، لأن الكلام فيهما يكون على سبيل الحقيقة لا الكناية . . من ذلك قول الصابى :

تشابه دمعى إذ جرى ومدامتى   فمن مثل ما فى الكأس عينى تسكب

وقول ابن شرف القيروانى :

غيرى جنى وأنا المعاقب فيكم   فكأننى سبابة المتندم

فلم يرد بمثل وغير فى البيتين الكناية، بل أريد بهما الحقيقة، ولذا فإن تقديمهما غير لازم فى حكم البلاغة، إذ ليس هنالك ما يقتضى ويستلزم تقديمهما .

تقديم ألفاظ العموم على النفى :

ألفاظ العموم مثل «كل» و«جميع» إذا تقدمت على أدوات النفى فى التعبيرات أفادت عموم السلب بمعنى شموله لكل أفراد المسند إليه . . من ذلك قول أبى النجم :

قد أصبحت أم الخيار تدعى   علىّ ذنباً كلّه لم أصنع

فقوله : «كله لم أصنع» أفاد عموم السلب أى أنه لم يفعل شيئاً مما تدعيه أم الخيار . . وقول الآخر :

فكيف وكل ليس يعدو حمامه   ولا لامرىء عما قضى الله مزحل [1]

فالمعنى على نفى أن يعدو أحد من الناس حمامه .

ومثله قول دعبل :

فوالله ما أدرى بأى سهامها   رمتنى وكل عندنا ليس بالمكدى

أبالجيد أم مجرى الوشاح وإننى   لأتْهِمُ عينيها مع الفاحم الجعد [2]

(١) الحمام : قضاء الموت وقدره والمراد : الأجل المحتوم . ومزحل : زوال أو مفر .

(٢) المكدي : الذي يحفر ولا يجد ماء ، يريد أن سهامها لا تخطىء المرمى، والوشاح : ما يضرب للمرأة من العاتق إلى الكشح . والفاحم : الشعر الأسود . وأتهم : بسكون التاء وكسر الهاء من أتهمه إذا نسب إليه ما يتهم به .

والمعنى : على نفى أن يكون فى سهامها مكد على وجه من الوجوه . . . ومن الواضح فى إفادة عموم السلب قول النبى - صلى الله عليه وسلم - عندما سأله ذو اليدين : أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله ؟ قال : «كل ذلك لم يكن» أى : لم يكن واحد منهما، لا قصر ولا نسيان، ولذا قال ذو اليدين وقد سمع إجابة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - «بعض ذلك قد كان» .

وتقول : جميع القوم لم يأتوا، وعامة الطلاب لم يحضروا، تريد بهذا أنه لم يأت أحد من القوم ولم يحضر أحد من الطلاب .

وإنما كان تقديم لفظ العموم على النفى مفيداً لعموم السلب، لأنك إذا بدأت به كنت قد بنيت النفى عليه، وسلطت الكلية على النفى وأعملتها فيه، وإعمال معنى الكلية فى النفى يقتضى ألا يشذ شئ عن النفى .

أما إذا تقدم النفى على ألفاظ العموم، فإنه يفيد سلبها، أى : سلب العموم والشمول بمعنى ثبوت البعض ونفى البعض الآخر . . .

من ذلك قول المتنبى :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه   تأتى الرياح بما لا تشتهى السُّفُنُ[1]

يريد أن المرء قد يدرك بعض ما يتمناه ولكنه لا يدركه جميعه، فتقدم «ما» على «كل» أفاد سلب العموم .

ومثله قول أبى العتاهية :

ما كل رأى الفتى يدعو إلى رَشَد   إذا بدا لك رأى مشكل فقف

يريد أن بعض رأى الفتى قد يدعو إلى رشد وبعضه قد لا يدعو . . .

وقول البحترى :

وأعلم ما كل الرجال مُشَيَّع   وما كل أسياف الرجال حسام[2]

(١) السفن : روى بضم السين والفاء جمع سفينة وروي بفتح السين وكسر الفاء وهو ربان السفينة .

(٢) المشيع : الشجاع الصعب المتهور الذي كأنه يشيع قلبه .

يريد : أن هناك رجالا فيهم أصالة الشجاعة والإقدام وهنالك من ليس كذلك، وأن بعض الأسياف تقطع وبعضها ليس كذلك . . . ولو قيل : كل ما يتمنى المرء لا يدركه . . كل رأى الفتى لا يدعو إلى رشد . . كل الرجال ليس مشيعاً وكل الأسياف ليس حساما . . لتغير المعنى وكان المراد عموم السلب، أى أن المرء لا يدرك شيئاً مما يتمناه، ورأى الفتى لا يدعو إلى رشد أبداً، والشجاعة منفية عن كل رجل، والجودة منفية عن كل سيف .

وتقول : ما جاء كل القوم . . ماحضر الطلاب كلهم . . لم آخذ كل حقى . . تريد بهذا : أن بعض القوم قد جاء، وبعض الطلاب قد حضر، وبعض حقك قد أخذته، والبعض الآخر لم تأخذه .

وإنما كان تقديم النفى على ألفاظ العموم مفيداً سلب العموم أى : نفى البعض وإثبات البعض الآخر، لأن أداة النفى إذا تقدمت على كلمة «كل» وشبهها مما يفيد العموم توجه النفى إلى الشمول خاصة دون أصل الفعل، وأفاد الكلام ثبوته لبعض ونفيه عن بعض، ووجه ذلك، أن الكلية نوع من التقييد، والنفى إذا اتجه إلى كلام مقيد انصب على القيد خاصة .

هذا - وكما قلت لك - إن القاعدة البلاغية ينبغى أن تبنى على الأغلب والأكثر وألا تبنى على التعميم والإطلاق - وعبد القاهر عندما تحدث عن ألفاظ العموم وتقديمها على النفى، بنى أحكامه المذكورة التى تحدثنا عنها على القطع والإطلاق، مما جعل البلاغيين يستدركون عليه ذلك، وينبهون إلى أن تلك الأحكام ينبغى أن تكون أكثرية لا قطعية . . انظر إلى قول عبد القاهر : «إنا إذا تأملنا وجدنا إعمال الفعل فى «كل» والفعل منفى لا يصلح أن يكون إلا حيث يراد أن بعضاً كان وبعضاً لم يكن» [1] تجده قد وضع القاعدة وضعاً قاطعاً دون أن يحتاط، ولذا استدرك عليه العلامة سعد الدين قائلاً : «وفيه نظر لأنا نجده حيث لا يصلح أن يتعلق الفعل ببعض كقوله تعالى : ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾[2] .

---

(1) دلائل الإعجاز ١٨٢ .

(2) سورة لقمان ١٨ .

وقوله : ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[1] وقوله : ﴿ وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾[2] فالحق أن هذا الحكم أكثرى لا كلى»[3] .

فسعد الدين قد جعل القاعدة غالبة لا لازمة، لأن الآيات الكريمة التى ذكرها - ومثلها كثير فى النظم الكريم - تقدم فيها النفى على «كل» وهذا يعنى - لو سلمت القاعدة - أن اللّه جل وعلا، لا يكره كل مختال وكل كفار وإنما يكره البعض دون البعض، والنبى عليه الصلاة السلام، ليس منهيا عن طاعة كل حلاف، بل منهى عن طاعة البعض دون البعض الآخر، وهو مالا يكون [4] .

ولذا نقول : إن القاعدة البلاغية ينبغى أن تكون أغلبية أكثرية ولا تبنى على القطع والإطلاق، إذ ربما يأتى فى الكلام البليغ والتعبيرات الجيدة ما يخالفها مما يكون قد خفى على واضع القاعدة .

هذا ونلاحظ أن «كل» فى الآيات الكريمة التى استشهد بها سعد الدين تختلف عن «كل» التى يقصد إليها عبد القاهر، فكل فى الآيات الكريمة تأسيسية حيث دخلت على النكرة، وكل التى يريدها عبد القاهر هى «كل» التقييدية التى تؤكد معنى الشمول الذى أفادته المعرفة .

❑❑❑

(١) سورة البقرة ٢٧٦ .

(٢) سورة القلم : ١٠ .

(٣) المطول ١٢٥ .

(٤) خصائص التراكيب ١٨٥ ، ١٨٦ .

الفصل الثالث

أحــوال المسنــد

حذفه:

يحذف المسند عند وجود القرينة الدالة على حذفه ليفيد أغراضها بلاغية متعددة . . هذه الأغراض لا يمكن الإحاطة بها - كما ذكرت لك عند الحديث عن حذف المسند إليه - وذلك لأنها دقائق ولطائف، تكون وراء العبارات والصيغ ولا يدركها إلا المتأمل الواعى والذواقة الخبير بالنظم وأحواله، ونحن عندما نتحدث عن أغراض الحذف إنما نذكر بعضاً من تلك الدقائق، وأنت عندما تتأمل النظم الجيد والأساليب الرفيعة لا تقف عند ذاك البعض الذى نذكره، بل عليك أن تطيل النظر والبحث والتنقيب حتى تصل إلى دقائق أخرى كثيرة قد لا تحيط بها فى تلك الدراسة العاجلة .

ووراء كل حذف - سواء أكان المحذوف مسنداً إليه أم مسنداً أم أحد متعلقات الفعل، ثلاث مزايا بلاغية وهى : الإيجاز - الاحتراز عن العبث بناء على الظاهر - إثارة حس المخاطب وإيقاظ مشاعره كى يقف على المطوى من العبارة ويحيط به . . وقد بينت لك هذه المزايا الثلاث عند حديثنا عن حذف المسند إليه فارجع إليها هناك .

وبالإضافة إلى تلك المزايا التى تكمن وراء كل حذف، نجد لحذف المسند أغراضاً بلاغية أخرى أهمها ما يلى :

١ - ضيق المقام . . كما فى قول ضابىء بن الحارث البرجمى، وكان عثمان رضى الله عنه قد حبسه فى المدينة لهجائه بنى نهشل ورميه أمهم، فضاق ضابىء بسجنه وقال معبراً عن آلامه، وواصفا ومصوراً أحزانه :

ومن يك أمسى بالمدينــة رحلــه　　　فإنــى وقيــار بهـــا لغريــب (١)

أراد : من أمسى بالمدينة مستقراً ، له منزله الذى يأوى إليه ، وأهله وأصحابه الذين يأنس بهم ويسكن إليهم فقد طابت نفسه وحسن حاله ورضى بعيشته ، أما أنا وقيار فإنا بها لغريبان ، وأنى للغريب أن يسعد ويهنأ ، فالشاعر حزين مكروب ، قد ضاق صدره لغربته وحبسه ، وتتجدد آلامه كلما تذكر الأهل والأصحاب والمنزل الهنى ، وكلما مر بخياله الانطلاق والحرية . . ولذا تراه قد طوى المسند إلى «قيار» فى الشطر الثانى وتقديره : فإنى لغريب بها وقيار غريب بها أيضاً فطيه ينبئ بالحال الكئيبة التى يعيشها الشاعر ، كما تراه قد طوى جواب الشرط وتقديره . ومن يك أمسى بالمدينة رحلة فهو مسرور طيب النفس مستريح البال ، طواه لنفس السبب ، وكأن الكلمات لا تسعفه كى يذكر جواب الشرط وخبر قيار ، ثم كيف يذكر الجواب وهو من جنس السعادة والهناء إن لسانه ليتوقف عاجزاً عن النطق به ، لأن فى الإفصاح عنه زيادة لآلامه وأحزانه . . وتأمل كيف قدم «قياراً» فقال : «فإنى وقيار» ولم يقل : « فإنى لغريب بها وقيار» ، وذلك للإشارة إلى أن قيارا ولو لم يكن من جنس العقلاء ، قد بلغه هذا الكرب واشتدت عليه تلك الغربة حتى صار مساوياً للعقلاء فى التشكى منها ومقاساة شدائدها . فتقديم قيار وإقحامه بين جزئى الجملة ، ينبئ بالتسوية بينهما فى التحسر ومقاساة الألم وينبئ بالتالى بشدة ما يلاقيه الشاعر . فلم تعد الآلام مقصورة عليه بل تجاوزته إلى جواده فصار الجواد يشعر بما يشعر به « ضابئ» صاحبه من ألم وضيق . .

ومن ذلك قول عمرو بن امرئ القيس الخزرجى يخاطب مالك بن العجلان حين رد قضاءه فى واقعة للأوس والخزرج :

يا مــأل والسيــد المعمَّــم قــد　　　يبطــره بعض الــرأى والســرف

نحــن بما عندنــا وأنــت بمـا　　　عنــدك راض رالــرأى مختلف (٢)

---

(١) رحله : منزله ومأواه . وقيار : اسم فرسه أو جمله .

(٢) مال : منادى مرخم والأصل : يامالك ، وترخيم المنادى مما يبرز حال المتكلم وينبىء بآلام الشاعر وأحزانه . والمعمم : الذي عممه القوم واتضوا حكمه ورأيه . ويبطره : يقطعه ، والمعنى قد يخونه التوفيق فيحكم بغير الصواب ويقضي بغير الحق . .

يريد : نحن بما عندنا من الرأى راضــون ، لأن رأينا هو الصـواب والحق ، وأنت بما عندك من رأى راض وقد قضيت به وحكمت على الرغم من منافاته للصواب ومجانبته للحق ، فالرأى مختلف والحق بجانب الشاعر والصواب فى رأيه ، وعلى الرغم من ذلك لم يأخذ به مالك ولم يقض لعمرو وهذا هو ما يؤلم الشاعر ويحزنه ، ومما يضاعف آلامه ويزيد أحزانه ، أن القاضى ذو رأى وصاحب عقل راجح ، إنه السيد المعمم ، قد عممه الجميع وارتضوا رأيه ، ولكن لكل جواد كبوة ، ولكل عالم هفوة ، فالسيد المعمم ذو العقل الراجح قد يبطره بعض الرأى ويخونه التوفيق ، فيقضى بغير الصواب ، وهذا ما قد حدث ، وهو الذى يؤلم عمرا ويحزنه ، ولذا تراه قد طوى المسند من الشطر الأول فى البيت الثانى ، فلم يقل : نحن بما عندنا راضون ، بل حذف الرضا من جانبهم لدلالة رضا المخاطب برأيه ، فى الشطر الثانى عليه . . هذا الحذف ينبئ بآلام الشاعر وضيقه ، وكأنه يأبى أن يصرح بنسبة الرضا إليهم فى اللفظ ، فهم مقتنعون بصواب رأيهم ، وغير راضين بما حكم به مالك ذو الرأى والعقل ، فحذف المسند يبرز لك حالتهم تلك . . .

وانظر إلى قول المتنبى :

قالت وقد رأت اصفر ارى : من به ؟ وتنهــدت فأجبتهـا : المتنهــد [1]

يريد : لما رأت حالى وما وصلت إليه بسبب حبها تساءلت متنهدة : من فعل بك هذا؟ومن وراء حالتك هذه ؟ فأجبتها : المتنهد أى : فعل بى ما ترين أنت ، فأنت التى أهواها وأعشقها ، فالشاعر قد حذف المسند وطواه ، فلم يقل صنع ماتربن المتنهد ، بل قال : المتنهد ، والمتنهد هى السائلة ، وكأن ألم العشق قد وصله إلى حالة لم يستطع معها أن يكمل الجواب ، وكأن الشاعر أيضاً ، أراد بهذا الحذف أن يبادر بذكر المتنهد ، وأن يفصح لها عن حبه ، فهى التى وصلته إلى تلك الحال ، وقد وجدها فرصة عندما سألته : من به ؟ كى يسارع بالإفصاح عن حبه ، فحذف المسند يحقق تلك المسارعة ، ولو ذكره فقال : فعل هذا بى المتنهد . لكان هنالك تباطؤ فى الإعلان عن حبه . ولا يخفى عليك ما وراء الالتفات فى البيت من دلال المحب وتمنعه ، فهى تخاطبه ولم تقل له : من بك؟ بل التفتت فقالت : من به ؟ دلالاً وتمنعاً ، وقيل المسند المحذوف اسم والمعنى : من المطالب به فأجبتها المتنهد هو المطالب به وعندئذ يكون الضمير فى «به» عائداً إلى الاصفرار فلا التفات .

---

(١) اصفراري : يريد ما يصيب المحب من ضنى وشحوب وصفرة ناجمة عن العشق والغرام .

٢ - قد يفيد حذف المسند تعظيما للمسند إليه على نحو ما ترى فى قوله عز وجل : ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾[١] ، وقوله تعالى : ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾[٢] فالأصل : إلا أن أغناهم الله من فضله وأغناهم رسوله . . والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك ، فحذف المسند فى الموضعين لدلالة المذكور عليه ، وحذفه يفيد تعظيم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «المسند إليه» ، إذ جعل إرضاءه من إرضاء الله وإغناءه من إغنائه تعالى ، وهذا تعظيم ما بعده تعظيم ، وتأمل تقديم المسند إليه «رسوله» ، وإيلاءه لفظ الجلالة ، ففيه تنبيه ولفت إلى تعظيم رسول الله - صلى الله عليه وسلم- ودلالة على أنه من الله بمكان . . ومن البلاغيين من يرى أنه لا حذف فى الآيتين مجوزاً أن تكون جملة واحدة ، وتوحيد الضمير فى : «من فضله ويرضوه» ينبئ بأنه لا تفاوت بين إغناء الله وإغناء رسوله ، ولا بين إرضاء الله وإرضاء رسوله فهما فى حكم مغن واحد ومرضى واحد ، كما تقول : إحسان عمرو وكرمه غمرنى ، فتفرد الضمير جاعلاً الإحسان والكرم بمعنى واحد ، ولا يخفى عليك مافى هذا أيضاً من «تعظيم» لرسول الله صلى الله عليه وسلم ورفعة شأنه [٣] .

وتأمل قوله عز وجل : ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾[٤] تجد أنه قد حذف المسند وتقديره : أفمن هو قائم . . كمن ليس كذلك ، والقائم على كل نفس هو الله عز وجل فهو متولى أمر كل نفس وحافظ شأنها ، ومن ليس كذلك هو المعبود بالباطل من دون الله عز وجل ، والحذف هنا يشعر بتعظيم وتنزيه الله عز وجل وتحقير وازدراء تلك المعبودات وينبئ بأنه لا وجه للمقارنة بين الخالق القادر القائم على كل نفس وبين تلك المعبودات . . . فينبغى عدم الجمع بينهما ولو فى اللفظ وكذا القول فى الآيات الكريمة : ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾[٥] ، والتقدير : كمن

---

(١) سورة التوبة : ٧٤ .

(٢) سورة التوبة : ٦٢ .

(٣) الإيضاح ١ / ١٧٣ .

(٤) سورة الرعد : ٣٣ .

(٥) سورة الزمر : ٢٢ .

أقسى قلبه وجعل صدره ضيقاً حرجاً . . . ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(١) ، أى : كمن ينعم فى الجنة . . . ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾(٢) أى : كمن لم يزين له أو كمن هداه الله ؟ فالحذف فى الآيات يشعر بأنه لا وجه للمقارنة بين الاثنين، فهذا قد شرح الله صدره للإسلام وذاك قد أقسى قلبه وجعل صدره ضيقاً حرجاً، وهذا يتقى بوجهه سوء العذاب وذاك ينعم فى الجنة . . . هذا قد زين له عمله السيء فرآه حسنا وذاك قد هداه الله للخير والعمل الصالح . . فحذف المسند كما ترى ينبىء بالتباعد بين الفريقين ويوحى بالمسافات المتناهية بينهما ويجعل الذهن يتشبع ويمتلىء بصورة المسند إليه فتقر فى القلب وترسخ فى العقل . . . ولا يخفى عليك أن الحذف فى الآيتين الأخيرتين قد أفاد تعظيم المسند المحذوف ورفعه شأنه وتحقير المسند إليه المذكور وانحطاطه، وذلك عكس ما أبصرت فى الآيتين السابقتين، إذ أفاد الحذف فيهما تعظيم المسند إليه المذكور وعلو منزلته، وتحقير المسند المحذوف وانحطاطه وازدراء النفوس له . .

٣ – وقد يحذف المسند اتباعاً للاستعمال الوارد عن العرب، كقولك خرجت فإذا زيد . . لولا زيد لهلك الناس . . لعمرك لأفعلن . . كل رجل وضيعته، والتقدير : فإذا زيد حاضر . . لولا زيد موجود . . لعمرك يمينى . . كل رجل وضيعته مقترنان . . فقد ذكر النحاة أن الأساليب العربية جرت على إسقاط المسند فى هذه المواضع وهى : إذا الفجائية ولولا والقسم الصريح وواو المصاحبة وكذا مع الحال الممتنع كونها خبراً نحو : ضربى زيداً قائماً أى : ضربى زيداً حاصل إذا كان قائماً . . وذكر سيبويه أن الحروف الخمسة التى تعمل فيما بعدها عمل الأفعال وهى : إن ولكن وليت ولعل وكأن، يحسن السكوت عليها مع إضمار خبرها . . من ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم للمهاجرين وقد شكروا عنده الأنصار : «أليس قد عرفتم أن ذلك لهم ؟» قالوا بلى، قال عليه الصلاة والسلام : «فإن ذلك» يريد : فإن ذلك مكافأة لهم . . وقول عمر بن عبد العزيز لرجل من قريش جاء يكلمه فى حاجة له فجعل يمت بقرابته فقال له عمر : «فإن ذلك» أى : فإن ذلك لك، ثم ذكر الرجل حاجته فقال عمر : «لعل ذلك» أى : لعل ذلك ييسر لك ويقضى . . وتقول لمن قال لك : هل لك أحد ينصرك إن الناس إلب عليك ؟ : إن زيداً وإن عمراً وإن ولداً وإن مالاً . . وعليه قول الأعشى :

---

(١) سورة الزمر : ٢٤ .

(٢) سورة فاطر : ٨ .

إنَّ محــــــلاً وإن مرتحــــــــــلاً وإنَّ فى السَّفــــر إذْ مضــــوا مَهَلا

يريد : إن لنا محلاً فى الدنيا وإن لنا مرتحلاً عنها إلى الآخرة، ومحلاً ومرتحلاً مصدران ميميان بمعنى الحلول والارتحال، والسفر : اسم جمع بمعنى المسافرين، والمراد بهم فى البيت : الموتى، والمهل : مصدر بمعنى الإمهال وطول الغيبة، والمعنى : إن فى غيبة الموتى طولاً وبعداً، لأنهم مضوا مضياً لا رجوع معه إلى الدنيا . وقول الآخر :

. . ليت أيام الصبا رواجعا . .

يريد : ليت أيام الصبا لنا رواجعا أو أقبلت رواجعاً . . وتقول لمن قال لك : هل أحد يشبه عمر فى عدله ؟ : كأن فلاناً . . ولمن قال لك الخسارة فادحة والخطب جلل والناس جميعاً ضدك : «لكن مالا ولكن ولداً» تريد : كأن فلاناً يشبهه . ، لكن لى مالاً ولى ولداً والحذف فى هذا الموضع أفاد الإيجاز ونقاء الجمل وترويقها أو كما قال البلاغيون : «الاحتراز عن العبث» فالذى حذف قد وجدت القرينة الدالة عليه والمقام مقام إيجاز ولمح، وذكر ما قد دل الدليل عليه فى مثل هذا المقام يعد عبثاً . . تأمل قول الرسول عليه الصلاة والسلام : «فإن ذلك» وقول عمر «لعل ذلك» . فستدرك قوة لمح المتكلم وحسن اقتداره على تصفية العبارة وترويقها من زوائد لا يستدعيها المقام . . وتأمل قولك : ضربى زيداً قائماً، ووازن بينه وبين قولك : ضربى زيداً حاصل إذا كان قائماً، فستجد أن المحذوف أكثر من المذكور وعلى الرغم من ذلك فقد ازداد المثال جمالاً بسبب الحذف وبدأ موجزاً أنيقاً . . وأراك تشعر بماوراء قول القائل : إن مالاً وإن إبلا ولكن ولداً، من اعتداد واعتزاز وقوة لا تكون لو قدر المحذوف فقيل : إن لنا مالا ولكن لنا ولداً، لأن استرخاء العبارة عندئذ يوحى بفتور الشعور وضعف المعنى . . .

وتأمل بيت الأعشى :

إن محــــــلا وإن مرتحــــــلا وإنَّ فى السَّفــر إذ مَضَــوا مَهَــلا

تجد أن الشاعر يصف السرعة الخاطفة فى الحلول والارتحال وكأن هذه السرعة التى يحسها بزوال الدنيا قد انعكست على عبارته فطوى فيها كثير من الكلمات، لأن سياق المعنى فى البيت طى وإضمار واختصار، حلــول يخطفه الارتحــال، وارتحال دائم وسفر لا أوبة لهم . [1]

(١) خصائص التراكيب ص : ٢٢ .

٤ - وقد يفيد حذف المسند التأكيد والاختصاص كما فى قوله تعالى : ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ﴾[1] فالتقدير : لو تملكون تملكون، فأضمر «تملك» الأول إضماراً على شريطة التفسير، ولما أضمر الفعل انفصل الضمير «أنتم» فأنتم فاعل الفعل المضمر و«تملكون» تفسيره، ودليل الحذف «لو»، لأن لو لا تدخل إلا على الأفعال . . قال الزمخشرى : «وهذا هو الوجه الذى يقتضيه علم الإعراب، فأما ما يقتضيه علم البيان فهو أن «أنتم تملكون» فيه دلالة على الاختصاص، وأن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ . . ونحوه قول حاتم :

. . لو ذات سوار لطمتنى[2] . .

وقول المتلمس :

ولو غيرت إخوانى أرادوا نقيصتى   جعلت لهم فوق العرانين ميسماً[3]

وذلك لأن الفعل الأول لما أسقط لأجل المفسر برز الكلام فى صورة المبتدأ والخبر . . »[4] .

ولذا أفاد حذف المسند فى الشواهد المذكورة الاختصاص والتوكيد وقد اعترض على الزمخشرى بأن الاختصاص إنما يكون فى الجملة الاسمية التى يقدم فيها المسند إليه على الخبر الفعلى مثل : محمد يفعل كذا، وقوله عز وجل : ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً﴾[5]، والشوهد المذكورة ليست كذلك لأنها جمل فعلية . . . ويدفع هذا الاعتراض بأمرين :

أولهما : أنه لما أسقط الفعل برز الكلام فى صورة الجملة الاسمية «المبتدأ والخبر» كما ذكر الزمخشرى .

ثانيهما : أن الاختصاص قد علق بلو وهى حرف امتناع لا متناع كما تعلم . .

---

(١) سورة الإسراء : ١٠٠ .

(٢) هو لحاتم الطائي وقد قاله عندما لطمته أمة قد جاءته ببعير لها ليفصده فنحره ويعني بذات السوار الحرة من النساء .

(٣) العرانين : مفردها عرنين وهو الأنف كله أو ما صلب منه . . والميسم العلامة أو السمة .

(٤) الكشاف ٢ / ٤٦٨ .

(٥) سورة نوح : ١٧ .

٥ - ومن أحسن مواقع حذف المسند ما ترى الجملة فيه قد بنيت على كلمة واحدة . . كما في قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾[1] أى : فلا فوت لهم ، فحذف المسند وبقيت كلمة واحدة : « فلا فوت » وهذه الكلمة تراها كالطود الشامخ والحاجز المنيع الذى قضى على كل أمل لهم فى الفوت والتفلت ، ولا يخفى عليك ما فى حذف جواب الشرط ، وبناء الفعل «أخذوا» للمجهول من إفادة التهويل والتفظيع . . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾[2] أجاب السحرة وعيد فرعون وتهديده لهم بكلمة واحدة : «لا ضير» أى : لا ضير علينا فيما تصنعه بنا إنا إلى ربنا منقلبون . . وهذا ينبىء بقوة الإيمان وصدق اليقين ، إذ أجابوا توعده بكلمة واحدة كالسهم النافذ الذى بدد كل وعيد وشتت كل تهديد .

٦ - وقد يأتى الكلام على الحذف ثم تراه يحتمل أن يكون المحذوف هو المسند أو المسند إليه ، على نحو ما ترى فى قوله تعالى : ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[3] ففى هذه الآية الكريمة يحتمل أن يكون المحذوف المسند إليه ، وتقديره : فصبرى صبر جميل أو فشأنى وأمرى صبر جميل ، ويحتمل أن يكون المحذوف المسند وتقديره : فصبر جميل أولى بى أو فصبر جميل أجمل . . . والصبر الجميل هو الذى لا شكوى معه وغير الجميل ما كان معه شكاية ، ولكنه خير من عدمه فيصح تفضيل الصبر الجميل عليه . . . والأرجح أن يكون المحذوف هو المسند إليه إذ الآية الكريمة مسوقة لمدح يعقوب - عليه السلام - وحين يكون المحذوف هو المسند إليه يكون الكلام دالاً على حصول الصبر له ، إذ التقدير : فأمرى أو قصبرى صبر جميل ، أما على جعل المحذوف هو المسند فليس فى الكلام ما يدل دلالة مباشرة على حصول الصبر ليعقوب عليه السلام ، إذ التقدير : فصبر جميل أولى بى أو فصبر جميل أجمل [4] .

---

(١) سورة سبأ : ٥١ .
(٢) سورة الشعراء : ٥٠ .
(٣) سورة يوسف : ١٨ .
(٤) المطول ١٤٢ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾[1] فيحتمل أن يكون التقدير : هذه سورة أنزلناها ، فيكون المحذوف هو المسند إليه ويحتمل أن يكون فيما أو حينا إليك سورة أنزلناها ، فيكون المحذوف هو المسند . . وكذا قوله جل وعلا : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾[2] ، وهذه الآية نزلت فى شأن المنافقين الذين ذهبوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأقسموا بالله جهد أيمانهم ، لئن أمرهم أن يخرجوا من أموالهم لخرجوا ، فنزلت هذه الآية الكريمة «قل لا تقسموا طاعة معروفة» ، وهى تحتمل حذف المسند إليه فيكون المعنى : أمركم أو الذى يطلب منكم طاعة معروفه معلومة لا يشك فيها ولا يرتاب ، كطاعة الخلص من المؤمنين الذين طابق باطن أمرهم ظاهره ، لا أيمان تقسمون بها بأفواهكم ، وقلوبكم على خلافها ، أوطاعتكم طاعة معروفة ، أى بأنها بالقول دون الفعل . . . وتحتمل حذف المسند فيكون المعنى : طاعة معروفة أمثل وأولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة . . . وما من ريب فى أن الكلام إذا احتمل حذف المسند أو المسند إليه ، يكون أوفر معنى وأغزر دلالة ، لأنه يحتمل وجهين ، ووفرة التأويلات من فضائل الكلام الجيد[3] .

هذا وتقدير المحذوف أو القول بالحذف يحتاج من الدارس إلى تأمل دقيق ونظر واع حتى لا يتناقض مع صحة المعنى واستقامته . . انظر إلى قول الله عز وجل : ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ﴾[4] ، فالمراد النهى عن التثليث ، أى : لا تقولوا بالتثليث ، انتهوا عنه يكن خيراً لكم . فالله واحد لا شريك له . . . الآية الكريمة فيها حذف ويحتمل أن يكون المحذوف المسند والتقدير : لنا آلهة ثلاثة أو فى الوجود آلهة ثلاثة ، فحذف المسند «لنا» أو «فى الوجود» ، ثم حذف الموصوف «آلهة» فصارت الآية : «لا تقولوا ثلاثة» ، أو التقدير : لا تقولوا : لنا أو فى الوجود ثلاثة آلهة ، فحذف الخبر ثم التمييز المضاف إليه فصارت الآية : «لا تقولوا ثلاثة» *. . ويحتمل أن يكون المحذوف المسند إليه وتقديره : ولا تقولوا الله والمسيح وأمه ثلاثة ، أى لا تعبدوهما كما تعبدون

---

(١) سورة النور : ١ .

(٢) سورة النور : ٥٣ .

(٣) خصائص التراكيب ٢٢٢ .

(٤) سورة النساء : ١٧١ .

* فيكون النهى عن إثبات الوجود لآلهة وهذا ليس فيه تقرير لثبوت إلهين أو أكثر من ثلاثة .. وإنما هو كقولنا لا إله إلا الله أى : لا إله لنا إلا الله أو لا إله موجود إلا الله .. ومعنى الآية على ذلك : لا تقولوا بوجود آلهة متعددة إنما الله إله واحد

الله، ولا تسووا بينهم فى الرتبة والصفة، كقوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾[1].

وذلك أنهم إذا أرادوا التسوية بين اثنين قالوا : هما اثنان، وإذا أرادوا إلحاق واحد باثنين قالوا : هم ثلاثة . . . ولا يصح أن يكون التقدير : ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة، لأن فى هذه التقدير تقريراً لثبوت آلهة؛ إذ النفى إذا سلط على الجملة لا يتوجه إلى أحد طرفيها، وإنما يتوجه إلى الحكم المستفاد من الطرفين، فإن قلت : ليس أمراؤنا ثلاثة فإنك تثبت بهذا القول أن لكم أمراء وتنفى أن يكون عددهم ثلاثة، فجائز أن يكون عددهم أقل من ثلاثة، أو أكثر، ولذا فإن التقدير : لا تقولوا آلهتنا ثلاثة، فيه إثبات أن عدد الآلهة اثنان أو أكثر من ثلاثة، وهذا إشراك وقوله جل وعلا بعده : ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ﴾، يناقضه. وتأمل قوله تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾[2]، فى قراءة من حذف تنوين «عزيز»، فلا يجوز أن يقدر مسند محذوف، وأن تعرب «عزيز» مبتدأ و «ابن» صفته، ويكون التقدير : عزيز بن الله معبودنا، هذا خطأ وإشراك؛ لأن فيه إثبات وتقرير الصفة للموصوف، أى : صفه «ابن الله» ثابته لعزيز، فنحن عندما نقول : «ليس زيد بن على ناجحاً» فقد نفينا نجاحه ولم ننف كونه ابنا لعلى، ولا يخفى عليك ما فى هذا من فساد، فالصواب أنه لا حذف فى الآية، وأن «عزيز» مبتدأ وخبره : «ابن الله» وأن التنوين تنوين «عزيز» مراد، وقد حذف لالتقاء الساكنين . . . أو أنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة كآزر . . أو أن القول فى الآية ليس المراد به الحكاية بل المراد به الذكر، والمعنى أن اليهود قد بلغوا الغاية فى الجهل والشرك فهم عند ذكرهم عزيزاً يفرطون فى تعظيمة فيذكرونه ابناً لله .[3]

٧ - وقد يحذف كل من المسند والمسند إليه، كما فى قولهم : «أهلك والليل، يريدون : الحق أهلك وبادر الليل حتى لا يحول بينك وبينهم، فالمقام يقتضى السرعة الخاطفة، ولذ حسن حذف المسند والمسند إليه . . ومن لطيف ذلك قوله تعالى : ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً﴾[4] أى : أنزل ربنا خبراً . فحذف الفعل والفاعل،

(١) سورة المائدة : ٧٣ .
(٢) سورة التوبة : ٣٠ .
(٣) الإيضاح ١ / ٢٢٥ .
(٤) سورة النحل : ٣٠ .

وحذفهما ينبئ بسرعة استجابة هؤلاء المتقين وقوة إيمانهم وامتثالهم لأمر ربهم . . وفرق بين إجابة المتقين فى هذه الآية وإجابة الكفرة فى قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾[1] ، أى : ذلك أساطير الأولين .

يقول الزمخشرى : «فإن قلت : لم نصب هذا ورفع الأول ؟ ، قلت : فصلاً بين جواب المقر وجواب الجاحد ، يعنى أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا ، وأطبقوا الجواب على السؤال بينا مكشوفاً مفعولاً للإنزال فقالوا : خيراً أى : أنزل خيراً ، وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا : هو أساطير الأولين وليس من الإنزال فى شئ»[2] . . . ومثله قوله عز وجل : ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[3] أى : قال ربنا الحق ، فحذف المسند والمسند إليه إسراعاً إلى الإفصاح عن الجواب ، إذ المقام مقام إيجاز يتطلب أن تكون الاجابة إشارة أو لمحاً ، كيف لا وقد فزع عن قلوبهم ؛ إن الكلمة الواحدة بل الإشارة فى مثل هذا المقام تغنى عن الكلمات الكثيرة . . . وتأمل قوله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ⑪ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ⑫ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾[4] أى : ذروا ناقة الله ، واحذروا سقياها ، تجد أن الحذف هنا ينبئ بلهفة صالح عليه السلام وشدة حرصه على هداية قومه ونجاتهم ولذا صاح بهم محذراً : «ناقة الله وسقياها» .

وانظر إلى قول الرسول عليه الصلاة والسلام لجابر : «ماتزوجت ؟ فقال : ثيباً ، فقال صلى الله عليه وسلم : فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك» ، أراد عليه الصلاة والسلام : فهلا تزوجت جارية . . . فحذف الفعل والفاعل لدلالة الكلام عليهما وفى هذا الحذف تنقية للعبارة وتصفية لها مما أقيم عليه الدليل حتى لا يكون ذكره عبثاً وفضولاً . . . وقد يحذف المسند والمسند إليه ويقام المصدر مقامهما ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾[5] أى : فاضربوا رقابهم ضرباً ، فحذف الفعل وفاعله ، وهذا

---

(١) سورة النحل : ٢٤ .
(٢) الكشاف ٢ / ٤٠٧ .
(٣) سورة سبأ : ٢٣ .
(٤) سورة الشمس : ١٣ .
(٥) سورة محمد : ٤ .

الحذف يلائم السياق، إذ الضرب المأمور به هو الضرب السريع الخاطف فور اللقاء . . وتأمل هذه الفاءات : «فإذا لقيتم . . . فضرب . . . فشدوا الوثاق فإمامنا . . .» وما تقتضيه من التعقيب والسرعة الخاطفة . . . ومن حذف المسند والمسند إليه، حذف القول وفاعله وهو كثير فى كتاب اللّه جل وعلا . . . من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[١] أى : فيقال لهم لقد جئتمونا . . ولعلك تشعر بماوراء هذا الحذف من تأنيب وتعنيف شديد ويساعد فى إبراز هذا التعنيف الالتفات من الغيبة إلى الخطاب : «وعرضوا . جئتمونا» . . . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾[٢] أى : فيقال لهم : أليس هذا بالحق، ولا يخفى عليك ما وراء الحذف هنا من سرعة إبراز السخرية والتهكم بهؤلاء الكفرة الذين لم يجدوا بداً من الإذعان والإقرار بعد فوات الأوان : «بلى وربنا» .

قرينة حذف المسند :

ولا بد لكل حذف - كما ذكرت لك - من وجود القرينة التى تدل على المحذوف وترشد إليه، وإلا كان الحذف عبثاً، ومن القرائن الدالة على حذف المسند وقوع الكلام جواباً عن سؤال محقق كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[٣] أى : خلقهن اللّه . . وقوله جل وعلا : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[٤] أو عن سؤال مقدر كما فى قول الحارث بن ضرار النهشلى يرثى أخاه يزيداً :

لِيُبْكَ يزيد ضارع لخصومة ومختبط مما تطيح الطوائح[٥]

(١) سورة الكهف : ٤٧ ، ٤٨ .
(٢) سورة الأحقاف : ٣٤ .
(٣) سورة لقمان : ٢٥ .
(٤) سورة العنكبوت : ٦٣ .
(٥) الضارع : الذليل . والمختبط : الذي يأتي إليك للمعروف من غير وسيلة، وتطيح بمعنى تذهب وتهلك؛ والطوائح جمع مطيحة على غير قياس؛ وقياسه : مطاوح أو مطيحات ؛ يصف يزيداً بأنه كان ملجأ للذليل وعوناً للمحتاج الذي أطاحت به المطيحات .

«ليبك» بالبناء للمجهول و«يزيد» نائب فاعل، فلما حذف الفاعل وأقيم المفعول به مقامه، انبعث من الجملة سؤال تقديره : من يبكيه ؟ فجاء الجواب : ضارع لخصومة، وقد حذف منه الفعل لدلالة السؤال المقدر عليه، والمعنى : يبكيه ضارع . . وفضل هذا التركيب أى البناء للمجهول : «ليُبْك يزيدُ ضارع» على البناء للمعلوم : «ليَبْك يزيدَ ضارع»، من عدة أوجه وهى :

١ - تكرار الإسناد، حيث أسند البكاء إلى الفاعل مرتين، إجمالاً وذلك عند البناء للمجهول ثم تفصيلاً وذلك عند ذكر الفاعل : «ضارع» فاعلاً للبكاء المقدر، وتكرار الإسناد أبلغ فى مقام الرثاء وآكد .

٢ - فيه بيان وإيضاح بعد الإبهام . . . والإيضاح بعد الإبهام يكون أوقع فى النفس وأقوى أثراً . .

٣ - وقوع «يزيد» فيه نائب فاعل فيكون ركنا أسند إليه الفعل المبنى للمجهول، وكونه ركناً أولى من جعله فضلة فى التركيب الآخر، إذ مدار الحديث إنما هو عنه . . وعلى الرغم من هذا فإن التركيب الآخر لا يخلو من مزية، وهى تقديم المفعول «يزيد»، فقد جعل النفس تشتاق إلى معرفة الفاعل «ضارع» وتتطلع إليه، فعند مجيئه يقع فى النفس موقعاً حسناً . . . ومن وقوع الكلام جواباً عن سؤال مقدر قوله تعالى : ﴿يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾(١) ، وقوله عز وجل : ﴿كَذَلِكَ يُوحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٢) ، وذلك فى قراءة من قرأ ببناء الفعل للمجهول فى الآيتين . ومنه قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾(٣) وذلك على جعل «لله شركاء» مفعولين للفعل « جعل »، و «الجن» مفعولاً به لفعل محذوف دل عليه سؤال مقدر والمعنى : من جعلوه لله شركاء ؟ فيجاب : الجن . . وفى الآية وجهان آخران وهما :

١ - جعل «الجن» بدلاً من «شركاء» بدل بعض من كل، والمعنى : وجعلوا الجن من الشركاء لله . .

---

(١) سورة النور : ٣٦ .

(٢) سورة الشورى : ٣ .

(٣) سورة الأنعام : ١٠٠ .

٢ - إعراب «لله» جاراً ومجروراً متعلقاً بشركاء مقدماً عليه، و«شركاء الجن» مفعولين قدم فيهما «شركاء» على «الجن» استعظاماً لأن يتخذ لله شريك، جناً كان أم ملكاً أم غيرهما، ومن أجل هذا المعنى قدم لفظ الجلالة : «لله» على الشركاء [١] .

ومن ذلك أيضاً باب نعم وبئس : على جعل المخصوص بالمدح أو الذم مبتدأ خبره محذوف نحو : نعم الرجل عمرو، وبئس الرجل زيد، كأنه قيل : من الممدوح ومن المذموم ؟ فأجيب زيد المذموم وعمرو الممدوح، فكل من زيد وعمرو مبتدأ محذوف الخبر، والقرينة وقوع المخصوص في جواب سؤال مقدر .

❒❒❒

ذكر المسند :

المسند والمسند إليه هما ركنا الجملة، وذكرهما هو الأصل فلا يحذفان إلا إذا وجد في الكلام ما يقتضي العدول عن هذا الأصل - كما مر بك - وقد يوجد في الكلام ما يدل على المسند لو حذف، وعلى الرغم من هذا يذكر ويصرح به لأغراض بلاغية يقتضيها المقام، وأهم هذه الأغراض :

١ - التعريض بغباوة السامع كما في قوله تعالى : ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾[٢]، فلو قال إبراهيم - عليه السلام - في جوابهم : بل كبيرهم هذا لكان المسند مفهوماً لدلالة السؤال عليه - ولكنه عليه السلام - عدل عن الحذف إلى الذكر، تنبيهاً إلى غباوتهم وضعف عقولهم، لأن في الحذف تعويلاً على ذكاء المخاطب وتنويها بفهمه وإدراكه، وانظر إلى اسم الإشارة في قوله : «كبيرهم هذا»، وكأنهم لا يفهمون إلا بالإشارة إلى الفاعل وتعيينه وتحديده وجعله مرئياً أمامهم . . ومن ذلك قولك لمن سألك : من نبيكم ؟ : محمد - عليه الصلاة والسلام - نبينا، فتذكر المسند، ولو حذفته لدل عليه سؤال السائل دلالة واضحة، ولكنك ذكرته تعريضاً بغباوة السامع وإشارة إلى ضعف فهمه، إذ لو كان له فهم لما سأل عن نبينا، فهو

---

(١) الإيضاح ١ / ١٧٩ .

(٢) سورة الأنبياء : ٦٢ ، ٦٣ .

أظهر من أن يتوهم خفاؤه، وكأنه لا يفهم بالقرائن الواضحة، ولا بد من التصريح له بأجزاء الجملة كاملة . .

٢ - ضعف التعويل على القرينة، وذلك بأن يكون فى الكلام قرينة تدل على المسند لو حذف، ولكن ليس لها من القوة والإيضاح ما يلهم السامع المعنى ويضعه أمام عينيه من أول الأمر . . كما إذا سألك سائل : من أشجع العرب وأجودهم فى الجاهلية ؟ فتجيب : عنترة أشجع الجاهليين وحاتم أجودهم، ذاكراً أشجع وأجود حتى لا يلتبس على السائل لو قلت : عنترة وحاتم، من غير أن تعين صفه كل واحد منهما .

٣ - قد يذكر المسند ليتعين بالذكر كونه اسماً فيفيد الثبوت والدوام، أو كونه فعلاً فيفيد التجدد والحدوث، كقولك : زيد منطلق وعمرو ينطلق، إذ لو حذفت المسند الثانى فقلت : زيد منطلق وعمرو، لفهم انطلاق عمرو لدلالة انطلاق زيد عليه، ولكنك آثرت ذكره بصيغة الفعل لتفيد أنه يخالف انطلاق زيد، فانطلاق زيد مستمر وانطلاق عمرو يتجدد شيئاً فشيئا . وكذا تقول : زيد ينطلق وعمرو منطلق، فتذكر الانطلاقين ليتعين كون الأول فعلاً مفيداً للتجدد والحدوث، وكون الثانى اسماً مفيداً للثبوت والدوام، ولو حذفت أحدهما لدلالة الآخر عليه لما تحققت هذه الإفادة .

٤ - التعجب من شأن المسند إليه وذلك عندما يكون المسند من الأمور العجيبة الغريبة كأن يسألك سائل : من يصارع الأسود فتجيبه : زيد يصارع الأسود .

٥ - ومن أهم أغراض ذكر المسند زيادة التقرير والإيضاح، كما فى قوله تعالى : ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ**﴾ [1]، فلو حذف المسند وقيل : «العزيز العليم»، لدل عليه السؤال المصرح به، ولكنه ذكر زيادة للتقرير والإيضاح، وللتسجيل على هؤلاء الكفرة . وإبراز سفاهتهم وضعف عقولهم، حيث عبدوا ما لا يصنع شيئاً ولا يخلق ذباباً، فالخالق هو الله القادر على كل شئ. «خلقهن العزيز العليم» . . ومثله قوله تعالى : ﴿**وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾[2] ، فقد ذكر المسند «يحيها»

---

(١) سورة الزخرف : ٩ .

(٢) سورة يس : ٧٨ ، ٧٩ .

فى الجواب، وكان يمكن الاستغناء عنه لدلالة السؤال عليه، وذلك لزيادة التقرير والإيضاح وفيه أيضاً تنبيه وإشارة إلى غباوة السائل وضعف عقله، إذ لا يسأل هذا السؤال إلا منكر معاند، قد ختم على قلبه وجعل على بصره غشاوة تمنعه من الإدراك وتحجب عنه نور الحق . . وتأمل كيف أوثر التعبير بالاسم الموصول : «الذى أنشأها أول مرة»؛ لأن فى جملة الصلة برهان قاطع ودليل بين، فإن من قدر على إنشاء هذه العظام أول مرة لهو قادر على إحيائها وإعادتها . وتأمل قول الشاعر :

لـولا التقى لجعلـت قبرك كعبتـى وجعلـت قولك سنتـى وكتابـى

تجد أنه لو أسقط «جعلت» الثانية، لفهمت من الأولى ولكنه أراد إبراز الجعل وزيادة تقرير هذا المعنى الذى أراده وإيضاحه، فأعاد ذكر المسند كما ترى . . . وانظر إلى قول الخنساء فى رثاء أخيها صخر :

أعينـى جـــودا ولا تجمـــدا ألا تبكيـــان لصخـــر النـــدى

ألا تبكيـان الجـــواد الجميـــلا ألا تبكيـــان الفتـــى السيـــدا

تجد أن إعادة ذكر البكاء، وتكراره، قد أبرز المعنى وقرره وأوضح آلام الخنساء وصور مدى لهفتها وحزنها على صخر الندى .

❒❒❒

إفراد المسند :

قد يرد مفرداً نحو : محمد عالم وزيد كريم، وقد يرد جملة بها ضمير يعود إلى المبتدأ، وهذا الضمير ليس مسنداً إليه، نحو : محمد أبوه عالم، على أجداده ملوك، وهذا المسند يسميه البلاغيون : مسندا سببياً، أى أن المسند إليه بسبب من المسند ومرتبط به بروابط قوية . . . وقد يرد المسند جملة بها ضمير يعود إلى المسند إليه المتقدم، وهذا الضمير يكون مسنداً إليه أيضاً نحو : محمد يعطى الجزيل، خالد يحمل السلاح، والمقام هو الذى يحدد نوع المسند الذى ينبغى على المتكلم أن يستعمله، فإذا أراد المتكلم مجرد الإخبار عن المسند إليه، أورد المسند مفرداً، فيقول : محمد عالم . . . . على جواد .

وإن أراد وصله بآبائه وأنه ورث المآثر والأمجاد عنهم، أورده سببياً، فيقول : محمد أبوه كريم . . خالد آباؤه أبطال .

وإن أراد تقوية الحكم أورده جملة غير سببية، فيقول : محمد يعطى الجزيل خالد يجود بماله . . . هم يضربون الكبش .

❐❐❐

إيراد المسند فعلا أو اسما :

لا يخفى عليك الفرق بين الاسم والفعل، فالفعل يدل على حدث وقع فى زمن نحو : قام ويقوم، والاسم يدل على حدث مجرد من الزمن نحو : قائم وذاهب . . راكع وساجد، كما أن الفعل المضارع يفيد الحدوث والتجدد، والاسم يفيد الثبوت والدوام، نحو : زيد ينطلق وزيد منطلق، فالأول أفاد انطلاقاً يتجدد، والثانى أفاد انطلاقاً ثابتاً . ولذا فإن المتكلم عندما يورد المسند فعلاً فهو يقصد إما تقييده بأحد الأزمنة نحو : فاز المجد . . . ويجاهد الجندى، فالأول أفاد حدوث الفوز فى الزمن الماضى، والثانى أفاد حدوث الجهاد فى زمن الحال واستمرار حدوثه فى الزمن المستقبل . . وإما إفادة الحدوث والتجدد، وذلك إنما يكون فى الفعل المضارع فهو يفيد التجدد الاستمرارى بمعونة السياق وقرائن الأحوال، وغالباً ما يكون ذلك فى مقامات المدح والفخر . . انظر إلى قول طريف بن تميم :

أو كلما وردت عكاظ قبيلة ... بعثوا إلى عريفهم يتوسم [1]

يقول : إنه شجاع مقدام، له موقف مع كل قبيلة، فالقبائل جميعها تطلبه، وكلما وردت سوق عكاظ قبيلة بعثوا عريفهم يتفرس الوجوه ويتوسمها لعله يهتدى إليه فيثأر منه، وتلاحظ أن الشاعر قد استخدم الفعل المضارع «يتوسم» لإفادة التجدد والحدوث فالعريف دائم المراجعة والتأمل وإعادة النظر فى وجوه القوم، يحدث منه التوسم شيئاً فشيئاً، ولو قال : بعثوا إلى عريفهم متوسماً لما تحققت هذه الإفادة ولما كان هنالك إشعار بحالة التجدد هذه . . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ

(١) العريف : القيم الذي يقوم بأمر القوم .

خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[1] فالرزق من الله متجدد ومستمر، يتجدد بتجدد العباد، لا ينقطع ولا يزول، وهذا يلائمه التعبير بالفعل «يرزقكم» ولو قيل: «هل من خالق غير الله رازقكم..» لما أفيدت هذه الإفادة، ومنه قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾[2]، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾[3]، فالمحو والإثبات يتجددان ومستمران. وتسبيح الجبال يحدث آنا بعد آن ويقع حيناً بعد حين وهذا يناسبه التعبير بالفعل الذى آثره النظم الكريم: «يمحو.. يثبت.. يسبحن».. وعندما يورد المتكلم المسند اسماً فإنه يقصد به إفادة الثبوت والدوام، وذلك يكون بمعونة السياق وقرائن الأحوال، إذ الاسم يدل على الحدث مجرداً من الزمان، والمتكلم قد يسوقه فى سياق ترشد قرائنه إلى إفادة الثبوت والدوام والاستمرار.. انظر وتأمل قول النضر بن جؤية:

قالت طريفة ما تبقى دراهمنا	وما بنا سرف فيها ولا خرق
إنا إذا اجتمعت يوماً دراهمنا	ظلت إلى طرق الخيرات تستبق
لا تألف الدرهم المضروبَ صرتُنا	لكن يمر عليها وهو منطلق[4]

تجد أن الشاعر يمدح قومه بالكرم والعطاء، فهم لا يبقون من المال بقية، وصرتهم لا تألف الدرهم، وإنما يمر عليها الدرهم منطلقاً ومندفعاً إلى الخيرات.. مثل هذا المقام يلائمه التعبير بالاسم «منطلق»، لأنه يفيد انطلاق الدرهم انطلاقاً ثابتاً ومستمراً، ولو قال: يمر عليها وهو ينطلق لكان المعنى أن انطلاقه يتجدد، وهذا يعنى أنهم يمسكونه زمناً ما، ولا يخفى عليك عدم مناسبة ذلك لمقام المدح.. والبيت يروى برفع الدرهم ونصب الصرة، وبنصب الدرهم ورفع الصرة، والرواية الثانية أبلغ؛ لأنها تدل على غناهم وأن الدراهم تمر والصرة لا تألفها، أما الرواية الأولى ففيها إيهام أنهم فقراء وأن الصرة خالية لا يألفها الدرهم المضروب. وخذ قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾[5]

---

(١) سورة فاطر: ٣.

(٢) سورة الرعد: ٣٩.

(٣) سورة ص: ١٨.

(٤) الدرهم المضروب: المسبوك.

(٥) سورة الكهف: ١٨.

فلا يخفى عليك ما يفيده الاسم : «باسط» من ثبوت البسط ودوامه واستمراره وأنه لو قيل : يبسط ذراعيه لما أدى هذا الغرض . . وتأمل قوله عـز وجـل : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾[1]، تجد أنه لما كان الأصل في الطيران هو صف الأجنحة ، فقد عبر عنه بالاسم الذى يفيد الثبوت والدوام ، ولما كان القبض طارئاً على البسط فقد عبر عنه بالفعل الذى يفيد الحدوث والتجدد . . يقول الزمخشرى : «فإن قلت : لم قيل : ويقبضن ولم يقل : وقابضات ؟ ، قلت : لأن الأصل فى الطيران هو صف الأجنحة ؛ لأن الطيران فى الهواء كالسباحة فى الماء ، والأصل فى السباحة مد الأطراف وبسطها ، وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك ، فجئ بما هو طار غير أصل بلفظ الفعل ، على معنى أنهن صافات ويكون منهن القبض تارة بعد تارة ، كما يكون من السابح»[2] .

والجملة كالمفرد فى هذا الحكم ، فإذا كان الاسم يفيد الثبوت والدوام فى نحو قولك : زيد منطلق ، فكذلك الجملة الاسمية ، وإذا كان الفعل يفيد التجدد والحدوث فى نحو قولك : ينطلق زيدوفكذلك الجملة الفعلية ، ولكون الجملة الاسمية تفيد الثبوت والدوام كانت آكد من الجملة الفعلية ، ومن أجل هذا فإنه يحسن إيثار التعبير بالجملة الاسمية فى المقامات التى تتطلب التأكيد . تأمل قوله تعالى : ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾[3] ، تجد أن المنافقين لكونهم قد أظهروا الايمان خوفاً ومدارة للمؤمنين ، وليس عن يقين راسخ وثابت ، فقد عبروا عنه بالجملة الفعلية . «آمنا» ، ولما كان الكفر ثابتاً وراسخاً فى عقولهم فقد خاطبوا شياطينهم بالجملة الاسمية المؤكدة : «إنا معكم إنما نحن مستهزءون» . . . وقوله تعالى : ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ [4]، كان الوثنيون الذين عبدوا الأصنام من عادتهم أنهم لا يدعون تلك الأصنام إذا نزلت بهم شدة بل يدعون اللّه . . ولذا ناسب التعبير عن صمتهم بالجملة الاسمية المفيدة للثبوت والدوام وتأكيد الحكم ، ولما كان الدعاء غير معتاد ، فقد عبر عنه بالجملة الفعلية التى لا تفيد ثبوتاً ، والمراد : سواء عليكم أأحدثتم الدعاء على غير

(١) سورة الملك : ١٩ .

(٢) الكشاف ٤ / ١٣٨ .

(٣) سورة البقرة : ١٤ .

(٤) سورة الأعراف : ١٩٣ .

عادة، أم بقيتم مستمرين على عادة صمتكم . . . وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾[1] فالأصل : نسلم سلاماً فقال سلام عليكم، تلاحظ أن تحية إبراهيم عليه السلام بالجملة الاسمية، وتحيتهم بالجملة الفعلية، وكأنه – عليه السلام – أراد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به أخذاً بآداب التحية فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[2] . . وخذ قوله عز وجل : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاعِبِينَ﴾[3]، أرادوا : أحدث منك مجئ بالحق ولم تكن كذلك، أم أنت مستمر فى لعبك الذى عهدناه فيك ؟ عبروا عن مجيئه بالحق بالفعل الذى يفيد التجدد وعن اللعب بالجملة الاسمية التى تفيد تأكيد لعبه واستمرار أحوال لهوه – فى اعتقادهم ولا يخفى عليك ما وراء ذلك من عنادهم وإعراضهم عن الإذعان للحق وقبول الهداية . . . وقوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[4] قولهم : «آمنا» إخبار بوقوع الإيمان وإحداثه، ولكونهم كاذبين فى دعواهم، فقد نفاها الله عز وجل بالجملة الاسمية المؤكدة «وما هم بمؤمنين» . . وقول عز وجل : ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾[5] أرادوا حدوث خروج فأجيبوا بدوام البقاء واستمرار العذاب . . وقوله تعالى : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾[6]، عبر عن الصادقين بالفعل لأنهم يحدثون صدقاً بعد صدق فى كل موطن، وعبر عن الكاذبين بالاسم، لأن ما صدر منهم كذب مستمر وجار على عادتهم الدائمة المستمرة وناشئ عن رسوخ فى الكذب وثبات . .

تنكير المسند وتعريفه :

ومن أحوال المسند أنه يرد أحياناً نكرة وأحياناً معرفاً، وتنكيره أو تعريفه إنما يكون لإفادة أغراض يقصد إليها البلاغى، فمن أغراض تنكيره : عدم إرادة القصر أو العهد، كقولك :

(١) سورة هود : ٦٩ .
(٢) سورة النساء : ٨٦ .
(٣) سورة الأنبياء : ٥٥ .
(٤) سورة البقرة : ٨ .
(٥) سورة المائدة : ٣٧ .
(٦) سورة التوبة : ٤٣ .

محمد كاتب، وعمرو شاعر، إذا أردت مجرد الإخبار عنهما بالكتابة والشعر، أما إذا أردت التخصيص قلت: محمد الكاتب، وعمرو الشاعر. وكذلك إذا أردت كاتباً أو شاعراً معهوداً قلت: فلان الكاتب أو الشاعر، فتعرف المسند فى الحالتين، كما سيأتى.

ومنها إرادة التفخيم والتعظيم كما فى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1] أى: هو هدى، فتنكير المسند «هدى» أفاد تعظيم هداية القرآن وتفخيمها وأنها بلغت درجة لا يمكن إدراك كنهها... ومثله قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[2]، وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾[3]، ولا يخفى عليك ما فى تنكير المسند فى الآيتين من إفادة التفخيم والتعظيم «كتاب.. قرآناً.. هدى وشفاء.. وقر.. عمى»، التنكير كما ترى أفاد تفخيم القرآن وتعظيم هدايته والتنويه بشأنه. ومنها إفادة التحقير والتهوين كما ترى فى قول الشاعر:

غـدرتَ بأمـر كنتَ أنت دعوتنـا	إليه وبئس الشيمةُ الغدر بالعهـد
وقد يترك الغدرَ الفتـى وطَعامُـه	إذا هو أمسى حَلبةٌ من دم الفَصْد

فتنكير المسند «حلبة» أفاد التحقير، والمعنى أن الوفى لا يغدر ولو أخنى عليه الدهر وأمسى طعامه بهذه الحقارة «حلبة من دم الفصد». إلى غير ذلك من أغراض تنكير المسند.

وأما تعريفه فيكون كذلك لأغراض شئ منها: إرادة العهد بمعنى أن يكون المسند معلوماً للمخاطب معهوداً له، ولكنه لا يعلم المسند إليه، وذلك بأن يعلم مخاطبك أن انطلاقاً وقع ولكنه لا يدرى ممن، فتقول له: «زيد المنطق»، تعريف المسند هنا أفاد إرادة العهد، أى: الانطلاق المعهود لدى صاحبك، فإذا كان لا يعهد انطلاقاً ولا يعلمه قلت له: «زيد منطلق»، تريد مجرد إخباره بوقوع انطلاق من زيد، ولذا كان من الخطأ أن تقول: زيد المنطلق وعمرو؛ لأنك تتحدث عن انطلاق معروف للمخاطب ومعين فإذا أثبته لزيد، لا يصح لك أن تثبيته ثانية لعمرو، لأن هذا تناقض. فالصواب أن تقول: زيد منطلق

---

(١) سورة البقرة: ٢.

(٢) سورة الأنعام: ١٥٥.

(٣) سورة فصلت: ٤٤.

وعمرو . . أو تقول زيد وعمرو المنطلقان، ويتضح لك هذا أكثر عندما تقول مثلاً : امرؤ القيس هو القائل :

قفا نبك من ذكـرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

لا يصح أن تقول : امرؤ القيس هو القائل هذا البيت وأبو ذؤيب الهذلى، إنك إن قلت ذا حاولت محالاً وقلت ما ليس بقول .

ومن أغراض تعريف المسند . إفادة قصره على المسند إليه، تقول : زيد الشاعر وعمرو الشجاع وحاتم الجواد . تريد بهذا قصر المسند على المسند إليه قصراً ادعائياً بهدف المبالغة فى الوصف، ويكون ذلك غالباً فى مقامات المدح والفخر والرثاء ونحوها . . انظر إلى قول المتنبى :

ودع كل صوت دون صوتى فإننى أنا الصائح المحكى والآخر الصدى

أراد المبالغة فى قوة شاعريته، فقصر الصياح بمعنى إنشاد الشعر عليه قصراً ادعائياً، فهو الصائح وغيره من الشعراء يرددون صوته، وينهجون نهجه . ومن الخطأ أيضاً أن تقول فى مثل هذا : عمرو الشجاع وخالد، إذ كيف تخص عمراً بالشجاعة ثم تشرك فيها غيره، فالصواب أن تقول : عمرو وخالد الشجاعان أو تنكر المسند فتقول : عمرو شجاع وخالد

ومن ذلك قول ابن الدمينة :

ونحن التاركـون على سليـل مع الطيـر الخوامـع يعترينـا [1]

يريد أنهم هم الذين قتلوا سليلاً وتركوهم طعاماً للطير الخوامع، وهم الذين فعلوا ذلك دون سواهم . . . وتأمل قول عمرو بن كلثوم :

وقد علـم القبائـل من معـد إذا قبـب بأبطحهـا بنينـا
بأنا العاصمـون إذا أطعنـا وأنـا الغامـرون إذا عصينا
وأنـا المنعمـون إذا قدرنـا وأنـا المهلكـون إذا أتينـا
وأنـا الحاكمـون بما أردنـا وأنـا النازلـون بحيث شينا

---
(١) الخوامع : الضباع .

تجد أنه يفخر بقصر تلك الصفات عليهم قصراً حقيقياً ادعائياً بمعنى أنها لا تتعداهم ولا تتجاوزهم إلى غيرهم على سبيل المبالغة والادعاء . . . وخذ قوله تعالى : ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾[1] ، أى : أنت الأعلى لا هم ، فتعريف المسند أفاد قصره على المسند إليه قصراً إضافياً بمعنى أنه لا يتعداه إلى هؤلاء السحرة .

ومنها أن يعرف المسند بالموصولية فيفيد بالإضافة إلى قصره على المسند إليه دقائق ولطائف يدركها اللماح الذواقة ، الخبير بالأساليب الرفيعة والتعبيرات الجيدة . . انظر إلى قول المتنبى :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى   وأسمعت كلماتى من به صمم

أنام ملء جفونى عن شواردها   ويسهر الخلق جراها ويختصم

تجد أن تعريف المسند بالموصوليه أفاد بالإضافة إلى قصر مدلول الصلة على المتنبى ؛ اشتهار جملة الصلة وانشغال الناس بها فهى أمر معروف بين ، الناس جميعاً يعرفونه ولا أحد يجهله . وتأمل الآيات الكريمة : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2] ، وقوله عز وجل : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[3] .

فالمسند فى الآيات الكريمة مقصور على المسند إليه قصراً حقيقياً ، ثم إن إيثار التعريف بالموصولية أفاد انشغال الخلق بتلك الأمور المثارة فى جملة الصلة واشتهارها بينهم وخوضهم فيها وترددها على الأسماع وتلك ميزة يمتاز بها التعريف بالاسم الموصول .

ومنها أن يقيد المسند بقيد فيفيد تعريفه عندئذ قصره مقيداً بذلك القيد على المسند إليه وكأنه أى : المسند قد صار نوعاً خاصاً وجنساً برأسه . تقول : زيد الكريم حين يبخل الناس وهو الوفى حين لا تظن نفس بنفس خيراً وهو المقدام حين تفر الأبطال ، فالمقصور ليس

---

(١) سورة طه : ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) سورة المؤمنون الآيات : ٧٧-٨٠ .

(٣) سورة الأنبياء : ٣٣ .

مطلق الكرم وإنما هو نوع خاص منه وكذا الوفاء والشجاعة فى المثالين الأخيرين . . . ومن ذلك قول الأعشى :

هو الواهب المائة المصطفاة إما مخاضاً وإما عشاراً [1]

فإنه قصر هبة المائة من الإبل فى إحدى الحالتين : مخاضاً أو عشاراً لا هبتها مطلقاً، ولا الهبة المطلقة، فالهبة مقيدة بالمائة المصطفاة، والمائة مقيدة بكونها إما مخاضاً وإما عشاراً . . ومنها إفادة التقرير وبيان أن ثبوت المسند للمسند إليه أمر مقرر بارز، وظاهر ظهوراً لا يخفى على أحد . . كما فى قول حسان :

وإن سنام المجد من آل هاشم بنو بنت مخزوم ووالدك العبد

أراد بتعريف العبد تقرير صفة العبودية لوالده . وأنها أمر مشهور وذائع لا يخفى على أحد، ولم يرد قصر العبودية على الوالد لا حقيقة ولا ادعاء . . . ومثله قول الخنساء فى رثاء صخر :

إذ قبح البكاء على قتيل رأيت بكاءك الحسن الجميلا

لم ترد قصر صفة الحسن على بكائها صخراً، وإنما أرادت أن تقرر لبكائه صفة الحسن وأن تجعل حسن بكائه بيناً ظاهراً لا يجهله أحد ولا ينكره منكر . .

ومنها الإشارة إلى بلوغ المسند إليه فى الاتصاف بالمسند مبلغ الكمال كقولك : «هو البطل المحامى»، تريد أن تقول للمخاطب : هل تصورت البطل المحامى وكيف يكون الإنسان حين يبلغ فى هذه الصفة مبلغها الأعلى ؟، إذا تصورت هذا فى نفسك فعليك بفلان فهو الذى تجد فيه الصفة كما تمثلتها وتخيلتها . . وكذا تقول : هو الحامى لكل حمى، والمرتجى لكل ملمة والدافع لكل مكروه . . ومن ذلك قول ابن الرومى .

هو الرجل المشروك فى جل ماله ولكنه بالمجد والحمد مفرد

يريد منك أن نسبح بخيالك فى تصور رجل لا يتميز عن عفاته وطالبى معروفه فهو وهم سواء يأخذون من المال ما يشاءون، فإذا حصلت صورته فى مخيلتك فاعلم أنه ذلك الرجل . . ومثله قول الفرزق فى هجاء الحجاج : .

(١) المخاض : الحوامل من النوق اسم جمع ويقال للواحدة بنت مخاض والعشار : جمع عشراء وهي من النوق كالنفساء من النساء أو التي مضى لحملها عشرة أشهر .

فلولا بنو مروان كان ابن يوسف كما كان عبداً من عبيد إياد

زمان هو العبد المقر بذلة يراوح أبناء القرى ويغادى

أراد بقوله : «هو العبد» : بلوغه الغاية القصوى فى الاتصاف بصفة العبودية وذل الرق فى هذا الزمان حتى خلصه بنو مروان من قيدها فصار له شأن وكيان . .

ومنها إفادة تعظيم المسند إليه وذلك عند إضافة المسند إلى ما يكسبه التشريف والتعظيم، ويسمو به، ويرفع شأنه، كما فى قوله تعالى : ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [1]، وقوله جل وعلا : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[2] فقد اكتسب المسند إليه بإضافة المسند إلى لفظ الجلالة التعظيم، وعلو منزلته ورفعة شأنة ولا يخفى عليك ما فى تنكير «أشداء» و «رحماء» من تفخيم وتعظيم .

تخصيص المسند بالوصف أو بالإضافة :

قالوا : إن الغرض من تخصيص المسند بالوصف أو الإضافة هو تربية الفائدة وتكثيرها، وجعلها أتم وأكمل، أو بمعنى آخر تكثير المعنى والدلالة على غزارته، لأن زيادة المبنى كما قالوا تدل على كثرة المعنى، تقول مثلاً : امرؤ القيس شاعر فارس وزهير شاعر حكمة فقد كثر المعنى الأول بالوصف وتمت الفائدة فى الثانى بالإضافة . . ومنه قول الشاعر :

حمى الحديد عليهم فكأنه ومضان برق أو شعاع شموس

وقول الآخر :

وكنت امرأ لا أسمع الدهر سبة أسب بها إلا كشفت غطاءها

فقد خصص المسند فى البيت الأول بالإضافة : «ومضان برق أو شعاع شموس»، وخصص فى البيت الثانى بالوصف : «امرأ لا أسمع الدهر سبة أسب بها . .» ومنه قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[3] ، فقد

(١) سورة مريم : ٣٠ .

(٢) سورة الفتح : ٢٩ .

(٣) سورة الأحزاب : ٤٠ .

خصص المسند بالإضافة فى قوله : «أبا أحد من رجالكم» لتكثير الفائدة وعمومها، فهو عليه الصلاة والسلام ليس أبا لأحد منهم، ثم عرف المسند بالإضافة فى قوله : «رسول الله وخاتم النبيين»، لإفاده التعظيم وشهرة اتصافه صلى الله عليه وسلم بتلك الصفة . .

تقديم المسند :

المسند إليه إذا كان مبتدأ فرتبته التقديم نحو : زيد قائم وعمرو منطلق وخالد فى الميدان، وإذا كان فاعلا فرتبته التأخير أى الوقوع بعد الفعل «المسند» نحو قام زيد، ويعطى محمد الجزيل، فإذا قدم المسند إليه على خبره الفعلى كان ذلك لأسرار بلاغية - كما درست -، وكذلك إذا قدم المسند على المسند إليه الذى رتبته التقديم «المبتدأ» فإن هذا التقديم يكون لأسرار ومزايا بلاغية أهمها :

١ - إفادة القصر أى قصر المسند إليه على المسند المقدم كما فى قوله تعالى : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[١] ، والمعنى : إن دينكم الذى هو الإشراك مقصور على كونه لكم لا يتجاوزكم إلى، ودينى الذى هو التوحيد مقصور على كونه لى لا يتجاوزنى إليكم . . فالمقصور عليه هو المسند المقدم والمقصور هو المسند إليه المؤخر، وكذا القول فى الآيات الكريمة : ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[٢] . . ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾[٣] . . ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾[٤] . . ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾[٥] ، فالتقديم فى هذه الآيات الكريمة أفاد قصر المسند إليه على المسند المقدم . . ومنه قوله تعالى فى وصف خمر الجنة : ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾[٦] ، فتقديم الجار والمجرور فى قوله : «لا فيها غول»، أفاد نفى الغول عن خمر الجنة وإثباته

(١) سورة الكافرون : ٦ .
(٢) سورة الأنبياء : ٩٧ .
(٣) سورة الغاشية : ٢٥ ، ٢٦ .
(٤) سورة القيامة : ٢٩ ، ٣٠ .
(٥) سورة القيامة : ١٢ .
(٦) سورة الصافات : ٤٥ - ٤٧ .

لخمور الدنيا أو بمعنى آخر، أفاد قصر عدم الغول على خمر الجنة بحيث لا يتجاوزه إلى خمور الدنيا، ولو قيل : «لا غول فيها » لأفاد ذلك مجرد نفى الغول عن خمر الجنة دون تعرض لخمور الدنيا، ولذا جاء قوله تعالى : ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[1] . . بدون تقديم إذ المراد نفى الريب عن القرآن دون تعرض لغيرة من الكتب السماوية ولو قيل : «لا فيه ريب»، لأدى هذا إلى نفى الريب عن القرآن وإثباته لغيره وهو غير مراد . . . ومن أقوالهم قول أبى العلاء :

تعب كلهـا الحيـاة فـمـا أعـ ـجب إلا من راغـب فى ازديـاد

أفاد التقديم قصر الحياة على التعب قصراً ادعائياً، أى : أن ما فيها من فترات الراحة والأنس والمسرة لا اعتداد به . .

وقول الآخر :

رضينـا قسمـة الجبـار فينا لنـا علـم وللأعـداء مـال

وقوله :

وليس بمغـن فى المـودة شافـع إذا لـم يكـن بين الضلوع شفيع

وقوله :

إذا نطـق السفيـه فلا تجبـه فخيـر من إجابتـه السكـوت

ولا يخفى عليك معرفة موطن التقديم والمقصور والمقصور عليه فى هذه الأبيات :

٢ - التنبيه من أول الأمر على أن المسند خبر لا نعت، كما فى قول حسان بن ثابت - رضى الله عنه - فى مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - :

له همـم لا منتهـى لكبارهـا وهمتـه الصغـرى أجـل من الدهر

فإنه لو قال : «همم له لا منتهى لكبارها»، لتوهم أن الجار والمجرور «له» نعت لا خبر، لأن النكرة تحتاج إلى الوصف حتى يكون مسوغاً للابتداء بها، ولتوهم أن الخبر هو الجملة بعده، وهذا لا يتفق مع غرض المدح، لأن الشاعر يريد مدح الرسول صلى الله عليه

---

(١) سورة البقرة : ١ ، ٢ .

وسلم لا مدح همه . . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1] حيث قدم الجار والمجرور «لكم» على المسند إليه «مستقر» لدفع توهم أنه نعت وليس بخبر . . .

٣ – إفادة التشويق إلى ذكر المسند إليه ، كما في قوله صلى الله عليه وسلم : «منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال» ، وكقول محمد بن وهيب في مدح أبي إسحاق :

ثلاثة تشرق الدنيـا ببهجتهـا   شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

وقول الآخر :

ثلاثـة يذهبن الغـم والحـزن   المـاء والخضـرة والوجـه الحسن

وقول الثالث :

ثلاثـة ليـس لهـا إيـاب   الوقـت والجمـال والشبـاب

وقول ابن الرومي :ـ

وكالنار الحيـاة فمـن رمـاد   أواخرهـا وأولهـا دخـان

فتقديم المسند في هذه الشواهد أفاد التشويق إلى معرفة المسند إليه والإفصاح عنه ، ولا يخفى عليك القصر في البيت الأخير ، أي : قصر الحياة على كونها ناراً لا استقرار فيها .

٤ – إظهار التفاؤل . . كما في قول الشاعر :

سعـدت بغرة وجهـك الأيـام   وتزينـت ببقائـك الأعـوام

فالمسند «سعدت» قد قدم ليفيد التفاؤل لأنه من جنس السرور والسعادة وكذلك «تزينت» قدم على المستند إليه «الأعوام» لنفس الغرض . .

٥ – إظهار التألم والتضجر . . كما في قول المتنبي :

ومن نكد الدنيا على الحـر أن يرى   عـدوا لـه مـا من صداقتـه بـد

إلى غير ذلك من الأغراض التي تقتضي تقديم المسند على المسند إليه . .

(١) سورة الأعراف : ٢٤ .

تقييد الفعل بأدوات الشرط : إن و إذا ولو :

اهتم البلاغيون بإن وإذا ولو من أدوات الشرط، وذلك لما يكمن وراء تقييد المسند «الفعل» بهذه الأدوات الثلاث من اعتبارات بلاغية وملاحظات دقيقة . .

قال البلاغيون : إن «إن وإذا» للشرط فى الاستقبال، بمعنى تقييد حصول الجزاء بحصول الشرط فى المستقبل نحو إن تزرنى أكرمك . . إذا جاءك الفقير فأحسن إليه، وتختلف «إن» عن «إذا» فى أن «إذا» تستعمل فى الشرط المقطوع بوقوعه، وذلك بأن يكون الشرط مجزوماً بوقوعه فى المستقبل نحو : إذا غربت الشمس حل الظلام . . إذا أذن المؤذن أسرع المسلم للصلاة . . أو يظن ظناً قوياً وقوعه فيه نحو : إذا جئتنى أكرمتك، إذا كنت تعتقد اعتقاداً قوياً أنه سيأتى وترجح مجيئه . . ولذا كان الغالب فى الفعل المستعمل مع إذا أن يكون بلفظ الماضى للإشعار بتحقيق الوقوع على عدم مجيئه . . أما «إن» فتستعمل فى الشرط غير المقطوع بوقوعه، بأن يتردد فى وقوعه فى المستقبل، أو يظن عدم وقوعه ويترجح على الوقوع أو يكون مما لا يقع إلا نادراً، كما سترى فى الشواهد . . فإذا كان الشرط مجزوماً ومقطوعاً بعدم وقوعه فى المستقبل، فلا تستعمل فيه «إن» ولا « إذا» إلا لنكتة بلاغية . كما سنبين فى الشواهد . . . انظر إلى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ﴾[1] ، تلاحظ أنه قد استعملت «إذا» فى جانب الحسنة، و «إن» فى جانب السيئة، وذلك لأن مجىء الحسنة أمر مقطوع به، محقق الوقوع، إذ المراد بالحسنة، الحسنة المطلقة عن التقييد بنوع معين، ولذا عرفت تعريف الجنس لتشمل كل فرد من أفراده، وكل نوع من أنواع الحسنات، وشأن هذا أن يقع كثيراً لاتساعه وكثرة أفراده وأنواعه، ولكون مجىء الحسنة محققاً ومقطوعاً بوقوعه، فقد عبر عنه بلفظ الماضى : «جاءتهم الحسنة» أما إتيان السيئة فغير محقق الوقوع، إذ نادراً ما تقع السيئة بالنسبة إلى الحسنة، ولذا استعملت «إن» معها، ونكرت السيئة لإفادة التقليل، وعبر عن الإصابة بلفظ المضارع «تصبهم» المشعر بعدم تحقق الوقوع . . وتأمل قوله تعالى : ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾[2] ، تجد أنه قد نكرت الرحمة «رحمة»، وعبر عن الإذاقة بالماضى « أذقنا»، واستعملت «إذا»، وذا للدلالة على أن إذاقة الناس قدراً قليلاً من الرحمة أمر مقطوع به . . ثم استعملت

(١) سورة الأعراف : ١٣١ .

(٢) سورة الروم : ٣٦ .

«إن»، والمضارع «تصبهم» ونكرت السيئة «سيئة» لإفادة أن إصابة السيئة لهم أمر غير مقطوع به، فالله عز وجل لا يؤاخذهم بما كسبوا بل يعفو عن كثير، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[1] .. وتأمل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[2]، وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾[3]، تجد أن قوله عز من قائل: «أذاقهم منه رحمة» «أنعمنا على الإنسان»، مقطوع بوقوعه، وهذا واضح كما بينا فى الآيتين السابقتين، ولذا استعملت «إذا» فى الموضعين، أما قوله تعالى: «إذا مس الناس ضر»، «إذا مسه الشر» .. فقد يتلبس عليك التعليق «بإذا» فيهما، وتقول: إن مس الضر أو الشر ينبغى أن يكون نادراً وغير مقطوع بوقوعه، فالموضع موضع «إن» لا «إذا»، ولكن هذا الالتباس سرعان ما يزول عندما تتأمل السياق فى الآيتين وتعرف أن الحديث عن الإنسان الكافر الذى إذا مسه شر أو ضر دعا ربه منيباً إليه، دعاه دعاء عريضاً، فإذا ما أنعم الله عليه، أعرض ونأى بجانبه وكفر بأنعم ربه، ولهذا توعدهم الله عز وجل «فتمتعوا فسوف تعلمون»، فمثل هذا الكافر ينبغى أن يكون مس الضر أو الشر له فى حكم المقطوع به، وتلاحظ التعبير بلفظ «المس» فى الآيتين وهو أقل من الإصابة أو الإذاقة، ثم تنكير الضر «ضر»، وتعريف الشر بأل الجنسية المفيدة أى نوع من أنواع الشر، فإذا ما أضفت ذلك إلى الإنسان المتحدث عنه وقد وقفت على حقيقته، تيقنت أن الشرط ينبغى أن يكون مجزوماً به ومقطوعاً بوقوعه ... وعندما تتأمل الشعر الجيد تجد للتعليق بهاتين الأداتين موقعاً لطيفاً ومذاقاً حلواً .. اقرأ قول أبى الطيب المتنبى:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

تجده قد استخدم «إذا» فى جانب إكرام الكريم، فدل على أنه أمر محقق، وينبغى أن يوجد دائماً وأن يقع كثيراً، ثم استخدم «إن» فى جانب إكرام اللئيم، فدل على أنه نادراً ما يقع، لأن النفوس تنفر من اللئام وتأبى إكرامهم ... وتأمل قوله فى بيت آخر مخاطباً سيف الدولة:

(١) سورة فاطر: ٤٥ .
(٢) سورة الروم: ٣٣، ٣٤ .
(٣) سورة فصلت: ٥١ .

أجـــزنى إذا أنشدت شعراً فإنما　　　　بشعـــرى أتـاك المادحـون مـردداً

ودع كل صوت دون صوتى فإننى　　　　أنا الصائح المحكى والآخر الصدى

تجده قد استعمل «إذا» فدل باستعمالها على قوة شعــره، وكثرة إنشـــاده، وذيوعه فى الناس، حيث غلب شعر الشعراء فصاروا يرددونه وصــار هو الصائح المحكى . . . وخذ قول قعنب بن أم صاحب فى الهجاء :

صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به　　　　وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

تجده قد دل «بإذا» على أن سماع الخير عنه أمر محقق ويقع كثيراً، ودل «بإن» على أن ذكره بسوء نادراً ما يقع، فهو لا يفعل إلا ما يحمد عليه ويستحق به الثناء وشكر الشاكرين . . وقول محمد بن المولى فى مدح يزيد بن قبيصة والى مصر فى عهد أبى جعفر :

وإذا صنعـــت صنيعـــة أتممتـهــا　　　　بيديـــن ليس نداهمـــا بمكـــدر

تراه قد دل «بإذا» على كثرة صنائعه وتحقق فعله الخير وسد حاجات المحتاجين . . ثم تأمل قول سعد بن ناشب :

فيالـــرزام رشحــــوا بى مقدمــاً　　　　إلى الموت خواضـــاً إليـه الكتائبا

إذا هم ألقـى بين عينيـــه عزمـــه　　　　ونكب عن ذكر العواقـــب جانباً

تجده قد دل باستخدام «إذا» على كثرةهمه وتحقق وقوعه، فهو لا يخشى العواقب بل يدعها جانباً ويسرع إلى الموت خواضاً إليه الكتائبا وتدبر تلك الصورة البديعة : «ألقى بين عينيه عزمه »حيث جسد العزم وأبرزه محسوساً مشاهداً أمام عينيه . . . وعد إلى النظم الكريم : فتأمل قوله تعالى : ﴿**أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾(١) ، تجد أن إيثار الأداة"«إن» بالتعبير أفاد أن إرادة الضر غير محققة الوقوع وأنها نادراً ما تقع، ومما يقوى هذا استخدام المضارع «يردن»، ولفظ «الرحمن» الذى ينبئ بالرحمة وعدم إرادة الضر، ثم تنكير الضر «بضر» لإفادة التقليل ولا يخفى عليك ما فى الآية من التعريض، إذ المراد : أتتخذون من دونه آلهة إن يردكم الرحمن بضر لا تغن عنكم شفاعتهم شيئاً ولا ينقذوكم إنكم إذاً لفى ضلال مبين

---

(١) سورة يس : ٢٣ ، ٢٤ .

. . وإجراء الآية على التعريض فيه ترغيب لهؤلاء فى قبول الحق واستمالة لهم نحو الهداية والإيمان بالله وحده، لأنه ترك التصريح بنسبتهم إلى الباطل والضلال، ومحض النصح لهم حيث لم يرد لهم إلا ما يريده لنفسه [1] . . ومما جاء من ذلك وقد أريد به التعريض أيضاً قوله تعالى : ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[2] ، وقوله : ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾[3] ، وقوله عز وجل : ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[4] ولا يخفى عليك السر البلاغى الكامن وراء استخدام «إن» فى الآيات الكريمة، وللتعريض فى الآيات الكريمة بالإضافة لما سبق، فائدة أخرى جليلة وهى الإشارة إلى سلطان الألوهية القاهر، فمحمد صلى الله عليه وسلم، وقد قربه ربه واصطفاه، وهؤلاء الصفوة من المهاجرين والأنصار يجرى عليهم ما يجرى على غيرهم؛ فالمعول عليه وأساس التفاضل بين البشر إنما هو التقوى والعمل الصالح، وفى هذا تعميق وتحديد لصفة البشرية، وحفظ لعقيدة التوحيد حتى لا يشوبها ما شابها فى الشرائع الأخرى حيث قالت اليهود : عزير ابن الله، وقالت النصارى : المسيح ابن الله، ولهذا المعنى ترى القرآن الكريم يذكر الأنبياء بلفظ العبد : ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾[5] ، ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾[6]، وذلك للإشارة إلى أن البشرية جميعها سواء فى العبودية . وإلى أن فضيلة هؤلاء إنما كانت بالعبادة [7] .

وعد إلى التعليق «بإن» و «وإذا» فاقرأ قوله تعالى : ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[8] تجد أن التعليق بإن فى الآية الكريمة، أفاد إعراض هؤلاء الكفرة وشدة رفضهم وتعاميهم عن رؤية الآيات، فآيات الله فى كونه كثيرة لا تتناهى :

فى كل شىء له آية ... تدل على أنه الواحد

(١) الإيضاح ١ / ١٩٦ .
(٢) سورة الزمر : ٦٥ .
(٣) سورة البقرة : ١٤٥ .
(٤) سورة البقرة : ٢٠٩ .
(٥) سورة الجن : ١٩ .
(٦) سورة مريم : ٣٠ .
(٧) خصائص التراكيب ٢٧٠ .
(٨) سورة القمر : ٢ .

ولكن هؤلاء قد تعاموا عن رؤيتها، لم ينقبوا عنها، لم ينظروا نظر متأمل، وإن حدث وعرضت لهم آية دون أن يبحثوا عنها، وتبين لهم وجه الحق فيها أعرضوا وقالوا: سحر مستمر . . واقرأ قوله تعالى : ﴿﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾[1]، وقوله عز وجل : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾[2]، تجد التعليق «بإذا» في الآيتين أفاد تحقيق وقوع الشرط، فزلزلة الأرض وإخراجها أثقالها في ذلك اليوم من الأحداث الثابته المحققة، ومجيء نصر الله الذى وعد به سبحانه وتعالى، حق ثابت لا ريب فيه، ولا يتردد في إثباته مؤمن، وقد جاء كما وعد جل وعلا . . وخذ قوله تعالى ﴿ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ ﴾[3] وقوله عز وجل : ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾[4]، أفاد التعليق «بإن»، ضعف شوكة الكفرة وعدم جرأتهم على قتال المؤمنين، فقتالهم أمر نادر الوقوع، غير مقطوع به وكذا الظفر بالمؤمنين، أى : ظفر هؤلاء الأعداء بالمؤمنين أمر غير محقق وغير مقطوع به، «إن يثقفوكم» أى : يظفروا بكم : ثم تأمل قوله : «وودوا» بالماضى عطفاً على المضارع : «يكونوا» و«يبسطوا»، وما ينبيء به استعمال الماضى فى موضع المضارع من رغبة الكفرة وتمنيهم وحرصهم الشديد على أن يتحقق هذا الفعل، وكأنه قيل : وودوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم عن دينكم، فهم يتمنون لكم مضار الدنيا والآخرة من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض وردكم كفاراً، وردكم كفاراً أسبق المضار عندهم لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم، والعدو أهم شيء عنده أن يقصد أعز شيء عند صاحبه . . هذا هو رأى الزمخشرى ويرى الخطيب أن : «وودوا» ليس معطوفاً على الجزاء بل هو معطوف على الجملة الشرطية، كما فى عطف : «ثم لا ينصرون» فى الآية السابقة، وذلك لأنه ليس فى تقييد : «وودوا» بالشرط فائدة، إذ ودادتهم أن يرتدوا كفاراً حاصلة وإن لم يظفروا بهم[5] . . .

(١) سورة الزلزلة : ١ .

(٢) سورة النصر .

(٣) سورة آل عمران : ١١١ .

(٤) سورة الممتحنة : ٢ .

(٥) انظر الإيضاح ١ / ١٩٧ .

وللجهل بموقع «إن وإذا»، يزيغ كثير من الخاصة عن الصواب فيغلطون . . انظر إلى قول عدب الرحمن بن حسان يخاطب بعض الولاة وقد سأله حاجة فلم يقضها :

ذممت ولم تحمد وأدركت حاجتى   تولى سواكم أجرها واصطناعها

أبى لك كسب الحمد رأى مقصر   ونفس أضاق اللّه بالخير باعها

إذا هى حثته على الخير مرة   عصاها وإن همت بشر أطاعها

فالأبيات - كما ترى - فى الهجاء والذم، إذ المخاطب ذو رأى مقصر، ونفسه أضاق اللّه بالخير باعها، وكان يقتضى ذلك أن يقول : إن هى حثته على الخير مرة عصا وإذا همت بشر أطاعها، ليناسب مقام الهجاء والذم، وتكون تلك النفس لا تهم بالخير إلا نادراً، وإن همت به مرة عصاها، وتهم كثيراً بالشر وإذا همت به أسرع إلى إجابتها . . ولذا قال الزمخشرى : لو عكس لأصاب . . وقد حاول البعض أن ينتصر للشاعر، وأن يجيب عنه، فرأى أنه يقصد إثبات حيث نفس الوالى له على الخير ووقوعه منها كثيراً وعلى الرغم من ذلك فهو يعصيها ويقاومها ولا يجيبها، وأنه يبادر إلى الشر بمجرد أن تهم به نفسه، وهذا أبلغ فى هجاء الوالى وذمه . . ولكن يدفعه قوله «مرة»، فهو تصريح بأن حثها على الخير قليل ونادراً ما يقع، وإن وقع فإنه يقع مرة واحدة وأيضاً تصريحه فى البيت الثانى بأن هذه النفس نفس أضاق اللّه بالخير باعها يمنع ذلك ويدفعه . . . وتأمل قول أبى تمام مادحاً :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى   معى وإذا ما لمته لمته وحدى

فقد مر بك هذا البيت فى الحديث عن فصاحة الكلام وتبين لك أن قوله : «وإذا مالمته» لا يناسب مقام المديح لأنه يدل على أن اللوم يقع من الشاعر كثيراً، ولو قال : وإن لمته لمته وحدى، لأصاب وأجاد، ومما يحمد للشاعر فى البيت أنه قابل المدح باللوم والذى يقابل المدح هو الهجاء لا اللوم وكأن الممدوح لا يفعل ما يستحق عليه هجاء، وإنما قد تصدر منه أشياء يسيرة يلام عليها فقط [١]

وكذا القول فى البيت :

إذا سئمت مهنده يمين   لطول العهد بدله شمالا

---

(١) ص ٢٠ من هذا الكتاب .

فقد عبر «بإذا» فدل ذلك على تحقق السأم والقطع بوقوعه وهذا ينافى مقام المدح، فالموضع موضع «إن» لا «إذا» .

وقول الحطيئة فى المدح أيضاً :

أولئك قوم إن بنوا أحسنـوا البُنَا وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

أساء الحطيئة باستخدامه «إن» ولو استخدم «إذا» لأجاد وأحسن لأن الموضع موضعها كما لا يخفى . .

استخدام «إن» فى موضع «إذا» و «إذا» فى موضع «إن» :

وقد تستعمل «إن» فى موضع «إذا»، أى فى الشرط المقطوع بوقوعه، المجزوم بتحققه، وتستعمل «إذا» فى موضع «إن»، أى فى الشرط غير المقطوع بوقوعه، وذلك لاعتبارات بلاغية يقتضيها المقام ويستدعيها الحال . . تقول : إن طلعت الشمس ذهبت إلى الحبيب، فطلوع الشمس أمر محقق مقطوع بوقوعه، فحقه أن تدخل عليه «إذا» لا «إن»، ولكنك استخدمت «إن» لهدف بلاغى، وهو استبطاؤك طلوع الشمس، وامتداد الظلام عليك وطول الليل، وكأنه لا يمر، ولا يريد أن ينجلى بصبح، وأنت تترقب وتنتظر بزوغ الضوء حتى تسرع إلى لقاء الحبيب . . إن استخدامك «لإن» أنبأ بامتداد الليل، وكأن طلوع الشمس صار بالنسبة لك أمراً غير محقق الوقوع، صار أمراً نادراً . . وتقول : إن مات فلان البخيل انتفع الناس بماله، فالموت أمر محقق الوقوع : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[1] ، ولكنك استخدمت إن لتشعر باستثقالك وجود البخيل وعدم ارتياحك له ورغبتك فى التخلص منه، وكأنك لطول تمنيك موته والتخلص منه، صرت تستبعد وقوعه، صار موته أمراً غير مجزوم بوقوعه على الرغم من تحققه وأنه آت لا محالة . . ، ونقول لمن يؤذى أباه ولا يحسن إليه ولا يبره : إن كان أباك فلا تؤذه . . إن كان أباك فأحسن عشرته وبره، فكونه أباه أمر محقق ولكنك جعلته أمراً غير مجزوم به، وكأنك تريد بهذا تأنيب المخاطب وتوبيخه وحثه على بر أبيه والإحسان إليه . .

(١) سورة آل عمران : ١٨٥ .

وتأمل قوله عز وجل : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾[1] في قراءة من قرأ بكسر همزة «إن»، والمعنى أنهملكم فنضرب عنكم القرآن بترك إنزاله لكم، وترك مافيه من الأمر والنهي والوعد والوعيد إن كنتم مسرفين، فكونهم مسرفين أمر مقطوع به وحقيقة ثابتة مقررة، وقد استعملت «إن» في هذا الشرط المقطوع به لقصد توبيخهم على الإسراف، وتصوير أن المقام لا يحتمل هذا الإسراف فالعاقل لو تدبر وتأمل آيات الله في كونه لما أسرف، ولأقلع عن إسرافه وعناده، فحق هذا الإسراف الانتفاء وألا يكون إلا على سبيل الفرض والتقدير، كما تفرض المحالات، ولذا استخدمت «إن» في الآية الكريمة على الرغم من تحقق إسرافهم، ومثله قوله تعالى : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾[2] ، فهم في ريب قطعاً، وقد استخدمت «إن» في هذا الأمر المحقق توبيخاً لهم ولإفادة أن المقام يشتمل على ما يزيله ويقلعه من أصله، وهو الآيات الدالة على أنه منزل من عند الله، فوقوع الريب منهم ينبغي ألا يكون إلا على سبيل الفرض . كما يفرض المحال . . ويرى بعض البلاغيين أن تكون الآية من تغليب غير المرتابين من المخاطبين على المرتابين منهم، لأنه كان فيهم من يعرف الحق وإنما ينكره عناداً وتكبراً، فجعل الجميع كأنهم لا ارتياب لديهم، ولذا استعملت فيه «إن»، على سبيل الفرض للتبكيت والإلزام [3] . . ومنه قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ﴾[4] ، فالقوم وهم الكفرة في ريب حقيقة، وقد استعملت «إن» توبيخاً لهم وإشارة إلى أن الأدلة على إمكان البعث بينة جلية، فلا ينكر وقوعه ويشك فيه إلا معاند أو جاهل، فحق هذا الريب الواقع منهم، ألا يوجد إلا على سبيل الفرض كما يفرض المحال . . ويمكن جعل الآية من قبيل التغليب كما في الآية السابقة . . وتأمل الآيات الكريمة : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ﴾[5] . . ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (157)

---

(1) سورة الزخرف : 5 .

(2) سورة البقرة : 23 .

(3) المطول : 158 .

(4) سورة الحج : 5 .

(5) سورة آل عمران : 160 .

﴿ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾[1] . . ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا﴾[2] تجد أن «إن» قد دخلت على أمر محقق واقع لا محالة أو مجزوم بوقوعه، وهو الموت أو القتل فى سبيل الله، ونصر الله للمؤمن، ما عدا قوله تعالى : «وإن يخذلكم» فخذلانه تعالى للمؤمنين لا يقع إلا نادراً، وهو إن وقع يكون ابتلاء واختباراً ولحكمة لا يعلمها إلا هو، وعندما تفتش عن السر البلاغى الكامن وراء استعمال «إن» فى الآيات الكريمة تراه دقيقاً ولطيفاً، فقوله : «إن ينصركم الله» تشير إلى أن أهليتكم للنصر أمر عزيز نادر، فالله ينصر من ينصره، والذين ينصرونه هم فئة قليلة . . وقوله : «ولئن متم أو قتلتم . .» تشير إلى غفلتهم وكأنهم لعدم عملهم لما بعد الموت قد صاروا فى حال من لا يتوقع وقوعه، وفيه أيضاً أن خلوص الموت لله مما هو عزيز نادر . . وقوله : «أفإن مات أو قتل»، تشير إلى مدى حب الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم - وتعلقهم به إلى حد صاروا فيه كأنهم يستبعدون موته أو استشهاده فى سبيل الله ويعدون ذلك نادراً عزيزاً وغير خاف عليك ما وقع منهم رضوان الله عليهم عندما سمعوا نبأ وفاته عليه الصلاة والسلام، وقول عمر عندما سمع الآية من أبى بكر رضى الله عنهما : «والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعرفت حتى ما تقلنى رجلاى، وحتى هويت إلى الأرض» . .

وانظر إلى قول المتنبى :

إذا صرف النهار الضوء عنهم	دجا ليلان ليل والغبار
وإن جنح الظلام انجاب عنهم	أضاء المشرفيةُ والنهارُ

فهو يتحدث عن مجاهدين أثاروا الغبار وأشهروا السيوف، فإذا حل ظلام الليل رأيت ظلامين، ظلام الليل وظلاماً ناجماً عن الغبار المثار، وإذا انجاب ظلام الليل رأيت ضوءين، ضوء النهار، وضوء السيوف . . . فذهاب الليل وحلول النهار، وذهاب النهار وحلول الليل من الأمور المحققة الثابتة، وعلى الرغم من ذلك تجد الشاعر قد استعمل «إذا» فى البيت الأول مفيداً بهذا أن ذهاب النهار وحلول الليل أمر محقق ثابت الوقوع . . ثم

(١) سورة آل عمران : ١٥٧، ١٥٨ .

(٢) سورة آل عمران : ١٤٤ .

استعمل «إن» فى البيت الثانى وكأن ذهاب الليل وحلول النهار من الأمور غير المحققة التى لا تقع إلا نادراً، ويهدف الشاعر بهذا إلى تصوير حال هؤلاء المجاهدين وأنهم مستمرون فى الجهاد والقتال، فالليل ممتد متواصل والكفاح مستمر وكأنه لن يحل نهار مكان ليلهم الممتد، ولا هدوء أو سكينة مكان كفاحهم المتواصل، وإن حل ذلك ووقع فهو من الأمور النادرة، وهذا معنى دقيق أبرزه الشاعر باستخدامه «لإن» فى موضع «إذا» فى البيت الثانى.

وكما تستخدم «إن» فى موضع «إذا» فكذلك تستخدم «إذا» فى موضع «إن»، تقول لمن شك فى عطف الأمير، ويئس من قضاء حاجته، وأخذ يقول: لا أدرى أيكرمنى الأمير ويتفضل على بقضاء حاجتى أم لا ؟، تقول له: إذا أكرمك الأمير وقضى لك حاجتك فكيف يكون شكرك . . فكرم الأمير قد تشكك فيه الرجل وتردد وجعله من الأمور النادرة غير المقطوع بوقوعها، وجعلته أنت باستخدامك «إذا» من الأمور الثابته المحققة الوقوع، وكأنك تريد الإشعار بأنه لا ينبغى الشك فى كرم الأمير وتفضله . . . ومن ذلك قول أبى ذؤيب :

والنفس راغبة إذا رغبتها	وإذا ترد إلى قليل تقنع

فقد وضع «إذا» فى الشطر الثانى موضع «إن» لسر بلاغى وهو الحث على تملك النفس وردها إلى القليل وبناء الفعل للمجهول يوحى باستبعاد من ينهض بهذا الرد، كما أن التعبير بالمضارع يوحى بأن النفس تتفلت وترغب فى الكثير وأن على المرء أن يمسك بزمامها ويجدد ردها إلى القليل كلما حاولت أن تتفلت منه . . وتأمل قول الأحوص :

إذا رمت عنها سلوة قال شافع	من الحب ميعاد السلو المقابر
ستبقى لها فى مضمر القلب والحشا	سريرة حب يوم تبلى السرائر

تجده يتحدث عن حب قد تغلغل بداخله، وعشق قد استقر فى قلبه وأحشائه، وهو حب باق ودائم لا يبلى، بل سيبقى سره يوم تبلى السرائر، ولو حاول الأحوص سلوا ناداه مناد وزجره زاجر : «ميعاد السلو المقابر» . . فالموضع - كما ترى - موضع «إن» لأن إرادة السلو ونسيان مثل هذا الحب من الأمور غير المحققة التى لا تقع إلا نادراً، ولكن الشاعر أراد «بإذا» معنى دقيقاً، مغزاه : أن هذا الحب باق حتى لو رمت سلوه وجزمت، وثبت

ذلك وتكرر منى، ووقع كثيراً، وصار من الأمور المحققه المجزوم بها، حتى لو حدث هذا فحبها باق لن يزعزع . . وانظر إلى قول المتنبى مخاطباً سيف الدولة عندما تخلى عنه وتغير عليه :

إن كان سركـم ما قـال حاسدنا　　　فما لجـرح إذا أرضـاكـم ألـم

فلن يخفى عليك استخدام «إن» فى الشطر الأول فى موضع «إذا» واستخدام «إذا» فى الشطر الثانى فى موضع «إن»، وذلك لأن سيف الدولة قد ثبت وتحقق تخليه عن الشاعر، وسره ماقال حاسدوه، وهو أى سيف الدولة من هو، إنه لا يرضى لجريح أن يتألم، وقلما يرضى لمكلوم أن يقاسى ألم جرحه، وكأن المتنبى بإيثاره هذا التعبير، يريد أن يقول لسيف الدولة : ما كان ينبغى لما بيننا من الألفة والمحبة وطول الود والمخالطة، أن يكون منك هذا التغير وأن يسرك ما قال حاسدنا وأن يثبت ويتحقق رضاك بآلامى وجراحى التى ستصيبنى لفراقك والبعد عنك بل كان ينبغى أن يكون ذلك من الأمور النادرة . . ويتضح لك هذا المعنى فى قوله :

يا من يعـز علينـا أن نفارقهـم　　　وجدانـنا كل شـىء بعدكـم عـدم

هذا وقد تدخل «إن» و «إذا» على الأمور المفروضة المحالة المجزوم بانتفائها وذلك لغرض بلاغى يقتضيه المقام . . وتأمل قوله تعالى : ﴿**قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ**﴾[1] ، تجد أن «إن» قد دخلت على أمر مستحيل مجزوم بانتفائه وهو كون للرحمن ولد تعالى عن ذلك علواً كبيراً، والغرض من ذلك هو إرخاء العنان للمعاندين بفرض ذلك المحال تبكيتاً لهم وتوبيخاً . . ومثله قوله تعالى : ﴿ **فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا** ﴾[2] ، فما آمنوا به ليس له مثل، وقد فرض ذلك تبكيتاً للكفرة وتسفيهاً لأحلامهم . . وقوله جل وعلا : ﴿**وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾[3] ، فهم يعتقدون أنه باطل وقد قالوا هذا على سبيل الفرض كما يفرض المحال، وذلك لإعلان رفضهم وتمسكهم بضلالهم، فهم لن يؤمنوا بالقرآن ولو

---

(١) سورة الزخرف : ٨١ .

(٢) سورة البقرة : ١٣٧ .

(٣) سورة الأنفال : ٣٢ .

فرض كونه حقاً وتحقق هذا الفرض، فليمطروا بحجارة من السماء أو يأتيهم عذاب أليم، أما الإيمان به فلا . . .

ويقول لك البخيل : إذا طرت فى السماء بجناحين كالطائر أعطيتك درهماً، يريد أن يقطع كل أمل لك فى الحصول على شىء منه، فلو تحقق المحال وطرت بجناحيك فى الجو حصلت على درهم منه، ولكن هيهات هيهات، أنى يتحقق لك هذا المحال . .

مجىء الماضى لفظا مع «إن»:

قلت لك : إن «إذا» و «إن» للشرط فى المستقبل، أى لتعليق حصول الجزاء على حصول الشرط فى الاستقبال، فإذا دخلتا على الماضى فهو ماض لفظاً مستقبل معنى نحو : إذا جاءنى الفقير أكرمته . . إن استجبت لزيد أحسن معاملتك، فالمراد بالشرط والجزاء فى المثالين الاستقبال . . . ولكون «إذا»، الأصل فيها أن تدخل على الشرط المجزوم بوقوعه، كان الغالب فى الفعل المستعمل معها أن يكون بلفظ الماضى للإشعار بتحقق الوقوع على نحو ما مر بك فى الشواهد . . أما «إن» فالأصل فيها أن تدخل على الشرط غير المجزوم بوقوعه، ولذلك ينبغى أن تدخل على المضارع فيقال إن تكرمنى أكرمك، ولا يجىء الماضى مع «إن» لفظاً إلا لغرض بلاغى وهو إبراز غير الحاصل الذى يحدث فى المستقبل فى معرض الحاصل الذى وقع فى الماضى وتحققنا من وقوعه، ويكون ذلك لأسباب عديدة منها : إظهار التفاؤل كقولك إن ظفرنا على الأعداء تحقق الأمان . . ومنها التعريض بما هو واقع كما فى قوله تعالى : ﴿**فَإِن زَلَلْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[1] فهو تعريض بالزلل الواقع من المشركين . . ومنها : الرغبة فى وقوع الشرط وحصوله، كقولك : إن نجح خالد أو لم لنا . . إن قرأت البلاغة تكون لديك الذوق السليم . . ومنها : الإشارة إلى أن الفعل واقع لا محال كقولك : إن مت كان كذا . . إن زالت الشمس جاء فلان ومما عبر فيه بالماضى مع «إن» رغبة فى تحقق الشرط وحصوله، قوله تعالى : ﴿ **وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾[2] والمعنى : ولا تكرهوا إماءكم على الزنا إن أردن تحصنا، والأصل : إن يردن تحصناً، فعبر

---

(١) سورة البقرة : ٢٠٩ .

(٢) سورة النور : ٣٣ .

بالماضى إظهاراً للرغبة فى وقوع إرادة التحصن من الفتيات . . . وقد عبر «بإن» دون «إذا» للإشعار بندرة إرادة التحصن بينهن وأن الكثيرات كن يفعلن ذلك عن طواعية ورغبة فى البغاء . . أما فائدة تعليق النهى عن الإكراه بإرادة التحصن، المشعر بأن الإماء إذا أردن البغاء فلا نهى، فهى تبشيع هذه الصورة وحث المكره الغاصب على أن يأنف من هذه الرذيلة . . ووجه التبشيع والحث على الانتهاء هو إقراع سمعه والنداء عليه بأن أمته خير منه، فقد آثرت التحصن على الفاحشة، وهو يأبى إلا إكراهها على البغاء [١] .

والرغبة فى وقوع الأمر وحصوله قد تقوى لدى الراغب وتشتد وتبلغ مبلغاً يتصور فيه غير الحاصل حاصلاً والمحال واقعاً، بل ويقيم عللاً لهذا المحال الذى قويت رغبته فى حصوله ووقوعه، على نحو ما نرى فى قول أبى العلاء المعرى :

ماسرت إلا وطيف منك يصحبنى   سـرى أمامى وتأويباً على أثرى

اشتدت رغبة فى مصاحبة فتاته وملازمة طيفها له، وتصور أنه لا يسير إلا وذاك الطيف يصحبه ويتبعه ويلازمه، ويعلل عدم رؤيته إياه بأن الظلام يحول بينه وبين تلك الرؤية ليلاً «سرى أمامى» أما نهاراً فإن الطيف يتبعه ويسير وراءه «تأويباً على أثرى» ولذا فإنه لا يراه .

ومما عدل فيه عن المضارع إلى الماضى بعد «إن» إظهاراً للرغبة فى وقوع الفعل وتحققه قوله تعالى : ﴿ **إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ** ﴾[٢] فقد عبر بالماضى فى قوله «وودوا» لرغبة العدو وشدة حرصه على أن يقع هذا الكفر ويتحقق، فالعدو يريد أن يلحق بالمسلم مضار الدين والدنيا من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض ورده كافراً، ورده كافراً أسبق المضار عند العدو وأقواها لعلمه أن الدين أعز على المسلم من روحه وأنه بذال لها دونه، ولذا كان التعبير بالماضى «وودوا لو تكفرون» [٣] .

---

(١) الكشاف جـ ٣، ص٦٦ .

(٢) الممتحنة : ٢ .

(٣) الإيضاح جـ ١ ص ١٩٧ . والأولى أن يكون قوله : «وودوا لو تكفرون» معطوفاً على الجملة الشرطية لا على الجواب لأن ودادتهم أن يرتدوا حاصلة وإن لم يظفروا بهم .

هذا وقد تستعمل «إن» في غير الاستقبال قياساً مطرداً، إذا كان فعل الشرط «كان» كقوله تعالى : ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[1] ، وقوله عز وجل : ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾[2] ، وقوله تعالى : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾[3] ، أي : إن حصل منكم ريب فيما مضى واستمر ذلك إلى وقت الخطاب . . . وربما ورد دخولها على غير كان وهو ماض . . كما في الشواهد السابقة وكما في قول الشاعر :

فيا وطنى إن فاتنى بـك سابــق   من الدهـر فلينعم لساكنـك البـال

كما قد تدخل «إذا» على الماضي لفظاً ومعنى، على نحو ما ترى في قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾[4] ، وعلى الماضي الدال على الاستمرار كما في قوله عز وجل : ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾[5] .

بقى أن تعلم أن هاتين الأداتين : «إن و إذا» قد تستعملان لمجـرد الربـط فقط كما في قولـه تعالى : ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾[6] ولـذا ينبغي أن يقال : إن هذه الأحكام التى ذكرها البلاغيون مبنيـة على الأكثر والغالب، لا على القطع واليقين وأن هاتين الأداتين قد تكونان في النـادر لمجرد الربـط بين الشرط والجـزاء، كما في الآية المذكورة[7] .

وأن تعلم أيضاً الرد على هؤلاء الذين يقولون : إذا كانت «إن» تدخل على الشرط غير المقطوع به، وإذا تدخل على المجزوم بوقوعه، فكيف تقعان في القرآن الكريم والله تبارك وتعالى عالم بحقائق الأشياء على ما هى عليه ويستحيل في حقه تعالى الشك

(١) سورة يوسف : ٢٧ .
(٢) سورة المائدة : ١١٦ .
(٣) سورة البقرة : ٢٣ .
(٤) سورة الكهف : ٩٦ .
(٥) سورة البقرة : ١٤ .
(٦) سورة النساء : ١٣٥ .
(٧) خصائص التراكيب ص ٦٤ .

والتردد، وكذا لا يتصور منه تعالى جزم، لأنه علام الغيوب . . والرد عليهم هين وهو أن القرآن الكريم قد نزل على مذاهب العرب فى الكلام وجاء على طرقهم فى التعبير والقول، ثم إن الأداتين من أدوات الشرط، فالمعنى قائم على الربط والتعليق، لا على الإخبار .

استعمال «لو»:

وأما «لو» فأصلها أن تكون للشرط فى الماضى مع القطع بانتفاء الشرط وانتفاء الجزاء، فهى موضوعة للدلالة على امتناع الجزاء وعلى أن امتناعه ناشىء عن امتناع الشرط . . تقول : لو جئتنى لأكرمتك، فيدل هذا على أن الإكرام لم يحدث، لأن المجىء لم يتم، أى أن الجواب قد انتفى لانتفاء الشرط، ولذا قيل إنها حرف يفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط . . . وإذا كانت «لو» للشرط فى الماضى، بمعنى أنها تدل على ارتباط مضمون الجزاء بمضمون الشرط فيما مضى، فيلزم من هذا كون جملتيها فعليتين ماضيتين، كما فى قوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1] ، وكقول أبى العلاء :

ولو دامت الدولات كانوا كغيرهم   رعايا ولكن ما لهن دوام

ولا تدخل على المضارع إلا لنكتة بلاغية، كما فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾[2] ، والمعنى : لو يعطيكم فى كثير من الوقائع لشق ذلك عليكم ولوقعتم فى هلاك وجهد، فقد امتنع عنتهم بسبب امتناع استمراره – صلى الله عليه وسلم – على طاعتهم . . فتلاحظ أنه قد عدل عن الماضى إلى المضارع فى الآية لقصد استمرار الفعل فيما مضى وقتاً بعد وقت، لأن المضارع يفيد الاستمرار والتجدد . . ومنه قول الشاعر :

ولو تلتقى أصداؤنا بعد موتنا   ومن دون رمسينا من الأرض سبسب[3]

لظل صدى صوتى وإن كنت رمة   لصوت صدى ليلى يَهَشُّ ويطرب

(١) سورة الأنبياء : ٢٢ .

(٢) سورة الحجرات : ٧ .

(٣) الرمس : القبر . وسبسب : امتداد واتساع .

ومنه فى غير «لو» قوله تعالى : ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[1] ، فقد جاء قوله تعالى : «اللّه يستهزئ بهم»، بعد قول المنافقين : «إنما نحن مستهزءون»، لأن المضارع يفيد استمرار الاستهزاء على سبيل التجدد، وهو أبلغ من الاستمرار والثبوت الذى تفيده الجملة الاسمية . . . وقوله تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[2] ، فلم يعبر عن الكسب بالماضى كما عبر عن الكتابة، لأن كسبهم يتجدد بخلاف ما كتبوه .

وتأمل دخول «لو» على الفعل المضارع فى قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[3] ، وقوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾[4] ، وقوله جل وعلا : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[5] ، تجد أن «لو» قد دخلت على المضارع فى الآيات الكريمة لتنزيله منزلة الماضى فى تحقق الوقوع لصدوره عمن لا خلاف فى صدق إخباره كما نزل «يود» فى قوله تعالى : ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[6] ، منزلة «ود»، لأن الفعل الواقع بعد «رب»، المكفوفة يجب أن يكون ماضياً . . ويجوز أن يكون الغرض من التعبير بالمضارع فى الآيات استحضار الصورة العجيبة صورة المجرمين وهم ناكسو الرءوس يطلبون ردهم إلى الدنيا كى يغيروا نهجهم فى الحياة ويعملوا صالحاً، وصورة الكفرة وقد وقفوا على النار، والظالمين وهم موقوفون عند ربهم، وصورة وداد الكفرة لو أسلموا، وما من ريب فى أن استحضار الصورة وإبرازها أمام المخاطبين مرئية مشاهدة يكون أشد وقعاً وأبلغ تأثيراً . . . ومن استحضار الصورة قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[7] ، فقد عبر عن الماضى «أثار» بالمضارع «تثير» استحضاراً لتلك الصورة البديعة

(١) سورة البقرة : ١٥ .
(٢) سورة البقرة : ٧٩ .
(٣) سورة السجدة : ١٢ .
(٤) سورة الأنعام : ٢٧ .
(٥) سورة سبأ : ٣١ .
(٦) سورة الحجر : ٢ .
(٧) سورة فاطر : ٩ .

العجيبة الدالة على القدرة الباهرة، وهى صورة الرياح تثير السحاب وتحركه فينقاد لها ويساق، فقد جعل المضارع الصورة حاضرة أمام الأعين، وكأنها تبصر وتشاهد . . . والتعبير بالمضارع عن الماضى استحضاراً للصورة، لا يحسن إلا فى الأمور الغريبة العجيبة التى يهتم برؤيتها ومشاهدتها لفظاعتها وغرابتها وشدة تأثيرها كما رأيت فى الآيات الكريمة، وكما ترى فى قول تأبط شراً :

ألا مـــن مبلـغٌ فتيـان فَهْــــمٍ	بما لا قيـب عـنــد رَحابطـــان
بأنى قـــد لقيـــت الغول تهوى	بسَهْب كالصحيفـــة صَحْصحان
فقلـت لهـا كلانـا نضْـو أرض	أخـــو سفـــر فخلى لى مكانى
فشــدة شــــدة نحــوى فأهوت	لهـــا كفـــى بمصقـــول يمـــانى
فأضربهـــا بلا دهش فخـــرت	صريعـــاً لليديـــن وللجـــرَان [1]

فهو يتحدث عن أمر غريب إذ يزعم أنه قد التقى بالغول فى تلك الفلاة وتحدث إليها وطلب منها المسالمة فأبت فقتلها، وتراه قد عبر بالمضارع «فأضربها» والسياق للماضى ليصور تلك الحال العجيبة التى تشجع فيها على ضرب الغول، كأنه يرينا إياها ويطلب منا مشاهدتها، تعجيباً من جرأته على كل هول وثباته عند كل شدة . . . ثم تأمل قوله عز وجل : ﴿ **إنَّ مَثَلَ عيسَىٰ عندَ اللَّه كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ من تُرَاب ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿**وَمَن يُشْرِكْ باللَّه فَكَأَنَّمَا خَرَّ منَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى به الرِّيحُ فِى مَكَان سَحِيق**﴾[3] تجده قد عبر بالمضارع «فيكون»، استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة على

---

(١) فهم : قبيلة الشاعر «تأبط شراً» وهذا لقب قد غلب عليه واسمه ثابت بن جابر بن سفيان . . ورحابطان اسم موضع . . وتهوى بمعنى: تسرع مقبلة إلى . . والسهب: الفلاة . . والصحصحان: ما استوى من الأرض . . والنضو : المهزول من كل شيء فعل بمعنى مفعول ، كأنه نضى وأخرج عن لحمه من جدب الأرض ، وصريعاً: وقيل بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث . . والجران في الأصل مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره .

(٢) سورة آل عمران : ٥٩ .

(٣) سوة الحج : ٣١ .

القدرة الباهرة . . . وفى الآية الثانية عبر بالمضارع أيضاً عن الماضى فى قوله : «فتخطفه الطير أو تهوى به الريح»، إذ الأصل : فخطفته الطير أو هوت به الريح . . والغرض هو استحضار وإبراز هذه الصورة العجيبة وتصويرها مرئية ومشاهدة أمام الأعين.

❐ ❐ ❐

الفصل الرابع

أحوال متعلقات الفعل

متعلقات تقرأ بكسر اللام وتقرأ بفتحها، والكسر أرجح إذ يقال : تعلق المفعول بالفعل، وتعلق الجار بالمجرور بالفعل، فالمفعول متعلق بالفعل والجار والمجرور متعلق به . . والمراد بمتعلقات الفعل ما يتصل بالفعل ويتعلق به من فاعل ومفعول وجار ومجرور وظرف ومصدر وحال وتمييز وغير ذلك . . فالفعل يلابس هذه المتعلقات ويتصل بها فيتحقق بهذا الاتصال أو بتركه كثير من الأغراض البلاغية، ثم إن هذه المتعلقات يكمن وراء بنائها وتركيبها مع الفعل كثير من المزايا والدقائق اللطيفة، وعلى الدارس أن يلم بتلك المزايا؛ وأن يعلم كيف يقدم المتعلق على الفعل أو يتأخر عنه وما أغراض تقديمه أو تأخيره . . وإذا وجد أكثر من متعلق فكيف تصاغ الجملة ؟ وما هو موضع كل متعلق فيها؟ ومتى يحذف؟ . . . نجد وراء ذلك كثيراً من الأسرار والدقائق والمزايا التي ينبغي للدارس أن يقف عليها ويحيط بها . . ويلحق بالفعل في هذا ما هو بمعناه كاسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة وأفعل التفضيل وغيرها من المشتقات، ولذا ستكون دراستنا في هذا الفصل - إن شاء الله - هادفة إلى إيضاح وتجلية الأسرار البلاغية التي تكمن وراء الصيغ والعبارات في الموضوعات التالية :

١ - تقييد الفعل بالمفعول ونحوه . .

٢ - دراسة المفعول والمزايا البلاغية التي تكمن وراء حذفه . .

٣ - تقديم المعمولات على الفعل أو ما في معناه . .

٤ - تقديم بعض المعمولات على بعض . .

وبعد ذلك سنعمد إلى دراسة ظواهر أسلوبية، وصور من خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، وهى تعم جميع أجزاء الجملة من مسند ومسند إليه ومتعلقات الفعل .

تقييد الفعل بمفعول ونحوه :

إذا أردت أن تخبر عن مجرد وقوع الحدث وحصوله، دون إشارة لفاعله الذى صدر منه أو مفعوله الذى وقع عليه قلت : وقع ضرب أو حدث مجىء أو تحقق نجاح، فتجعل مصدر الحدث فاعلاً لفعل عام، إذ مرادك أن تخبر عن وقوع الحدث وحصوله من غير إفادة تعلقة بفاعل أو مفعول أو نحوهما، فأنت فى غنى عن ذكر الفاعل والمفعول . أما إذا أردت أن تقيد وقوع الفعل من فاعل فعليك أن تذكر ذلك الفاعل فتقول مثلاً : ضرب محمد، جاء زيد، نجح خالد . . وإذا أردت أن تقيده أى : الفعل بمفعول ونحوه، قلت : ضرب محمد اللص . . جاء زيد من البيت . . نجح عمرو فى الاختبار . . اندفع خالد اندفاعاً وهكذا . . . يقول عبد القاهر : «وههنا أصل يجب ضبطه وهو أن حال الفعل مع المفعول الذى يتعدى إليه حاله مع الفاعل، وكما أنك إذا قلت : ضرب زيد فأسندت الفعل إلى الفاعل كان غرضك من ذلك أن تثبت الضرب فعلاً له، لا أن تفيد وجود الضرب فى نفسه وعلى الإطلاق، كذلك إذا عديت الفعل إلى المفعول فقلت : ضرب زيد عمراً، كان غرضك أن تفيد التباس الضرب الواقع من الأول بالثانى ووقوعه عليه . . . ألا ترى أنك إذا قلت : هو يعطى الدنانير، كان المعنى على أنك قصدت أن تعلم السامع أن الدنانير تدخل فى عطائه أو أنه يعطيها خصوصاً دون غيرها، وكان غرضك على الجملة بيان جنس ما تناوله الإعطاء لا الإعطاء فى نفسه، ولم يكن كلامك مع من نفى أن يكون كان منه إعطاء بوجه من الوجوه، بل مع من أثبت له إعطاء إلا أنه لم يثبت إعطاء الدنانير فاعرف ذلك فإنه أصل كبير عظيم النفع . .»[1]، وذكر الخطب أن تقييد الفعل بمفعول ونحوه إنما يكون لتربية الفائدة أى تكثيرها، تقول : ضربت فتفيد نسبة الضرب إليك ووقوعه منك، وتقول : ضربت زيداً فتفيد وقوع الضرب منك على زيد، وتقول: ضربت زيداً ضرباً شديداً، ضربت زيداً ضرباً شديداً يوم الجمعة أمام الناس، فكلما زدت قيداً ازدادت الفائدة، وأنت لا تزيد هذه القيود هكذا عبثاً، وإنما المقام هو الذى يملى عليك تلك الزيادة

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

ويقتضيها، فأنت إذا أردت أن تخبر عن رؤيتك لزيد تقول : رأيت زيداً، فإذا أردت أن تؤكد تلك الرؤية قلت : رأيته بعيني، فزيادة الجار والمجرور أفادت تأكيد الرؤية التي اقتضاها المقام . . وتأمل قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾[1] ، تجد أن القول لا يكون إلا بالفم والقلب لا يكون إلا فى الجوف، ولما كان المقام مقام إنكار وزجر لمن يظاهر زوجه، قائلاً لها : «أنت على كظهر أمى» ولمن يجعلون الدعى ابناً ويسوون بينه وبين الابن، فقد ذكر هذين القيدين : «فى جوفه» . . «بأفواهكم» تأكيداً للإنكار ومبالغة فى الردع والزجر . . ثم انظر إلى هذا القيد «لرجل» وتأمل فرق ما بين «ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه»، وبين : «ما جعل الله من قلبين فى جوف»، فستراه دقيقاً لطيفاً، لأن ذكر هذا القيد «لرجل» وتقييد الجعل به أبلغ فى الإنكار وآكد فى الردع والزجر، إذ المرأة قد يتصور وجود قلبين فى جوفها، قلبها وقلب جنينها عندما تكون حاملاً، أما الرجل فلا يتصور وجود قلبين فى جوفه بحال من الأحوال، ولذا كان تقييد الجعل به أشد فى الإنكار وأقوى فى الزجر والردع . . وكذا القول فى قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾[2] فذكر هذين القيدين : «بألسنتكم» «بأفواهكم» قد أكد الإنكار والزجر، إذ الآية فى سياق الحديث عن أولئك الذين خاضوا فى حادثة الإفك، والتلقى لا يكون إلا بالألسنة، والقول لا يكون إلا بالأفواه، فذكر هذين القيدين فيه مزيد من الإنكار والردع والتوبيخ الذى اقتضاه المقام . . واقرأ فى سورة الكهف قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾[3] ، تجد أن زيادة الجار والمجرور «لك» فيه مزيد من تأكيد اللوم وتقريره، وقد اقتضى المقام ذلك، إذ موسى عليه السلام قد اتبع العبد الصالح «الخضر» ليتعلم منه، وقال له الخضر : ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾[4] ، ولكن موسى أنكر خرق السفينة ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ فذكَّره الخضر : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ واعتذر موسى ثم انطلقا، فلما قتل الغلام أنكر موسى مرة ثانية :

---

(١) سورة الأحزاب : ٤ .

(٢) سورة النور : ١٥ .

(٣) سورة الكهف : ٧٥ .

(٤) سورة الكهف : ٧٠ .

﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ ؟ فذكره : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ ، تلاحظ أن القيد «لك» فيه إبراز وإيضاح وتأكيد للوم الذى اقتضاه المقام، لأن موسى قد وعد العبد الصالح – عليهما السلام – ألا يسأله عن شىء يحدث، ولكنه لم يستطع صبراً، فأنكر خرق السفينة، ولامه العبد الصالح على عدم صبره، ثم أنكر قتل الغلام، فأكد العبد الصالح اللوم بالجار والمجرور «لك»، . . وبهذا يتضح – كما قلت – أن تلك القيود لا نزاد عبثاً، بل لداع يقتضيه المقام، وينبغى على الدارس أن يكون بصيراً بتلك المقامات وأن يقف على معانى تلك القيود وما يكمن وراءها من دقائق، وما يكون وراء استعمالها وتقييد الفعل بها من لطائف وأسرار . . انظر إلى قوله تعالى : ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ [1]، وقوله تعالى : ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾[2] وتأمل القيد «عليه وعلى إسحاق» وما يفيده من استعلاء البركة وإحاطتها بهما، ثم قارون بينه وبين القيد فى الآية الأولى «على وجوههم»، وتبين كيف أبرز ذلك القيد أولئك الكفرة وقد علوا وجوههم، إن الحرف «على» يفيد الاستعلاء ولكنه استعلاء تعظيم فى آية الصافات، واستعلاء خزى وإهانة فى آية الإسراء . وتأمل فرق ما بين اللام وعلى فى الآيات الكريمة : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[3] ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾[4]، ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾[5] ، ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾[6] ، تجد أن «اللام» قد ذكرت عند سبق النفع و «على» قد ذكرت عند سبق الضر ، وذلك لأنك تلحظ فى اللام معنى التملك والانتفاع وتلحظ فى «على» معنى القهر والاستعلاء، لذا يقول القائل :

على أننى راض بأن أحمل الهوى   وأخلص منه لا على ولا ليا

(١) سورة الإسراء : ٩٧ .

(٢) سورة الصافات : ١١٣ .

(٣) سورة البقرة : ٢٨٦ .

(٤) سورة الأنبياء : ١٠١ .

(٥) سورة الصافات الآية : ١٧١ .

(٦) سورة هود: ٤٠ .

وتأمل فرق ما بين «على» و«في» في الآية الكريمة : ﴿ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1] ، ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[2]، ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾[3] ، تجد أن «على» تحمل معنى العزة والارتفاع، و«في» تحمل معنى الذل والانحطاط، وكأن المؤمن مستعل على جواد يركضه حيث شاء، والكافر منغمس في ظلام مرتبك فيه، لا يرى أين يتوجه . . وقد تجد في «في» معنى العزة والرفعة وذلك عندما يكون الانغماس في النعيم والغرفات والمقام الأمين . . ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾[4] . . ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾[5] ، ففرق بين انغماس في جنات وعيون ومقام أمين وغرفات ورحمة . وبين انغماس في ضلال أو غطاء عن ذكر الله أو عذاب مهين، تأمل : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[6] . . ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [7] . . . إلى غير ذلك من المعاني الدقيقة التي تراها كامنة وراء استخدام حروف الجر في القرآن الكريم والتراكيب الجيدة . . . فالمقام لا يتسع هنا لكي نفصل القول في تلك المعاني، ولذا سنخصها - إن شاء الله تعالى - بدراسة مستقلة، تجليها وتبرز ما وراءها من دقائق وأسرار . . وشأن الجار والمجرور شأن سائر المتعلقات، فهي لا تذكر إلا إذا اقتضاها المقام ودعا إليها داع . . انظر إلى ذكر المفعول المطلق وإفادته للتأكيد في قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[8]، وقوله عز وجل : ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾[9]،

---

(١) سورة البقرة : ٥ .

(٢) سورة سبأ : ٢٤ .

(٣) سورة الكهف : ١٠١ .

(٤) سورة سبأ : ٣٧ .

(٥) سورة الدخان : ٥١ ، ٥٢ .

(٦) سورة آل عمران : ١٠٧ .

(٧) سورة سبأ : ٣٨ .

(٨) سورة الفرقان : ٢١ .

(٩) سورة الفرقان : ٣٦ .

وقوله جل وعلا : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾[١] فتقييد الفعل بالمفعول المطلق فى الآيات الكريمة : «عتوا عتوا . . دمرناهم تدميراً . تبرنا تتبيراً» قد أدى إلى المبالغة وتوكيد وقوع هذه الأفعال، والمقام قد اقتضى ذلك، فهؤلاء لا يرجون لقاء الله ويطلبون إنزال الملائكة عليهم ويطلبون رؤية ربهم، وهذا عتو ما بعده عتو . . وأولئك قد كذبوا واستكبروا منهم من قال : ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[٢] ومنهم من قال : ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[٣] ومنهم من عقر الناقة وعتا عن أمر ربه، فاستحقوا لهذا أن يضاعف لهم العذاب وأن يؤخذوا أخذ عزيز مقتدر، استحقوا أن يدمروا تدميراً وأن يتبرو تتبيراً، فالمصدر قد أبرز قوة العقاب وكشف عن شدة الإهلاك . . . وتأمل ذكر الحال فى قوله تعالى : ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾[٤] وكيف أبرزت الفعل وبينت كيفية وقوعه من سليمان - عليه السلام - فهو تبسم واضح قد قوى حتى وصل إلى حد الشروع فى الضحك[٥] وانظر إلى الحال فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾[٦] وكيف أفصحت عن مهمة النبى - صلى الله عليه وسلم - وبينت الهدف والغاية من إرسال الرسل . . وتأمل ذكر الحال فى قول الشاعر :

دنوت تواضعاً وعلوت مجداً   فشأناك انخفاض وارتفاع

وكيف أبرزت ما يقصده الشاعر وبينت المراد من الدنو والعلو، ثم انظر كيف يكون المعنى لو لم تذكر هذه الحال فقيل : « دنوت وعلوت فشأناك انخفاض وارتفاع» إن المعنى يكون ملبساً ومشكلاً . . وبهذا يتبين لك أن تلك القيود لا تذكر إلا لمعنى يقتضيه المقام ويدعو إليه الداع . .

---

(١) سورة الفرقان : ٣٨ ، ٣٩ .
(٢) سورة النازعات : ٢٤ .
(٣) سورة فصلت : ١٥ .
(٤) سورة النمل : ١٩ .
(٥) الكشاف ٣ / ١٤٢ .
(٦) سورة الأحزاب : ٤٥ .

حذف المفعول:

أبرز عبد القاهر الجرجانى فى كتابه : «دلائل الإعجاز» ما يكمن وراء حذف المفعول به من دقائق ولطائف، وعندما ترجع إلى كتابه المذكور يتبين لك أن كل من جاء بعده من البلاغيين قد استمدوا وأفادوا من حديثه عن المفعول وتجلية لما يكمن وراء حذفه من مزايا وأسرار بلاغية . . وإليك بيان ذلك، وتفصيل القول فى مزايا حذف المفعول وأسراره . .

الفعل إما أن يكون لازماً وإما أن يكون متعدياً، فالفعل اللازم لا يحتاج إلى مفعول نحو فرح محمد وسعد على وبكى عمرو وشقى الكافر . . ولذا لا يدخل معنا فى حذف المفعول، إذا لا مفعول له أصلاً، إلا إذا عديته بالهمزة أو بالتضعيف نحو : أسعدت علياً وبكيت عمراً وأشقيت فلاناً، فعندئذ يصير الفعل متعديا ويجرى عليه ما يجرى على المتعدى من أحكام . .

والفعل المتعدى له مفعول يقع عليه، ولا يحذف ذاك المفعول ويرد الفعل بدونه إلا لأغراض بلاغية وأسرار دقيقة يقتضيها المقام . . منها : أن يكون الغرض من التركيب إثبات المعنى الذى اشتق منه الفعل لفاعله أو نفيه عنه، من غير نظر إلى تعلقه بمفعول معين وعندئذ يكون الفعل المتعدى كاللازم فى أنك لا ترى له مفعولاً لا لفظاً ولا تقديراً . . تقول : فلان يحل ويعقد ويعطى ويمنع ويأمر وينهى ويضر وينفع وتقول : محمد يعطى ويجزل ويضيف ويقرى، فالمراد من ذلك إثبات المعانى التى اشتقت منها الأفعال لفاعليها دون نظر إلى تعلقها بمفعول ونحوه، وكأنك تريد : صار فلان بحيث يكون منه الحل والعقد والإعطاء والمنع، والأمر والنهى والضر والنفع والإعطاء، والإجزال والقرى والضيافة - صار أهلاً لذلك - ولو أثبت المفعول فقلت مثلاً : يعطى الذهب أو الدراهم لضاع هذا الفرض، إذ ينصرف الذهن إلى نوع المعطى لا إلى جنس الإعطاء، ولذا فإنك عندما تريد بطى المفعول هذا الغرض، وهو إثبات المعنى فى نفسه للفاعل، فإنك لا تنظر إلى المفعول المطوى، ولا تلتفت إليه، ولا تخطره ببالك، ولا تقدره إذ المقدر كالمذكور . ومما ورد من ذلك فى النظم الكريم قوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾[1] - فالمعنى والله أعلم - هل يستوى من له علم ومن لا علم له من غير أن يقصد النص على معلوم . . وقوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ... وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ

(١) سورة الزمر : ٩ .

وأَحْيَا.... وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾[1] ، فالمراد : هو الذى منه الإضحاك والإبكاء والإحياء والإماتة والإغناء والإقناء دون قصد إلى مفعول يقع عليه الفعل . وقوله تعالى : ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾[2] ، أى يكون منه الإحياء والإماته دون نظر إلى من أحيا ولا إلى من أمات . . . وقوله عز وجل : ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾[3] ، فالمفعول المطوى فى «يبصرون» من قبيل المتروك المطروح الذى لا يلتفت إليه ولا يخطر بالبال ولا يقدر ، إذ المراد وتركهم فى ظلمات لا يتأتى فيها الإبصار منهم . . وقوله تعالى : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[4] ، أى وأنتم يقع منكم العلم وتتصفون به . . وقوله تعالى : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[5] أى : ونتركهم فى ضلالهم يترددون حائرين متصفين بالعمه . . «وهكذا كل موضع كان القصد فيه أن يثبت المعنى فى نفسه فعلاً للشىء وأن يخبر بأن من شأنه أن يكون منه أو لا يكون إلا منه أو لا يكون منه فإن الفعل لا يعدى هناك ؛ لأن تعديته تنغض الغرض وتغير المعنى»[6] . .

فمثال الإخبار بأن الفاعل من شأنه أن يكون منه الفعل قولك : هو يعطى ، إذا أريد التوكيد وتقوية الحكم لا القصر ، وقولك يعطى محمد ويكرم خالد . . ومثال الإخبار بأن الفعل لا يكون إلا من الفاعل قولك : هو يعطى . . هو يحل ، إذا أردت بتقديم المسند إليه القصر . . ومثال الإخبار بأن الفعل لا يكون من الفاعل قولك : هو لا يعطى . . فلان لا يحل ولا يعقد . .

وتأمل قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ﴾[7] ، تجد أن المفعول قد طوى فى أربعة مواضع ، إذ المعنى وجد عليه أمة

(١) سورة النجم : ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٨ .
(٢) سورة البقرة : ٢٥٨ .
(٣) سورة البقرة : ١٧ .
(٤) سورة البقرة : ٢٢ .
(٥) سورة الأنعام : ١١٠ .
(٦) دلائل الإعجاز ص ١٧٧ .
(٧) سورة القصص : ٢٣ .

من الناس يسقون غنمهم أو مواشيهم وامرأتين تذودان غنمهما حتى يصدر الرعاء، وقالتا لا نسقى عنمنا فسقى لهما غنمهما . . . ولكن هذا التقدير غير مراد فالمفعول لا يلتفت إليه فى الآيات ولا يخطر بالبال ولا ينوى، لأن إرادته وتقديره يؤديان إلى خلاف المراد . . يقول عبد القاهر : «لا يخفى على ذى بصر أنه ليس فى ذلك كله إلا أن يترك ذكره ويؤتى بالفعل مطلقاً، وما ذاك إلا أن الغرض فى أن يعلم أنه كان من الناس فى تلك الحال سقى، ومن المرأتين ذود، وأنهما قالتا لا يكون منا سقى حتى يصدر الرعاء وأنه كان من موسى عليه السلام من بعد ذلك سقى، فأما ما كان المسقى أغنما أم إبلا أم غير ذلك فخارج عن الغرض وموهم خلافه وذلك أنه لو قيل : وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما جاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو ذود بل من حيث هو ذود غنم، حتى لو كان مكان الغنم الإبل لم ينكر الذود، كما أنك إذا قلت : مالك تمنع أخاك ؟ كنت منكراً المنع لا من حيث هو منع، بل من حيث هو منع أخ . . »[1] .

وقد يكون الغرض من طى المفعول والسكوت عنه هو إثبات المعنى فى نفسه للفاعل دون قصد إلى مفعول معين إلا أن هذا الإثبات المطلق يستلزم إثباتاً مقيداً . . انظر إلى قول البحترى يمدح الخليفة «المعتز» ويعرض بالمستعين :

شجو حساده وغيظ عداه ... أن يرى مبصر ويسمع واع

فالمعنى : إن ما يؤلم حساده ويغيظ أعداءه أن يوجد فى الدنيا من يرى ويسمع «أن يرى مبصر ويسمع واع» ؛ لأنه إذا وجد من يرى ويسمع، فسوف يرى قطعاً مآثره وأمجاده وسوف يسمع لا محالة عن محاسنه وسيرته، فقد اشتهرت محاسنه وذاعت مآثره بحيث لا تخفى على من يسمع ويرى، لأنها ملأت الآفاق وحلت بكل موضع، والذى يحزن حساده ويغيظ أعداءه يعرض بالمستعين - أن يوجد من يرى ومن يسمع ؛ لأن وجوده يستلزم أن يسمع أخبار المعتز وأن يرى فضائله ومحاسنه . . ولذا يذكر الخطيب أن الفعل مطلقاً قد جعل كناية عن الفعل مقيداً بمفعول مخصوص، إذ بين مجرد الرؤية والسماع وبين رؤية المحاسن وسماع الأخبار تلازم وارتباط[2] . ومن جيد ذلك قول عمرو بن معد يكرب :

فلو أن قومى أنطقتنى رماحهم ... نطقت ولكن الرماح أجرت

(١) دلائل الإعجاز ص ١٨٢ .
(٢) الإيضاح ١ / ٢١٦ .

يصف قومه بالجبن والفرار وأنهم لم يبلوا فى الحرب بلاء، ولم يصنعوا شيئاً يستحقون به الحمد والثناء فما كان منهم قد حبس لسانه وقطعه عن النطق مشيداً بهم، ولو كان منهم جهاد وبلاء حسن لنطق وأشاد به، هذا هو المعنى، وتجد الشاعر قد سكت عن المفعول وطواه فى قوله : «ولكن الرماح أجرت»؛ لأن غرضه أن يثبت أنه كان من الرماح إجرار وحبس للألسنة عن النطق ولو قال : «أجرتنى» لجاز أن يتوهم أنها أجرت لسانه هو دون ألسنة غيره، وأن الرماح قد صنعت شيئاً لو أبصره غير عمرو لأشاد به ونطق، فلما كان فى تعديه «أجرت» ما يوهم ذلك وقف فلم يعد البته ولم ينطق بالمفعول لتخلص العناية لإثبات الإجرار للرماح ويصحح أنه كان منها، وتسلم بكليتها لذلك [1] .

ويرى الخطيب أن غرض الشاعر أن يثبت أنه كان من الرماح إجرار وحبس للألسنة عن النطق بمدحهم والافتخار بهم حتى يلزم بطريق الكناية مطلوبه وهو أنها أجرت لسانه هو، فإثبات الإجرار للرماح مطلقاً يستلزم إثباته مقيداً [2] . . . ولا يخفى عليك أن الاعتداد بالمعنى المكنى به أولى وأبلغ فى تحقيق مراد الشاعر من الاعتداد بالمعنى المكنى عنه، ولذا كان رأى عبد القاهر أدق وعباراته وتحليلاته لطى المفعول أولى بالقبول وما كان أغنى الخطيب عن القول بالكناية وعن ذلك التحديد القاتل للمغزى من الحذف، إن ما ذكره مستمد من كلام عبد القاهر، ومحاولة لإيجازه وتحديده ولكنه إيجاز مخل، وتحديد قد قتل روح التذوق والاستمتاع . . . وتأمل طى المفعول فى قول طفيل الغنوى مادحاً بنى جعفر بن كلاب :

جزى الله عنا جعفراً حين أزلفت ... بنا نعلنا فى الواطئين فزلت
أبوا أن يملونا ولو أن أمنا ... تلاقى الذى لا قوه منا لملت
هم خلطونا بالنفوس وألجأوا ... إلى حجرات أدفأت وأظلت

فقد طوى المفعول فى قوله : «ملت وأدفأت وأظلت» إذ الأصل : «ملتنا وأدفأتنا وأظلتنا»، وسبب هذا الطى هو القصد إلى إثبات الفعل للفاعل دون نظر إلى مفعول معين، وهذا ينىء ويشير إلى أن تلك الأفعال قد بلغت حد التناهى، فالأم لو لاقت مالاقوه

---

(١) دلائل الإعجاز ١٧٩ .

(٢) الإيضاح ١ / ٢١٨ .

بنو جعفر منهم لكان شأنها الملل . . وتلك الحجرات حجرات عظيمة معدة إعداداً طيباً ومجهزة تجهيزاً خاصاً، فشأن مثلها أن يدفىء وأن يظل، كما تقول : هذا بيت يدفىء ويظل، تريد أنه بهذه الصفة ولو ذكر المفعول لما تحقق هذا المعنى الذى قصد إليه الشاعر . .
واقرأ تحليل عبد القاهر للسر البلاغى الكامن وراء حذف المفعول فى هذه الأبيات والبيت السابق : «واعلم أن لك فى قوله : «أجرت» و «ملت» فائدة أخرى زائدة على ما ذكرت من توفير العناية على إثبات الفعل للفاعل وهى أن تقول : كان من سوء بلاء القوم ومن تكذيبهم عن القتال ما يجر مثله وما القضية فيه أنه لا يتفق على قوم إلا خرس شاعرهم فلم يستطع نطقاً، وتعديتك الفعل تمنع من هذا المعنى، لأنك إذا قلت : «ولكن الرماح أجرتنى» لم يمكن أن يتأول على معنى أنه كان منها ما شأن مثله أن يجر قضية مستمرة فى كل شاعر قوم، بل قد يجوز أن يوجد مثله فى قوم آخرين فلا يجر شاعرهم، ونظيره أنك تقول : «قد كان منك ما يؤلم»، تريد ما الشرط فى مثله أن يؤلم كل أحد وكل إنسان ولو قلت ما يؤلمنى، لم يفد ذلك، لأنه قد يجوز أن يؤلمك الشئ لا يؤلم غيرك، هكذا قوله : «ولو أن أمنا تلاقى الذى لا قوه منا لملت»، يتضمن أن من حكم مثله فى كل أم أن تمل وتسأم وأن المشقة فى ذلك إلى حد يعلم أن الأم تمل له الابن وتتبرم به، مع ما فى طباع الأمهات من الصبر على المكاره فى مصالح الأولاد، وذلك أنه وإن قال «أمنا» . فإن المعنى على أن ذلك حكم كل أم مع أولادها، ولو قلت : «لملتنا» لم يحتمل ذلك ؛ لأنه يجرى مجرى أن تقول : لو لقيت أمنا ذلك لدخلها ما يملها منا، وإذا قلت ما يملها منا فقيدت لم يصلح لأن يراد به معنى العموم وأنه بحيث يمل كل أم من كل ابن، وكذا قوله : «إلى حجرات أدفأت وأظلت» لأن فيه معنى قولك : حجرات من شأن مثلها أن تدفىء وتظل، أى : هى بالصفة التى إذا كان البيت عليها أدفأ وأظل، ولا يجىء هذا المعنى مع إظهار المفعول، إذ لا تقول : حجرات من شأن مثلها أن تدفئنا وتظلنا، هذا لغو من الكلام، فاعرف هذه النكتة فإنك تجدها فى كثير من هذا الفن مضمومة إلى المعنى الآخر الذى هو توفير العناية على إثبات الفعل، والدلالة على أن القصد من ذكر الفعل أن تثبته لفاعله لا أن تعلم التباسه بمفعوله»[1]، فأين هذا من قول الخطيب فى بيان الغرض من الحذف فى الأبيات : «فإن الأصل : لمتنا وأدفأتنا وأظلتنا، إلا أنه حذف المفعول من هذه المواضع ليدل

---

(١) دلائل الإعجاز ١٨١ .

على مطلوبه بطريق الكناية»[1] . أما حذف المفعول من قوله : «وألجأوا» إذ إن أصله : وألجأونا، فلا أرى له غرضاً سوى مجرد الإيجاز والاختصار لأن حكمه حكم ما عطف عليه وهو قوله : «خلطونا بالنفوس» . . وقد يقصد بحذف المفعول الإيضاح بعد الإبهام وهو غرض جليل لأن الشئ . إذا أبهم تطلعت النفوس إليه واشتاقت لمعرفته فإذا ما بين بعد ذلك وقع فى النفس موقعاً حسناً وترك فيها أثراً طيباً . . ويكثر هذا الحذف فى مفعول المشيئة أو الإرادة الواقعه بعد «لو» و«إن» ونحوهما من أدوات الشرط، كما ترى فى قوله تعالى : ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2]، إذ المعنى : ولو شاء هدايتكم لهداكم أجمعين، فحذف مفعول «شاء» لدلالة جواب الشرط عليه، وفى هذا الحذف إبهام يعقبه إيضاح وتبيين، لأن المخاطب إذا سمع قوله تعالى : «ولو شاء»، تعلقت نفسه بشئ قد أبهم وهو مفعول «شاء» وتطلعت إلى معرفته، فإذا ما ذكر الجواب : «لهداكم» استبان ذلك الشئ وعرف بعد أن كان قد أبهم، ولذا كان أوقع فى النفس وأبلغ وأشد تأثيراً، وكذا القول فى الآيات الكريمة : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[3] . . . ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[4] . . ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾[5] ، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾[6] فقد حذف مفعول المشيئة فى الآيات الكريمة وتقديره : لو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم . . فإن يشأ الله الختم على قلبك بختم . . إن يشأ الله إسكان الريح أسكنها . . ولو شئنا إتيان كل نفس هداها لآتينا . . ولا يخفى عليك ما فى حذف المفعول ثم دلالة الجواب عليه، من الإيضاح بعد الإبهام، وهذا مما يجعل المعنى يقر فى النفس ويثبت ويقع منها موقعاً حسناً . . . ومن ذلك قول طرفة بن العبد :

---

(١) الإيضاح ١ / ٢١٨ .
(٢) سورة النحل : ٩ .
(٣) سورة الأنعام : ٣٥ .
(٤) سورة الشورى : ٢٤ .
(٥) سورة الشورى : ٣٢ ، ٣٣ .
(٦) سورة السجدة : ١٣ .

فإن شئت لم ترقل وإن شئت أرقلت   مخافة ملوى من القـد محصـد [١]

يتحدث عن ناقته فيقول : إن شئت الإرقال أرقلت وإن شئت عدم الإرقال لم ترقل ، فطوى مفعول المشيئة فى الموضعين كما ترى ، وفى طيه إبهام أزاله وبينه جواب الشرط . . . ومثله قول البحترى :

لو شئت لم تفسد سماحة حاتم   كرماً ولم تهدم مآثر خالد [٢]

يصف ممدوحه بأنه قد بلغ الغاية فى الكرم والمجد حتى فاق شهرة حاتم وخالد فيهما ، والأصل : لو شئت عدم إفساد سماحة حاتم وعدم هدم مآثر خالد لم تفسد ولم تهدم ، فأبهم بحذف المفعول ثم بين بجواب الشرط . . . يقول عبد القاهر : «الأصل لا محالة لو شئت ألا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها ، ثم حذف ذلك من الأول استغناء بدلالته فى الثانى عليه ، ثم هو على ما تراه وتعلمه من الحسن والغرابة وهو على ما ذكرت لك من أن الواجب فى حكم البلاغة ألا ينطق بالمحذوف ولا يظهر إلى اللفظ فليس يخفى أنك لو رجعت فيه إلى ما هو أصله فقلت : لو شئت ألا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها ، صرت إلى كلام غث وإلى شئ يمجه السمع وتعافه النفس ، وذلك أن فى البيان إذا ورد بعد الإبهام وبعد التحريك له أبداً لطفاً ونبلاً ، لا يكون إذا لم يتقدم ما يحرك . وأنت إذا قلت : لو شئت ، علم السامع أنك قد علقت هذه المشيئة فى المعنى بشئ فهو يضع فى نفسه أن ههنا شيئاً تقتضى مشيئته له أن يكون أو ألا يكون ، فإذا قلت : لم تفسد سماحة حاتم ، عرف ذلك الشئ . .»[٣] . .

ثم اقرأ قوله تعالى : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾[٤] ، أى : لو نشاء أن نقول مثل هذا لقلناه . . وقوله عز وجل : ﴿مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٥] أى : من يشأ إضلاله يضلله ومن يشأ أن يجعله على صراط مستقيم يجعله . . فلن يخفى عليك ما فى حذف المفعول

(١) لم ترقل : لم تسرع . والملوي : السوط المفتول المحكم وكذلك المحصد ، والقد : الجلد المشقوق .
(٢) حاتم هو حاتم الطائي وخالد هو خالد بن إصبع النبهاني الذي نزل عليه امرؤ القيس .
(٣) دلائل الإعجاز ١٨٣ .
(٤) سورة الأنفال : ٣١ .
(٥) سورة الأنعام : ٣٩ .

من دقـة وجمال مردهمـا إلى ما يتركه الإيضـاح بعد الإبهام فى النفس من وقع طيب وأثر حسن . .

هذا إذا لم يكن فى تعلق فعل المشيئة أو الإرادة بالمفعول به غرابة ، وذلك بأن يكون المفعول من الأمور العجيبة الغريبة أو من الأمور البعيدة التى نادراً ما تقع ، فإن كان الأمر كذلك وجب ذكر المفعول ليتقرر فى نفس السامع ويأنس به . . انظر إلى قول أبى الهندام الخزاعى فى الرثاء :

قضى وطراً منك الحبيـب المـودع	وحـل الذى لا يستطـاع فيدفـع
ولـوشئـت أن أبكـى دماً لبكيـته	عليه ولكن ساحـة الصبـر أوسـع

لما كان بكاء الدم من الأمور العجيبة الغريبة ، وكانت إرادة الإنسان لأن يبكى دماً أعجب وأغرب ، فقد ذكره الشاعر ليتقرر فى نفس السامع ويأنس به ، لأنه عندئذ يكون قد ذكره مرتين مرة مفعولاً للمشيئة ومرة جواباً للشرط ، والشئ إذا كرر فإنه يتقرر فى النفس وتأنس به وتسكن إليه خاصة وأن غرابة المفعول تقتضى هذا التقرير . . . ويقول الإنسان مخبراً عن عزة نفسه ، مفتخراً بعلو مكانته : لو شئت أن أرد على الأمير لرددت ولو شئت أن ألقى الخليفة كل يوم للقيته ، تراه قد ذكر مفعول المشيئة لكونه من الأمور المستبعدة التى تكبرها النفس ولا تقرها بسهوله ، فالأمر إذاً يحتاج إلى تقرير وتأكيد ، ولذا ذكر المفعول ، وكرر بذكره ثانية فى الجواب . . . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾[1] ، فاتخاذ الله ولداً من الأمور الغريبة العجيبة ، وقد آثر النظم الكريم التعبير عن ذلك بأسلوب الشرط «لو» وهى حرف امتناع لامتناع – كما درست – ، ردعاً وزجراً لأولئك الذين قالوا اتخذ الله ولداً ، فقد قالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، وقال المشركون الملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . . فلما كان المفعول بهذه الغرابة وجب ذكره بعد الإرادة كما ترى . . . أما قول أبى الحسين على بن أحمد الجوهرى أحد شعراء الصاحب بن عباد :

فلم يبق منى الشوق غير تفكرى	فلو شئت أن أبكـى بكيت تفكـراً

---

(١) سورة الزمر : ٤ .

فليس مفعول المشيئة فيه غريباً، لأن المراد بالبكاء المذكور بعد «شئت» : بكاء الدمع لا بكاء التفكر المذكور فى الجواب، فالشاعر لم يرد أن يقول : فلو شئت أن أبكى تفكراً لبكيت تفكراً، ولكنه أراد أن يقول : أفنانى النحول فلم يبق منى وفى غير خواطر تجول حتى لو شئت بكاء فمريت جفونى وعصرت عينى ليسيل منهما دمع لم أجده وخرج بدل الدمع التفكر، فالبكاء الثانى لا يصلح أن يكون تفسيراً للبكاء الأول لو حذف، ومراد الشاعر لا يتم إلا بذكر مفعول المشيئة، وليس المعنى هنا فى هذا البيت كالمعنى فى بيت أبى الهندام، لأن البكاء هناك فى الموضعين بكاء دم ؛ أما هنا فالأول بكاء دموع والثانى بكاء تفكر، فلا يصلح الثانى دليلاً على الأول كما قلت، ونظيره أن تقول : لو شئت أن تعطى درهماً أعطيت درهمين، فالثانى وهو جواب الشرط لا يصلح أن يكون تفسيراً للأول وهو مفعول «شئت» لأن الأول إعطاء درهم والثانى إعطاء درهمين . . . ولا نبعد إذا قلنا : إن الغرابة فى بيت الجوهرى، فى جواب الشرط «بكيت تفكراً» وأنه لغرابته لا يدل على مفعول المشيئة لو حذف، ولذا وجب ذكره حتى لا يضيع غرض الشاعر كما بينا .

وقد يقصد بحذف المفعول تهيئة العبارة لوقوع الفعل على صريح لفظ المفعول، إظهاراً لكمال العناية بوقوعه عليه . . . انظر إلى قول البحترى يمدح المعتز :

قد طلبنا فلم نجد لك فى السـؤ دد والمجـد والمكـارم مثـلاً

يريد أن يقول : قد بحثنا لك عن شبيه فى صفاتك العالية «فأجهدنا البحث وأضنانا دون أن نعثر على هذا الشبيه، فأنت فرد فى صفاتك لا نظير لك ولا مثيل . . . وتجد الشاعر قد حذف مفعول طلب ليتسنى له أن يوقع نفى الوجود على صريح لفظ المثل ؛ لأن نفى الوجود هو الأصل فى المدح والغرض منه، أما الطلب فكالشىء يذكر ليبنى عليه الغرض ويؤكد به أمره ولو قيل : قد طلبنا لك مثلاً فى السؤدد والمجد والمكارم فلم نجده، لوقع الفعل «طلب» على صريح لفظ المفعول، والفعل المنفى الذى هو الغرض الأصلى للمديح «فلم نجد» على ضميره، وفرق بين أن يقع الفعل على صريح اللفظ وأن يقع على ضميره، من أجل هذا حذف الشاعر مفعول «طلب» ؛ لأن حذفه يمكنه من أن يوقع نفى الوجود على صريح لفظ المفعول .

وشئ آخر تراه وراء حذف المفعول فى البيت وهو البيان والإيضاح بعد الإبهام، فحذف مفعول «طلب» قد جعل السامع يشغل به ويبحث عنه، فلما ذكر مع الفعل الثانى «فلم نجد» وقع فى نفسه موقعاً حسناً ؛ لأنه جاء والنفس متطلعة إليه ومنشغلة به .

ومزية ثالثه تجدها وراء هذا الحذف وهى مراعاة الأدب فى مقام المدح، فالشاعر كان حذراً ولطيفاً، إذ تحاشى أن يواجه الممدوح بأنه يطلب له نظيراً ويبحث عن مثيل له، بل أشار إلى ذلك إشارة خاطفة ولم يمد القول، وكأنه يريد أن يطويه سريعاً ليصل إلى الغرض الأصلى من المدح وهو نفى وجود المثل [1].

وتأمل قول ذى الرمة يمدح بلال بن أبى بردة وينفى عن نفسه مدح اللئام :

ولم أمدح لأرضيه بشعرى ... لئيماً أن يكون أصاب مالاً

ولكن الكرام لهم ثنائى ... فلا أجزى إلى ما قيل قالا

تجد أنه لما كان الغرض الأصلى أن ينفى عن نفسه مدح اللئام، وكان الإرضاء تعليلاً له، فقد ذكر الشاعر المفعول فى الموضعين وذلك ليقع نفى المدح على صريح لفظ اللئيم، ويقع الإرضاء على ضميره، ولو أنه حذف مفعول «أمدح» فقال : ولم أمدح لأرضى بشعرى لئيماً، لما تحقق غرضه، ولتوهم متوهم أنه يريد أن ينفى عن نفسه إرضاء اللئيم، وأن هذا هو أصل كلامه وغرضه منه، أما «أمدح» فيكون كالشئ يذكر تبعاً ليبنى عليه الغرض، كما فى بيت البحترى السابق، وليس هذا مراد الشاعر، بل مراده - كما قلت - أن ينفى عن نفسه مدح اللئام ليوقع فى نفس ممدوحه أن ما يسمعه من شعر لا يعرف إلا الكرام وأنه ليس موكلاً إلا بهم . . . فالمقام فى بيت البحترى قد اقتضى أن يحذف مفعول «طلب» ليقع نفى الوجود على صريح لفظ المثل، واقتضى فى بيت ذى الرمة أن يذكر مفعولا «أمدح وأرضى»، ليقع نفى المدح على صريح لفظ اللئيم أيضاً .

وقد يقصد بحذف المفعول دفع توهم غير المراد ابتداء، ووقوع المعنى الذى يريده المتكلم فى نفس مخاطبه من أول الأمر كما فى قول البحترى يمدح أبا الصقر الشيبانى فى قصيدته التى مطلعها :

أعن سفه يوم الأبيرق أم حلم ... وقوف بربع أو بكاء على رسم

قال مخاطباً أبا الصقر :

وكم ذدت عنى من تحامل حادث ... وسورة أيام حززن إلى العظم

---

(١) الإيضاح ١ / ٢٢٢ .

يريد أن يقول إن الممدوح طالما دفع عنه عوادى الزمن، ورد عنه طغيان أيام ضربته فأوجعته . حتى بلغت فى قسوتها الغاية، فقوله «حززن إلى العظم» كناية عن بلوغها الغاية فى الشدة . . . وتلاحظ أن الشاعر قد حذف مفعول «حز» وتقديره : حززن اللحم إلى العظم وهو يريد بهذا الحذف أن يقع المعنى فى نفس السامع ابتداء، إذلو ذكر المفعول فقال : «حززن اللحم» لتوهم أن الحز كان ضعيفاً وأنه أصاب بعض اللحم مما يلى الجلد ولم يصل إلى العظم، فما دفعه عنه الممدوح إذاً شىء يسير، وليس سورة أيام وأحداثاً قد تحاملت عليه، فإذا ما وصل السامع إلى قوله : «إلى العظم» اندفع هذا التوهم وزال، ولكن الشاعر الحاذق هو الذى يوقع المعنى فى ذهن سامعه من أول وهلة ولا يجعله يتصور فى أول الأمر شيئاً غير مراد ثم ينصرف إلى المراد .

يقول عبد القاهر : «الأصل لا محالة : «حززن اللحم إلى العظم» إلا أن فى مجيئه به محذوفاً وإسقاطه له من النطق وتركه فى الضمير مزية عجيبة وفائدة جليلة، وذاك أن من حذق الشاعر أن يوقع المعنى فى نفس السامع إيقاعاً يمنعه به من أن يتوهم فى بدء الأمر شيئاً غير المراد ثم ينصرف إلى المراد، ومعلوم أنه لو أظهر المفعول فقال : «وسورة أيام حززن اللحم إلى العظم» لجاز أن يقع فى وهم السامع إلى أن يجىء إلى قوله : «إلى العظم» أن هذا الحز كان فى بعض اللحم دون كله، وأنه قطع ما يلى الجلد ولم ينته إلى ما يلى العظم، فلما كان كذلك ترك ذكر اللحم وأسقطه من اللفظ ليبرئ . السامع من هذا ويجعله بحيث يقع المعنى منه فى أنف الفهم «أى : فى أوله لأن أنف الشىء أوله» ويتصور فى نفسه من أول الأمر أن الحز مضى فى اللحم حتى لم يرده إلا العظم . . »[1] .

وقد يحذف المفعول لإرادة التعميم والامتناع عن أن يقصره السامع على ما يذكر دون غيره . انظر إلى قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾[2] تجد أن المفعول قد حذف لإفادة العموم وأن الدعوة ليست مقصورة على أحد دون آخر بل تتعدى إلى كل من تتأتى دعوته فالمراد - والله أعلم - يدعو كل أحد تصلح دعوته إلى الجنة . . . وتقول لصاحبك . قد كان منك ما يؤلم، أى : ما الشأن فى مثله أن يؤلم كل أحد فحذفك المفعول أفاد التعميم

(١) دلائل الإعجاز ١٩١ .

(٢) سورة يونس : ٢٥ .

مبالغة فى إيلام ما كان منه، فهو من الشدة بحيث يؤلم كل أحد ولو ذكرت المفعول فقلت : قد كان منك ما يؤلمنى، لفاتت تلك المبالغة المطلوبة . . . وتأمل قول البحترى :

إذا بعدت أبلت وإن قربت شفت فهجرانهـا يبلى ولقيانهـا يشفـى

تجده قد حذف المفعول فى أربعة مواضع والتقدير : إذا بعدت عنى أبلتنى وإن قربت منى شفتنى فهجرانها يبلينى ولقيانها يشفينى . .

والحذف - كما ترى أفاد المبالغة وعموم الفعل، وصور أن بعدها يبلى كل أحد فهو البلى والداء المضنى، وأن قربها ولقيانها هو الشفاء والبرء من كل داء . . واقرأ قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾(١) .

يقول الزمخشرى : وفى قوله تعالى : «لا تقدموا» من غير ذكر المفعول وجهان :

أحدهما : أن يحذف ليتناول كل ما يقع فى النفس مما يقدم .

والثانى : ألا يقصد قصد مفعول ولا حذفه ويتوجه بالنهى إلى نفس التقدمة، كأنه قيل : لا تقدموا على التلبس بهذا الفعل ولا تجعلوه منكم بسبيل كقوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ﴾(٢) ، ويجوز أن يكون من قدم بمعنى تقدم (٣) .

وقد يحذف المفعول حتى لا يقع عليه الفعل وذلك لمزية بلاغية وهدف يقصد إليه المتكلم . . انظر إلى قوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾(٤) فالأصل : أهذا الذى بعثه الله رسولاً، فحذف المفعول وهو الضمير العائد إلى النبى صلى الله عليه وسلم، وهذا الحذف ينبىء بحقد المشركين على النبى صلوات الله وسلامه عليه، ويصور مدى كراهيتهم له، حتى كأنهم لا يطيقون النطق بالبعث واقعاً عليه، فهم يتحاشون مجرد النطق بالبعث منسوباً إليه، فضلاً عن الإيمان بذلك وتصديقه . . . وخذ قوله تعالى : ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾(٥) فقد

(١) سورة الحجرات : ١ .

(٢) سورة غافر : ٦٨ .

(٣) الكشاف ٣/ ٥٥٢ .

(٤) سورة الفرقان ٤١ .

(٥) سورة الضحى : ١ ، ٢ .

حذف المفعول وهو الضمير العائد إلى النبى صلى الله عليه وسلم، والتقدير : وما قلاك، وذلك لصونه عن نسبة القلى إليه وتحاشياً لوقوع الفعل «قلى» على ضمير المخاطب ولو كان هذا الفعل منفياً، لأن فى ذلك ما يوحش، بخلاف «ودعك» فليس التوديع كالقلى، وحذف المفعول فى الآية له مزية أخرى وهى رعاية الفاصلة والمحافظة على التنغيم الصوتى لما له من قوة تأثير فى النفوس وذلك عندما يقتضيه المقام ويتطلبه المعنى، وهذا هو شأن الفواصل فى النظم الكريم، فهى تأتى تابعة للمعنى ومحققة لما يقتضيه المقام، وعندما يتطلب المعنى، ويقتضى المقام التخلى عن تتابع الفواصل تجد الفاصلة قد قطعت، وما يقتضيه المعنى قد أقر وأثبت [١] .

واقرأ قوله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا * قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾[٢] ، فقد حذف مفعول «لينذر» والأصل : لينذر الذين كفروا بأساً شديداً، وذلك حتى لا يقع الإنذارعلى الذين كفروا فيكون فى هذا تنفير لهم من قبول الهدى والإيمان بالحق . . فحذف المفعول فيه ترغيب لهم فى قبول الهداية والإيمان، واستمالة لهم نحو الحق والنور المبين . .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾[٣] فالمراد - والله أعلم - أرنى ذاتك فحذف المفعول حتى لا تقع عليه الرؤية، إذ الذات العلية لا تقع عليها الرؤية المحيطة كما تقع على الأشياء، وإنما هى تجليات، ولذا قال موسى - عليه السلام - «رب أرنى» وأمسك ليفيد قصده دون أن تقع الرؤية على الذات الإلهية؛ لأن هذا شئ لا يليق بالجلال، ففى مثل هذه الأمور الهائلة وفى تلك المقامات الربانية ينبغى أن يكون الطلب تلميحاً وإيماء ولا يليق أن يكون صريحاً مكشوفاً [٤]

---

(١) هذا وكثير من البلاغيين لا يرتضي أن تكون رعاية الفاصلة علة بلاغية لأنها -كما يقولون- علة لفظية والأسلوب القرآني قد بنى على مراعاة المعاني لا الألفاظ وهذا ليس بشيء لأن الفواصل - كما قلت- تابعة للمعنى وخاضعة لما يقتضيه المقام. . راجع في ذلك النكت للرماني ص ١١ وما بعدها وخصائص التراكيب ص ٢٨٧ وما بعدها .

(٢) سورة الكهف : ١ ، ٢ .

(٣) سورة الأعراف : ١٤٣ .

(٤) خصائص التراكيب ص ٢٨٥ .

وقد يحذف المفعول استهجاناً لذكره والتصريح به، كما ترى فى قول عائشة - رضى الله عنها - : «كنت أغتسل أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم من إناء واحد فما رأيت منه ولا رأى منى»، تريد رؤية العورة . . . وقد يحذف لمجرد الاختصار والإيجاز حيث تدل عليه القرينة دلالة بينة جلية فيعد ذكره عندئذ عبثاً، كما تقول : أصغيت إليه، تريد : أذنى، وأغضيت عنه : تعنى : بصرى . . . ومنه قوله جل وعلا : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾[1] فالدعاء فى الآية بمعنى التسمية والأصل : قل ادعوه الله أو ادعوه الرحمن، فحذف المفعول إيجازاً و اختصاراً . . . وقد يحذف لتعينه كما فى قولك . نحمد ونشكر، تريد: نحمد الله ونشكره، فتسكت عن ذكر لفظ الجلالة لتعينه وانصراف الفعلين له تعالى .

وقد يحذف لصون لسانك عن النطق به، كما تقول : لعن الله وأخزى، تريد : الشيطان، فتحذفه صوناً للسانك عن النطق به . . . إلى غير ذلك من الأسرار الدقيقة التى تراها كامنة وراء طى المفعول وإسقاطه والسكوت عنه، فهى لا تخفى على صاحب الذوق السليم، وذى الطبع العربى القويم، عندما يقرأ وينظر فى التراكيب الجيدة والأساليب الرفيعة .

تقديم المفعول ونحوه من المتعلقات على العامل :

وتقديم المفعول ونحوه من المعمولات كالجار والمجرور والظرف والمصدر والحال على العامل يفيد غالباً الاختصاص، أى : قصر العامل المؤخر على معموله المقدم، تقول : زيداً أكرمت، وبمحمد مررت، وضاحكاً جاء زيد، وإشفاقاً أعطيت . الخ . فتفيد بذلك قصر الإكرام على زيد، والمرور على كونه بمحمد، وقصر مجىء زيد على هيئة الضحك، وإعطائك على كونه من أجل الإشفاق . . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[2] ، أى : نخصك بالعبادة فلا نعبد غيرك، ونخصك بالاستعانة فلا نستعين إلا بك، فتقديم المفعول «إياك» فى الموضعين قد أفاد القصر أى : قصر العبادة والاستعانة عليه

(١) سورة الإسراء : ١١٠ .

(٢) سورة الفاتحة : ٥ .

تعالى . . وكذا القول فى الآيات الكريمة : ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾[1] . . . ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[2] . . ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[3] ، فتقديم المعمولات : «إلى الله . . عليه . . إياه» فى الآيات الكريمة قد أفاد الاختصاص . . . ومن ذلك قول شوقى :

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم لم يبن ملك على جهل وإقلال

فتقديم الجار والمجرور «بالعلم» أفاد قصر بناء الملك على كونه بالعلم والمال . . ومثله قول الآخر :

إذا شئت يوماً أن تسود عشيرة فبالحلم سد لا بالتسرع والشتم

وقول الثالث :

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعز ركن

فقد قصرت السيادة فى البيت الأول على الحلم بحيث لا تتعداه إلى التسرع والشتم . . وقصر بناء الممالك وخطها فى البيت الثانى على الأخلاق فليس وراءها للعز ركن . . . والعامل المقدر فى ذلك كالمذكور، فقولك : زيداً عرفته، إن قدر المفسر بعد المنصوب أى : زيداً عرفت عرفته أفاد التخصيص، وإن قدر قبله أى : عرفت زيداً عرفته، أفاد التوكيد وتقوية الحكم، أما قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾[4] ، فى قراءة من قرأ بنصب «ثمود» فلا يفيد إلا الاختصاص . لأنه لا يتأتى أن يقدر المفسر قبل المنصوب، فلا يقال : أما فهدينا ثمود لوجوب الفصل بين «أما» والفاء، والصواب أن الذى يمتنع هو ذكر المفسر أما تقديره فجائز لأن من المقدر مالا يصح ذكره كالضمير المستتر وجوباً . . ولكون تقديم المعمول على عامله يفيد غالباً الاختصاص، كان من الخطأ أن تقول : ما زيداً ضربت ولا غيره، لأن تقديم المفعول وإيلاءه أداة النفى أفاد : نفى الضرب

---

(١) سورة آل عمران : ١٥٨ .

(١) سورة التوبة : ١٣٩ .

(٢) سورة البقرة : ١٧٢ .

(٣) سورة فصلت : ١٧ .

عن زيد وإثباته لغيره، فقولك بعده : «ولا غيره» يناقضه ويدفعه، أي أن عجز الجملة يتناقض مع صدرها، ونحوه قولك : ما بهذا أمرتك ولا بغيره لأن قولك : «ما بهذا أمرتك» أفاد نفى الأمر عن الجار والمجرور المقدم وإثباته لغيره، وقولك بعده : «ولا بغيره» يناقضه، والصواب أن يقال : ما ضربت زيداً ولا غيره، ما أمرتك بهذا ولا بغيره، بدون تقديم أو يقال : ما زيداً ضربت بل عمراً . . ما بهذا أمرتك لكن بغيره . . وكذا من الخطأ أن تقول : ما زيداً ضربت ولكن أكرمت لأن تقديم المفعول أفاد نفى الضرب عن زيد وإثباته لغيره، وقولك : «ولكن أكرمت» رجوع عن إثبات الضرب لغير زيد، فالصواب أن تقول : ما ضربت زيداً ولكن أكرمته أو تقول : ما زيداً ضربت ولكن عمراً، فاعرف هذا فإنه دقيق، وهو مبنى كما قلت لك على إفادة التقديم للاختصاص . . . وتأمل قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(١) ، تجد أن الجار والمجرور قد أخر على شبه الفعل فى قوله : «شهداء على الناس» . وقدم عليه فى قوله : «عليكم شهيداً»، وذلك لأن الغرض فى الأول إثبات شهادتهم على الأمم دون إفادة اختصاصهم بتلك الشهادة، وفى الثانى المراد إفادة اختصاصهم بكون الرسول صلى الله عليه وسلم شهيداً عليهم، وليس مجرد إثبات شهادته . .

يقول الزمخشرى : «روى أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالب الله الأنبياء بالبينة على أنهم قد بلغوا وهو أعلم، فيؤتى بأمة محمد - صلى الله عليه وسلم - فيشهدون، فتقول الأمم من أين عرفتم ؟ فيقولون علمنا ذلك بإخبار الله فى كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق، فيؤتى بمحمد - صلى الله عليه وسلم - فيسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بعد التهم، وذلك قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾(٢) . . . وقيل لتكونوا شهداء على الناس فى الدنيا، فيما لا يصلح إلا بشهادة العدول الأخيار ويكون الرسول عليكم شهيداً يزكيكم ويعلم بعدالتكم، فإن قلت : لم أخرت صلة الشهادة أولاً وقدمت آخراً ؟ قلت : لأن الغرض فى الأول إثبات شهادتهم على الأمم، وفى الآخر اختصاصهم بكون الرسول - صلى الله عليه وسلم - شهيداً عليهم» (٣) .

(١) سورة البقرة : ١٤٣ .

(٢) سورة النساء : ٤١ .

(٣) الكشاف جـ ١ ص ٣١٧ ، ٣١٨ .

واقرأ قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[1] ، وقوله عز وجل : ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾[2] تجد أن الجار والمجرور قد أخر فى الآية الأولى، لأنه لا معنى للدلالة على الاختصاص فيها، إذ كون الإعادة أهون من البدء أمر مسلم به لا ينكره أحد . . أما فى الآية الثانية فقد قدم الجار والمجرور للدلالة على الاختصاص ؛ لأن المقام يقتضى ذلك . . يقول الزمخشرى : «فإن قلت : لم أخرت الصلة فى قوله : «وهو أهون عليه»، وقدمت فى قوله: «هو على هين» ؟ قلت : هناك قصد الاختصاص وهو محزه فقيل : هو على هين وإن كان مستصعباً عندكم أن يولد بين هرم وعاقر، وأما ههنا فلا معنى للاختصاص، كيف والأمر مبنى على ما يعقلون من أن الإعادة أسهل من الابتداء، فلو قدمت الصلة لتغير المعنى . . » [3] .

وقد يفيد التقديم بالإضافة إلى الاختصاص مزية أخرى وهى المحافظة على الفواصل والاستمرار فى التنغيم الصوتى، على نحو ما ترى فى قوله تعالى : ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ . ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ . ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [4] ، فتقديم المفعول : «الجحيم» والجار والمجرور : «فى سلسلة»يفيد الاختصاص والمحافظة على الفاصلة واستمرار النغم الصوتى المؤثر فى الأنفس، ومثله قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [5] . . وقد يقدم المعمول لكونه محل الإنكار، كما فى قوله تعالى : ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [6]، فمحل الإنكار هو كون غير الله بمثابة أن يبغى رباً ولذا قدم فولى همزة الاستفهام .

ومن ذلك قول الشاعر :

أبعد المشيب المنقضى فى الذوائب   تحاول وصل الغانيات الكواعب ؟

---

(١) سورة الروم : ٢٧ .

(٢) سورة مريم : ٩ ، ٢١ .

(٣) الكشاف ٣ / ٢٢٠ .

(٤) سورة الحاقة : ٣٠ ـ ٣٢ .

(٥) سورة المدثر : ١ ـ ٥ .

(٦) سورة الأنعام : ١٦٤ .

فموضع الإنكار هو كون محاولة الوصل بعد ظهور المشيب فى الذوائب ولذا قدم الظرف «بعد» فولى الهمزة .

وقد يكون التقديم للتوكيد والاهتمام بالمقدم وتقوية الحكم كما فى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ . وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ﴾ (١) .

فتقديم « اليتيم» و «السائل» لتأكيد النهى وتقرير الحكم إذ لا معنى لقصر النهى عن القهر على اليتيم، والنهى عن النهر على السائل ولا يخفى عليك ما وراء التقديم من مجىء الفاصلة فى الآيتين على حرف الراء، وما ينبىء به ذلك من شدة الزجر وقوة التحذير . . وتقول : عن الصلاة لا تغفل . . الزنا لا تقرب، فيفيد التقديم المبالغة فى النهى وشدة التحذير .

تقديم بعض المتعلقات على بعض :

الأصل فى صياغة الكلام وبناء الجمل وتأليف العبارات أن يتقدم الفاعل على المفعول ونحوه من المتعلقات، وأن يتقدم المفعول الأول على الثانى والثانى على الثالث فيقال مثلاً : أكرم محمد خالداً، وأعطى حاتم الفقير درهماً، وأعلمت عمراً ابنه ناجحاً . . وقد يخالف هذا الأصل فيقدم أحد المتعلقات على الفاعل أو تقدم بعض المتعلقات على بعض وذلك لأسرار بلاغية يقصد إليها البلاغى ويقتضيها المقام . فإذا كان الغرض من الكلام معرفة وقوع الفعل على المفعول وانشغل الناس بذلك قدم المفعول على الفاعل فيقال مثلاً : قتل الخارجى عمرو، وأمسك بالمجرم الشرطى، وذلك لأن الناس منشغلون بأمر الخارجى والمجرم، والغرض من الكلام متوجه إليهما . . وتأمل قوله تعالى : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ (٢) وقوله عز وجل : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم﴾ (٣) تجد فى الآية الأولى : «نحن نرزقكم وإياهم» قد قدم ضمير المخاطبين على ضمير الأولاد وفى الآية الثانية «نحن نرزقهم وإياكم» قدم ضمير الأولاد على ضمير

(١) سورة الضحى : ٩ ، ١٠ .

(٢) سورة الأنعام : ١٥١ .

(٣) سورة الإسراء : ٣١ .

المخاطبين، وسببَ ذلك أنَّ الخطاب فى الأولى للفقراء بدليل قوله تعالى: «من إملاق»، فكان رزقهم أهم عندهم من رزق أبنائهم، إذ هم فى حاجة إليه، ولذا قدم الوعد برزقهم على الوعد برزق أولادهم والخطاب فى الثانية للأغنياء بدليل قوله تعالى «خشية إملاق»، فإن الخشية إنما تكون مما لم يقع، فكان رزق أولادهم هو المطلوب دون رزقهم، لأنه حاصل، ولذا قدم الوعد برزق أولادهم على الوعد برزقهم . . . وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾[1] فقد قالوا: إن مفعولى «جعل» قوله «لله شركاء» وقال آخرون: «الجن» مفعول أول و«شركاء» مفعول ثان، وعلى كلا الرأيين فقد قدم «لله» المفعول الثانى «لجعل» أو متعلق المفعول الثانى - على الرأى الآخر - قدم على المفعول الأول، وذلك لأن تقديمه أبلغ فى الإنكار وأقوى فى الردع والزجر. . وتأمل: «وجعلوا لله شركاء الجن». وجعلوا الجن شركاء لله. فسوف ترى بعد ما بين القولين، إن محل الإنكار وموضع العناية والغرض من الكلام هو الجار والمجرور «لله» ولذا قدم ليكون الزجر أقوى والتحذير أشد. . واقرأ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ . لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾[2]، وقوله عز وجل: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ . قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ﴾[3] تجد فى الآية الأولى: «وعدنا هذا نحن وآباؤنا» وفى الثانية: «وعدنا نحن وآباؤنا هذا»، وذلك لأن السياق فى الآية الأولى ينبئ بأن مصب الإنكار وموضعه والجهة التى نظر إليها الكفرة وقصدوها بإنكارهم إنما هى البعث، فبعثهم وإخراجهم بعد موتهم وصيرورتهم تراباً هم وآباؤهم هو الغرض الذى تعمد بالكلام وقصد: «أإذا كنا تراباً وآباؤنا أإنا لمخرجون»؟ ولذا قدم اسم الإشارة المشار به إلى البعث، إذ هو الغرض المقصود والمساق له الكلام . . أما فى الآية الثانية، فالسياق ينبئ بمدى تمسكهم بعقائد الآباء وحرصهم على محاكاتها وتقليدهم فيها، فموضع الإنكار ومصبه، والجهة المنظور منها هى المبعوثون لا البعث فهم سياق الحديث والغرض الذى تعمد به وقصد: «بل قالوا مثل ما قال الأولون. قالوا أ إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أ إنا لمبعوثون» ولذا قدموا هم وآباؤهم على اسم الإشارة المشار به إلى البعث . . «وعدنا نحن وآباؤنا هذا» . . . فلما كان الغرض

---

(١) سورة الأنعام: ١٠٠ .

(٢) سورة النمل: ٦٧، ٦٨ .

(٣) سورة المؤمنون: ٨١ - ٨٣ .

المقصود فى الآية الأولى هو البعث قدم اسم الإشارة ولما كان الغرض المقصود فى الآية الثانية هم المبعوثون قدم ما يدل عليهم «نحن وآباؤنا» . . كمـا أن وراء تقديم اسم الإشارة فى الآية الأولى وتأخيره فى الثانية غرضين آخريـن ، أولهما المحافظة على النسق القرآنى فى الآيتين ، وثانيهما الإشارة إلى البعد فى الآية الأولى حيث صاروا تراباً ، أما فى الأخرى فقد صاروا تراباً وعظاماً[1] .

وقد يكون الغرض من تقديم أحد المعمولات على الآخر هو أن تأخيره يخل بالمعنى ويوهم خلاف المراد ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [2] فقد وصف الرجل بثلاث صفات : الإيمان ، وكونه من آل فرعون ، وكتمانه إيمانه ، وقدم «من آل فرعون» على «يكتم إيمانه» ؛ لأنه لو أخر فقيل : وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون ، لتوهم أنه متعلق بالفعل «يكتم» ، وأن الرجل يكتم إيمانه خوفاً من آل فرعون ، وفى هذا إخلال بالمعنى المراد ، إذ لا يفهم منه عندئذ أن الرجل كان من آل فرعون ، بل يتوهم أنه كان يكتم إيمانه خوفاً منهم ، وفى هذا إخلال - كما قلت - وضياع للهدف والغرض من الآيات ، إذ المراد إبراز عناية الله تعالى ، ورعايته لموسى - عليه السلام - بأن جعل من آل فرعون من يدافع عنه ويجادلهم فيه ويناقشهم من أجله . . . وتأمل قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [3] وقوله عز وجل : ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [4]، تجد الآية الأولى قد قدم فيها الجار والمجرور «من قومه» على صفة الملأ وهى : «الذين كفروا وكذبوا . . .» ، وذلك لأنه لو أخر فقيل : «وقال الملأ الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا من قومه» ، لتوهم أنه من صلة الدنيا ، وأن المعنى وأترفناهم فى الحياة الدنيا من قومه أى : القريبة منهم ، وبذا يكون القائلون ليسوا من قومه ، فدفعا لهذا التوهم قدم الجار والمجرور ، وقد نشأ التوهم من طول الصفة بالصلة وما عطف عليها كما هو واضح . أما فى الآية الثانية فليس فيها ما يوهم خلاف المراد ولذا تأخر الجار والمجرور فلم يقدم على الصفة .

(١) الكشاف ٣ / ٤٠ والإيضاح ١ / ٢٣٤ .
(٢) سورة غافر : ٢٨ .
(٣) سورة المؤمنون : ٣٣ .
(٤) سورة المؤمنون : ٢٤ .

وقد يكون الغرض الدلالة على الاختصاص كما فى قوله تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً﴾ [1] فتقديم الجار والمجرور «للناس» على «رسولاً» دل على اختصاص رسالته صلى الله عليه وسلم بشمولها الناس كافة، واللام فى الناس للاستغراق ولا يصح أن تكون للعهد ولا للجنس .

وقد يقدم أحد المتعلقات لإفادة التبكيت والتوبيخ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[2] حيث قدم الجار والمجرور «من أقصى المدينة» على الفاعل «رجل»؛ لأن فى هذا التقديم زيادة فى تبكيت أولئك القوم وتوبيخهم فقد كانوا قريبين من الرسل، وشاهدوا منهم ما لم يشاهده ذلك الرجل الذى كان فى أقصى المدينة، وعلى الرغم من ذلك، فقد نصح لهم بما لم ينصحوا به أنفسهم . . . واقرأ قوله تعالى : ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [3] تجد أن الجار والمجرور لم يقدم على الفاعل كما قدم فى الآية السابقة؛ لأن المقام لم يقتض التقديم هنا كما اقتضى هناك . . وتأمل قوله تعالى : ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[4] تجد أن تقديم الجار والمجرور على المفعول فى قوله : «بسطت إلى يدك» أفاد أنه كان حريصاً على قتل أخيه، وأن جل اهتمامه متوجه إليه، إلى قتل الأخ لا إلى مطلق القتل، وفى هذا من التوبيخ والتبكيت ما فيه . وفيه أيضاً تنبيه إلى ما هو مقبل عليه من خطأ ودعوى له أن يتأمل فيرتدع وينزجر ويكف عن قتل أخيه، وانظر إلى الأداة «إن» وإيثار التعبير بها وما ينبئ به ذلك من أن بسط اليد لقتل الأخ ينبغى أن يكون من الأمور المستبعدة النادرة الوقوع . . . أما قوله : «ما أنا بباسط يدى إليك»، فقد أخر فيه الجار والمجرور «إليك» عن المفعول «يدى» لأنه ليس حريصاً على قتل أخيه، بل ليس ممن يصدر عنه القتل مطلقاً، وينبئ بهذا أسلوب القصر : «ما أنا بباسط يدى إليك» الذى أفاد نفى البسط عنه وإثباته لغيره .

---

(١) سورة النساء . ٧٩ .

(٢) سورة يس : ٢٠ .

(٣) سورة القصص : ٢٠ .

(٤) سورة المائدة : ٢٨ .

وقد يكون التقديم من أجل المحافظة على الفاصلة ومراعاة النسق الصوتى وماله من أثر فى المعنى ووقع فى النفس كما فى قوله تعالى : ﴿ **قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ . فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ . قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ** ﴾ (١) حيث قدم المفعول : «خيفة» والجار والمجرور : «فى نفسه» على الفاعل ؛ لأنه لو قدم عليهما فقيل : فأوجس موسى فى نفسه خيفة، أو فأوجس موسى خيفة فى نفسه، لكان فى ذلك خروج على النسق الصوتى، وإخلال بموسيقى النظم، وما لها من وقع فى النفس وأثر فى المعنى.

وقد تلحظ فى تقديم المتعلقات ما للمقدم من فضل ومزية على المؤخر كما فى قوله تعالى : ﴿ **وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ** ﴾ (٢) فقد قدم : «رجالاً» ؛ لأن من حج راجلاً أفضل منزلة عند الله عز وجل لما يقاسيه من الجهد والمشقة . . ولذا قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : «وددت لو حججت راجلاً، فإن الله قدم الرجالة على الركبان فى القرآن» . . وتأمل قوله تعالى : ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ** ﴾(٣) تجد أن ترتيب المتعلقات قد لوحظ فيه أفضليتها عند النفس ومدى تعلقها بها، فالنساء أكثر تمكناً فى النفس من البنين لما يظهر فيهن من قوة الشهوة، والبنون أقوى محبة من المال، والذهب أشد تمكناً من الفضة، والخيل أدخل فى المحبة من الأنعام، والأنعام أقعد من الحرث .

إلى غير ذلك من الاعتبارات والمزايا البلاغية التى تلاحظ فى تقديم بعض المتعلقات على بعض .

❒❒❒

---

(١) سورة طه : ٦٦ - ٦٨ .

(٢) سورة الحج : ٢٧ .

(٣) سورة آل عمران : ١٤ .

خروج الكلام عن مقتضى الظاهر :

قد يخرج الكلام عن مقتضى الظاهر لأغراض ومقاصد يقصد إليها البلاغى ويقتضيها المقام : وصور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر كثيرة، وقد مر بك منها عند الحديث عن أضرب الخبر، تنزيل المنكر منزلة غير المنكر فيلقى إليه الكلام بلا تأكيد، وتنزيل غير المنكر منزلة المنكر فيؤكد له الكلام وجوباً، وكذا تنزيل السائل المتردد منزلة غيره، فيلقى إليه الخبر بلا تأكيد أو مؤكداً وجوباً بأكثر من مؤكد وهذا التنزيل يكون لأغراض بلاغية يقصد إليها المتكلم وقد وقفت عليها هناك [1] .

ومنها أيضاً : وضع المضمر موضع المظهر، ووضع المظهر موضع المضمر، والالتفات وأسلوب الحكيم والقلب والتغليب والتعبير عن المستقبل بلفظ الماضى، وعن الماضى بلفظ المضارع . . . وقد اعتاد البلاغيون أن يتحدثوا عن تلك الظواهر الأسلوبية بعد انتهائهم من الحديث عن أحوال المسند إليه، ولكننى آثرت الحديث عنها هنا، لأنها ليست قاصرة على المسند إليه، بل تتعداه إلى المسند ومتعلقات الفعل، فهى تشمل كل أجزاء الجملة . . وإليك بيان ذلك .

وضع المضمر موضع المظهر :

الأصل فى ضمير الغائب ألا يذكر إلا إذا وجد فى الكلام ما يعود هذا الضمير إليه، وكان متقدماً لفظاً ورتبة، أو لفظاً فقط أو رتبة فقط، فلا يعود ضمير الغائب على متأخر لفظاً ورتبة، ولذا عد البلاغيون قول الشاعر :

جزى رُبه عنى عدىَّ بن حاتم ‏ ‏ ‏ ‏ جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

غير فصيح، إذ عاد الضمير فى قوله : «ربه» على المفعول به : «عدى» المتأخر لفظاً ورتبة، وذا ضعف تأليف يخل بفصاحة الكلام .

وعلى الرغم من وضوح هذا الأصل فإنك تجد بعض الأساليب وقد ذكر فيها ضمير الغائب ثم فسر بمتأخر عنه، فيكون ذلك وضعاً للضمير فى موضع الاسم الظاهر لغرض بلاغى، وهو الإيضاح بعد الإبهام أو التفصيل بعد الإجمال، حتى يتمكن المعنى فى ذهن السامع، ويستقر فى نفسه، ويثبت فى فؤاده . ، . فمن ذلك أسلوب نعم وبئس كقولك :

---

(١) ص ٣٧ من هذا الكتاب .

نعم رجلاً زيد وبئس عدواً الجهل، عند إعراب المخصوص بالمدح أو الذم، مبتدأ خبره محذوف أو خبراً لمبتدأ محذوف، فيكون فاعل نعم أو بئس ضميراً مستتراً تقديره : «هو» يعود إلى زيد أو إلى الجهل، وكان مقتضى الظاهر أن يؤتى به اسماً ظاهراً فيقال : نعم زيد رجلاً وبئس الجهل عدواً، إذ لم يتقدم ما يعود إليه الضمير - كما قلت -، ولكن عدل عن الظاهر إلى الضمير للسر البلاغى المشار إليه . ومثله قول زهير يمدح هرم بن سنان :

نعم امرأ هـرم لم تعـد نائبـة | إلا وكـان لمرتـاع بهـا وزراً

أما إذا أعرب المخصوص بالمدح أو الذم مبتدأ والجملة قبله خبراً فعندئذ يكون الضمير عائداً على متقدم فى الرتبة ولا يكون من خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر . . .

ومن وضع المضمر موضع المظهر : ضمير الشأن أو القصة كما فى قوله تعالى : ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾[1]، وقوله عز وجل : ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾[2]، وقوله جل وعلا : ﴿**وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ**﴾[3] فالضمير فى قوله : «فإنها . . . قل هو . . . إنه . .» يسمى ضمير الشأن أو القصة، ولم يتقدم له مرجع كما تري، وإنما فسر بالجملة بعده، فهو من وضع الضمير موضع الظاهر، وسره البلاغى هو تفخيم الشأن أو القصة وتثبيتها فى الأنفس ؛ لأن مجيء الضمير مبهما بدون عائد متقدم يجعل المخاطب ينشغل به ويبحث عما يفسره فيصغى إلى الكلام، وعندما يعثر على المفسر يقع فى النفس موقعاً حسناً فيقر بها ويثبت، لأن للبيان بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال أثراً حسناً فى النفس ووقعاً جميلاً . . . ويتضح لك هذا لو وضعت الاسم الظاهر موضع الضمير فى الآيات الكريمة، فقلت : «إن الأبصار لا تعمى . . . قل الله أحد . . . إن الكافرين لا يفلحون» .

فإنك تجد الفخامة قد ولت والروعة قد زالت، لأنه لم يتقدم عندئذ ما ينبه ويثير النفس إلى التفتيش والتنقيب عن مفسر لما أبهم، ولذا نجد ضمير الشأن أو القصة لا

---

(١) سورة الحج : ٤٦ .

(٢) سورة الإخلاص : ١ .

(٣) سورة المؤمنون : ١١٧ .

يستعمل إلا فى الأمور المهمة، والأخبار ذات البال، والمعانى الجليلة، على نحو ما رأيت فى الآيات الكريمة، وعلى نحو ما ترى فى قول أبى تمام :

على أنها الأيـام قد صرن كلُّهـا ... عجائبَ حتى ليس فيهـا عجائـب

وفى قول الآخر :

هى الدنيـــا تقـــول بمـلء فيهـا ... حــذار حذار مــن بطشى وفتكى

و ضع المظهر مو ضع المضمر :

أما وضع المظهر موضع المضمر فيكون لأغراض بلاغية كثيرة يقتضيها المقام ويقصد إليـهـا البـلاغى . . انظر إلى قـول أحـمـد بن يحـيى المعـروف بـابن الرَّاوَنْدى وكـان يرمى بالزندقة :

كم عاقـل عاقـل أعيت مذاهبـه ... وجاهـل جاهـل تلقـاه مرزوقـاً

هذا الذى ترك الأوهــام حائــرة ... وصيّر العالِــمَ النِّحْريــر زنديقــاً [1]

تجده قد وضع اسم الإشارة فى أول البيت الثانى موضع الضمير، فهو يشير به إلى الحكم السابق فى البيت الأول وهو كون العاقل محروماً والجاهل مرزوقاً، وهذا الحكم غير محسوس، فكان ينبغى أن يستعمل الضمير لتقدم مرجعه فيقول : «هو الذى ترك» ولكن الشاعر عدل عن الضمير إلى اسم الإشارة لغرض يقصد إليه وهو كمال العناية بالمسند إليه وتمييزه وإبرازه، تهيئة للإخبار عنه بذلك الخبر الغريب العجيب، وهو جعل الأوهام حائرة والعالم النحرير زنديقاً .

وقد يقصد البلاغى بوضع اسم الإشارة موضع الضمير التنبيه إلى غباوة المخاطب وبلادته وأنه لا يدرك إلا الأمور المحسوسة، كما ترى فى قول الفرزدق مخاطباً جريراً :

أولئـك آبـائى فجئنــى بمثلهــم ... إذا جمعتنـا يا جريــر المجامــع

(١) أعيت مذاهبه : أعجزته طرق معاشه أو أعيت عليه، متعدية ولازمة . . والأوهام العقول من تسمية المحل باسم الحال مجازاً مرسلاً . . والنحرير من نحر المسائل علماً أي أتقنها . . والزنديق الذي يبطن الكفر ويظهر الإسلام.

إذ كان ينبغي أن يقول : «هم آبائي» لتقدم الحديث عنهم في الأبيات السابقة، ولكنه آثر التعبير باسم الإشارة : «أولئك»، للتعريض بغباوة جرير والتنبية إلى بلادته وقلة فهمه، وكأنه يريد أن يبرز ويصور جريراً في صورة من لا يدرك إلا الأمور المحسوسة، ولا يخفى عليك ما وراء اسم الإشارة الموضوع للبعيد : «أولئك» من تعظيم لآباء الفرزدق وتنبيه لسمو مكانتهم وعلو منزلتهم . . . وقد يقصد البلاغي باستخدام اسم الإشارة مكان الضمير الدلالة على كمال ظهوره وتمام بيانه، حتى كأنه صار مرئياً ومدركاً بالحواس . . . كما في قول الشاعر :

تعاللت كي أشجى وما بك علة ... تريدين قتلي، قد ظفرت بذلك

فمقتضى الظاهر أن يقول : قد ظفرت به، ولكنه عدل عن الضمير إلى اسم الإشارة للدلالة على ظهور القتل وكمال وضوحه وأنه لا يخفى على أحد، لأنه صار مرئياً للجميع، ولعلك تحس أيضاً بما وراء التعبير بتلك الجملة : «قد ظفرت بذلك» من تمنعه وتأبيه على صويحباته، وكأنه لا رغبة له فيهن، فهو لا يهوى إلا تلك التي تعاللت، وهي وحدها التي ظفرت بأسره وتملكه . . .

واقرأ قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾[1]، وقوله عز وجل : ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ . وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[2]، فقد عبر باسم الإشارة : «تلك» و «ذلكم» في موضع الضمير للدلالة على كمال النعيم وتمام ظهوره، فقد بلغ الغاية في الظهور والبيان حتى صار مدركاً بالحواس . . . وكذا القول في الآية الثانية، فقد بلغ ظنهم الغاية في الظهور والبيان حتى صار كأنه مدرك بالحواس، مشار إليه . . ويقول المعلم بعد إيضاح مسألة لتلاميذه أو إظهار رأي : «وهذا واضح . . وتلك بينة جلية» . . . فيدل باسم الإشارة على تمام ظهور الرأي، وكمال بيان المسألة . . . وكذا يقول الخصم عند مجادلة خصمه ومحاولته إقامة الحجة عليه : «وهذه ظاهرة أو مسلمة» فكان

(١) سورة الرعد : ٣٥ .

(٢) سورة فصلت : ٢٢، ٢٣ .

مقتضى الظاهر أن يقول : وهى ظاهرة ، ولكنه عدل إلى خلاف الظاهر ادعاء لكمال الظهور وتمام البيان .

وقد يقصد بوضع الظاهر موضع المضمر زيادة التمكين والتقرير ، وقوة تثبيته فى الأنفس والسرائر ، انظر إلى قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ (١) تجد إيثار التعبير بالاسم الظاهر وهو لفظ الجلالة فى قوله «الله الصمد» وكان مقتضى الظاهر أن يعبر بالضمير فيقال : «وهو الصمد» لتقديم مرجعه ، ولكن النظم الكريم آثر التعبير بالاسم الظاهر «الله» لزيادة تمكينه فى الأنفس ، وتقريرة وتثبيته فى الأذهان ، إذ التعبير بالاسم الظاهر أقوى وأبلغ فى إبراز المعنى واستقراره فى النفس من التعبير بالضمير . . وخذ قوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٢) تجد أن وضع لفظ الجلالة موضع الضمير فيه زيادة تثبيت وتقرير ، لأنه يوحى بالجلال والعظمة ويعمل على تربية مهابة الحق فى الأنفس والسرائر ، ولو عبر بالضمير فقيل " «إن ذلك عليه يسير . . ثم هو ينشئ . . إنه على كل شئ قدير . . » لما كان فى التعبير إلى ذلك المعنى سبيل . . وتأمل قوله تعالى : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾(٣) تجد أن إعادة الاسم الظاهر «وبالحق» قد أفاد من التوكيد وإبراز المعنى وتثبيته فى النفس مالم يفده الضمير لو قيل : وبه نزل . . .

واقرأ قول الشاعر :

إن تسألوا الحق نعط الحق سائله — والدرع محقبة والسيف مقروب

وقول الآخر :

نفس عصام سودت عصاماً — وعلمته الكر والإقداما

وتأمل فرق ما بين : «إن تسألوا الحق نعط الحق» وقولك : إن تسألوا الحق نعطه ، وبين : «نفس عصام سودت عصاماً» ، وقولك : نفس عصام سودته ، فستجد الفرق دقيقاً

(١) سورة الإخلاص : ١ ، ٢ .

(٢) سورة العنكبوت : ١٩ ، ٢٠ .

(٣) الإسراء : ١٠٥ .

وسوف يتبين لك أن التعبير بالاسم الظاهر فيه من الإيضاح وإبراز المعنى، وتقريره وتثبيته، ما ليس فى التعبير بالضمير . وقد يقصد بوضع الظاهر موضع الضمير تقوية داعى المأمور إلى الامتثال وتحقيق الأمر، كما فى قوله تعالى : ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾(1)، فقد أوثر التعبير بلفظ الجلالة فى موضع الضمير حيث لم يقل : فتوكل على إنى أحب، لما فى ذلك من تقوية الداعى إلى الامتثال وتحقيق التوكل وإيجاده، فهو توكل على الله الذى يحب المتوكلين . . . وقد يقصد به ادخال الروع فى نفس السامع وتربية المهابة حتى يقبل على الامتثال والخضوع كقول الخليفة : أمير المؤمنين يأمر بكذا، فمقتضى الظاهر أن يقول : أنا آمر، ولكنه عدل عنه إلى الاسم الظاهر لما فيه من تربية المهابة وإدخال الروع فى الأنفس فتقبل إلى الامتثال والخضوع . . . وقد يقصد به الاستعطاف كما فى قول الشاعر :

إلهى عبدك العاصى أتاك ... مقراً بالذنوب وقد دعاك

فإن تغفر فأنت لذاك أهل ... وإن تطرد فمن يرحم سواك

فلم يقل : أنا العاصى أتيتك، وقال : «عبدك» فوضع الظاهر فى موضع الضمير . لما فى الظاهر من الإشعار بالعبودية المنسوبة لرب العزة، وما يكون وراء ذلك من ترقب الشفقة والرحمة، واستحقاق العطف . . . وقد يقصد به إبراز الوصف الذى يفيده الاسم الظاهر وتقريره، لإفادة مقصد يقصد إليه البلاغى كما ترى فى قوله تعالى : ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾(2)، فقد أعيد ذكر «الذين ظلموا» ولم يقل : فأنزلنا عليهم، لما فى الاسم الظاهر من إبراز معنى الظلم وتقريره، والإشارة بذلك إلى أنهم قد استحقوا العذاب النازل عليهم بسبب هذا الظلم . . . ونرى هذا الأسلوب يرد كثيراً فى النظم الكريم ليحقق مقاصد وأهدافاً دقيقة .

انظر إلى قوله تعالى : ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ . بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ . كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ . وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ (3)، وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ

(1) سورة آل عمران : ١٥٩ .

(2) سورة البقرة : ٥٩ .

(3) سورة ص : ١ - ٤ .

﴿يُرِيـدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِيـنَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (١) تجد أن فى التعبير بالكافرين فى قوله : «وقال الكافرون» وبالذين كفروا فى قوله : «وقال الذين كفروا للحق . . .» إبرازاً لمعنى الكفر وتسجيلاً عليهم وإبرازهم جاحدين كافرين متعنتين، وتصوير مدى ضلالهم وتعاميهم عن الحق الواضح، فقد كفروا به وقالوا وقد وضح لهم وبان : «إن هذا إلا سحر مبين»، وصفوا الحق الواضح بالسحر المبين، فلا عجب إذا ما نزل بهم العذاب وأهلكوا كما أهلك الكفرة من قبلهم . . . وتأمل قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنـكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِيـنَ . ثُمَّ أَنـزَلَ اللَّـهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾(٢) تجد أن ذكر المؤمنين فى موضع الضمير حيث لم يقل : على رسوله وعليكم، قد أبرز هذه الصفة وأبرز اتصافهم بها واستحقاقهم لها ووراء ذلك من التعظيم والتكريم مالا يخفى عليك ثم تأمل مدى التحقير والإهانة بإعادة ذكر الكافرين فى قوله : «وذلك جزاء الكافرين» وأن لم يقل : وذلك جزاؤهم، لما فى الاسم الظاهر من وسمهم بتلك السمة وإبرازهم بهذا الوصف .

وقد يوضع الظاهر موضع الضمير قصداً لإجراء أوصاف عليه كما فى قوله تعالى : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ (٣) فوضع الاسم الظاهر «ورسوله» موضع الضمير حتى يمكن وصفه بما بعده من صفات . وفيه أيضاً إبراز لمعنى الرسالة وتثبيت لها فى النفوس وإيضاح أن الإيمان بمحمد - عليه الصلاة والسلام - إنما هو من أجلها فنحن نؤمن به رسولاً نبياً، ولا نؤمن بذاته مجردة من تلك المهمة، أى : نؤمن بكونه رسولاً نبياً أمياً يؤمن بالله وكلماته . . .

وقد يوضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على أن الصفة جارية على غير ما هى له كما فى قوله تعالى : ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ (٤) ، فجملة

(١) سورة سبأ : ٤٣ .
(٢) سورة التوبة : ٢٥ ، ٢٦ .
(٣) سورة الأعراف : ١٥٨ .
(٤) الكهف : ٧٧ .

«استطعما أهلها» صفة للقرية وقد وضع الاسم الظاهر فيها موضع الضمير فلم يقل «استطعماها» للدلالة على أن هذه الصفة جارية على غير ما هى له، فالمستطعم هم الأهل وليس القرية .

❐❐❐

أسلوب الالتفات :

الالتفات مأخوذ من قولهم : التفت الإنسان إذا تحول بعنقه من اليمين إلى الشمال أو من الشمال إلى اليمين، وأول من أطلق هذه التسمية هو الأصمعى، فقد روى أنه سأل بعض من كان يتحدث إليهم فقال له : أتعرف التفاتات جرير ؟ فأجاب لا . فما هى ؟ قال :

أتنسى إذ تودعنا سليمى بعود بشامة سقى البشام

ألا تراه مقبلاً على شعره ثم التفت إلى البشام فدعا له ؟ . .

وقوله :

طرب الحمام بذى الأراك فشاقنى لا زلت فى غلل وأيك ناضر

فالتفت إلى الحمام فدعا له [1].

فهو يطلق الالتفات على نوع من التعبير وهو ذلك الكلام الذى يظن المخاطب أن محدثه قد فرغ منه وانتهى من معناه وسيترك هذا المعنى ويتجاوزه إلى معنى آخر، فإذا به يلتفت إلى المعنى الذى فرغ منه فيذكره بغير ما تقدم ذكره به . . ومن قبل أشار أبو عبيدة إلى نوع آخر من الالتفات وإن لم يسمه بهذه التسمية حيث يقول : « ومن مجاز ما جاءت به مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب قول الله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾[2] : أى بكم [3].

(١) الصناعتين ٣١١ . . والبشام : شجر طيب يستاك به . . وذو الأراك : مكان ينبت فيه شجر الأراك . . . والأيك : الشجر الملتف . والغلل : المكان الخصب الذي يجود بالغلة .

(٢) سورة يونس : ٢٢ .

(٣) مجاز القرآن : ١١ .

ثم جاء عبد الله بن المعتز فذكر فى كتابه البديع أن الالتفات يرد على نوعين : نوع ينصرف فيه المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك، وهذا هو ما يصدق عليه الالتفات فى الآية التى ذكرها أبو عبيدة. ونوع ينصرف فيه المتكلم عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر، وهذا ما ذكره الأصمعي[1] .

وقد أهمل البلاغيون النوع الثانى فلم يتحدثوا عنه، وفصلوا القول فى النوع الأول، واشتهر فى تحديد مفهومه رأيان: رأى للسكاكى ورأى لجمهور البلاغيين. أما الجمهور فيرون أنه التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة وهى: التكلم أو الخطاب أو الغيبة، بعد التعبير عنه بطريق آخر منها. . وأما السكاكى فيرى أنه التعبير بطريق من هذه الطرق عما عبر عنه بغيره، أو كان مقتضى الظاهر أن يعبر عنه بغيره فهو يلتقى مع الجمهور فى الجزء الأول من التعريف ويخالفهم فى الجزء الثاني، إذ يرى فى نحو قول ربيعة بن مقروم:

بانت سعاد فأمسى القلب معموداً وأخلفتك ابنة الحر المواعيدا[2]

التفاتاً، حيث كان مقتضى الظاهر أن يقول: وأخلفتني، فالتفت إلى الخطاب وقال: وأخلفتك . . ومثله قوله أيضاً:

تذكرتَ والذكرى تهيجك زينبا وأصبح باقى وصلها قد تنضبا

وحل بِفَلْجٍ فالأَبَاتِرِ أَهْلُنَا وشطَّت فحلَّت غَمْرَةَ فمثقبا[3]

إذ كان مقتضى الظاهر أن يعبر بطريق التكلم فيقول: تذكرت ولكنه خالف هذا الظاهر فالتفت إلى الخطاب كما ترى، ولا يخفى عليك ما فى البيت الأول من وضع المظهر موضع المضمر فى قوله: «ابنة الحر» إبرازاً لصفة الحرية وتقريراً لها، وما يضفيه ذلك على فتاته «سعاد» من أصالة وتشريف. . كما لا يخفى عليك الالتفات فى البيت الثالث حيث التفت من الخطاب فى قوله: تذكرت إلى التكلم فى قوله: أهلنا، وهذا التفات على رأى السكاكى والجمهور معاً، أما الالتفاتان الأولان فعلى رأى السكاكى فقط، ويمكن أن يحملا على التجريد، وأن ربيعة جرد من نفسه شخصاً آخر وأخذ يخاطبه قائلاً:

(1) البديع : ١٠٧ .
(2) بانت : بعدت . . ومعموداً: حزيناً . . وابنة الحر هي سعاد.
(3) تنضب : جف ، ويروى تقضب بمعنى : انقطع . . وفلج والأباتر وغمرة ومثقب أماكن. . وشطت: بعدت .

وأخلفتك . . تذكرت، وتلك عادة مشهورة بين الشعراء . . وعند تأمل تعريفى السكاكى والجمهور للالتفات يتضح لك أن تعريف الجمهور أخص، فكل التفات عندهم التفات عند السكاكي، وليس كل التفات عند السكاكى التفاتاً عندهم، على نحو ما رأيت فى البيتين المذكورين، فقد جعلهما السكاكى من الالتفات بناءً على مذهبه فيه، وحملهما الجمهور على التجريد - كما بينا- .

صور الالتفات وما يكمن وراءها من أسرار بلاغية :

مما تقدم يتبين لك أن للالتفات - على مذهب الجمهور - ست صور ووراء كل صورة من هذه الصور، بل وراء كل شاهد من شواهد الالتفات مغزى بلاغى جليل، وهذا يقتضى منا أن نقف مع كل صورة من صوره وقفة متأنية لنبرز ما وراء شواهدها من دقائق وأسرار . .

الصورة الأولى . الالتفات من التكلم إلى الخطاب :

كما فى قوله تعالى : ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ . وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1]، فقد التفت من التكلم فى قوله : «ومالى لا أعبد الذى فطرنى» إلى الخطاب فى قوله : «وإليه ترجعون» . وفضلاً عما يفيده أسلوب الالتفات من تحريك وإثارة وإيقاظ لمشاعر السامع وأحاسيسه وتنبيه لذهنه وفكره، لما فيه من التنويع وعدم المضى على وتيره واحدة ؛ - فضلاً عن ذلك - فإنك تشعر بما وراءه فى الآية الكريمة من ترغيب للقوم واستمالة لهم نحو الهدى وقبول الحق واتباع المرسلين، حيث أجرى التعجب من عدم العبادة على نفسه : «مالى لا أعبد» حتى لا ينفروا من قبول النصح ويتضح لك هذا الغرض أكثر عندما ترجع إلى سياق الآيات الكريمة : «ياقوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون»، فقد أضافهم إلى نفسه ثم بين لهم أن المرسلين لا يسألونهم أجراً على تبليغ الرسالة وهذا أدعى لاتباعهم وقبول ما جاءوا به، ثم هم فوق ذلك مهتدون، فينبغى

(١) سورة يس : ٢٠ ، ٢٢ .

الاقتداء بهم ولما أراد أن يتعجب من تخلى القوم عن هؤلاء الرسل وعدم الاقتداء بهم فى عبادة الله وحده، أجرى هذا التعجب على نفسه ملتفتاً عنهم : «مالى لا أعبد»، حتى يكون فى ذلك مزيد من الاستمالة والترغيب، ثم التفت إليهم محذرا من استمرارهم فى الباطل، وتماديهم فى الضلال، ومبينا لهم أن مرجعهم إلى الله وحده الذى فطرهم «وإليه ترجعون»، وبهذا يتبين لك ما وراء الالتفات من ترغيب واستمالة وإمحاض المناصحة ثم التعقيب بالتحذير الشديد . . وانظر إلى قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١)، تجد التفاتاً من التكلم فى قوله «إنى امرت أن أكون أول من أسلم» إلى الخطاب فى قوله : «ولا تكون من المشركين»، ووراء هذا الالتفات ما وراءه من وعيد وتهديد، وتحذير من الوقوع فى الشرك، ومما يبرز هذا، الانتقال من الخبر فيما سبق إلى النهى فيما لحق فقد أمر الله - سبحانه وتعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يخبر وأن يقول إنه أمر أن يكون أول من أسلم، ثم نهاه رب العزة : «ولا تكونن من المشركين»، إنه وعيد شديد لمن يستمر على الشرك، ولا عجب فهو أكبر الكبائر، والله عز وجل لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ (٢)، وتجد كثيراً من الأحاديث الشريفة التى حذرت من الشرك، وبينت أنواعه المختلفة، وطرقه العديدة، التى ينبغى على المسلم أن يتبينها، وأن يبتعد عنها حتى يكون بمنأى عن كل ما يؤدى إلى الشرك بربه .

الصورة الثانية : الانتقال من التكلم إلى الغيبة :

كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ (٣) حيث التفت من التكلم فى قوله : «إنا أعطيناك» إلى الغيبة فى قوله : «فصل لربك» إذ الأصل : فصل لنا، وترجع بلاغة الالتفات فى الآية الكريمة إلى ما فى التصريح بلفظ الرب من الحث على فعل المأمور به لأن من يربيك ويرعاك فهو جدير بعبادتك، مستحق لصلاتك ولذا كان الالتفات

(١) سورة الأنعام : ١٤ .
(٢) سورة النساء : ٤٨ .
(٣) سورة الكوثر : ١ ، ٢ .

مقوياً لداعي الصلاة، ومنبهاً وحاثاً إلى أدائها والحرص عليها . . . ومن ذلك قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١) فقد انتقل من التكلم في قوله : «إني رسول الله» إلى الغيبة في قوله : «فآمنوا بالله ورسوله» وكان مقتضى الظاهر أن يقال : فآمنوا بالله وبي، وترجع بلاغة الالتفات في الآية إلى أن الاسم الظاهر قد مكن من إجراء تلك الأوصاف : «النبي الأمي الذي . . » على الرسول - عليه الصلاة والسلام - وفيه أيضاً إشارة وتنبيه إلى أن الإيمان والتصديق ليس بذات محمد عليه الصلاة والسلام وإنما بتلك الصفات أي : بكونه رسولاً نبياً أمياً يؤمن بالله وكلماته، فهي بمثابة البرهان على صدق رسالته - صلى الله عليه وسلم - ومثله قوله تعالى : ﴿ حم . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ . فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ . أَمْرًا مِنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِن رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢) فقد التفت من التكلم في قوله : «إنا أنزلناه . . . إنا كنا . . . من عندنا . . .»، إلى الغيبة في قوله : «رحمة من ربك» وتكمن بلاغة الالتفات في الآية الكريمة في التصريح بلفظ الرب الذي يشير إلى معنى التربية والرفق والعناية، وملاءمة هذا المعنى الرحمة المذكورة، وفيه أيضاً تهيئة للعبارة لخطاب المنزل عليه وهو الرسول - عليه الصلاة والسلام - .

وخذ قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾(٣) فالأصل : لا تقنطوا من رحمتي، فالتفت إلى الغائب إبرازاً للفظ الجلالة الملائم لذكر الرحمة والمغفرة .

الصورة الثالثة : الالتفات من الخطاب إلى التكلم :

كما في قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ (٤) وقوله جل وعلا : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا

(١) سورة الأعراف : ١٥٨ .
(٢) سورة الدخان : ١ ، ٦ .
(٣) سورة الزمر : ٥٣ .
(٤) سورة هود : ٩٠ .

فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (١) فقد التفت فى الآيتين من الخطاب فى قوله : «استغفروا ربكم ثم توبوا . . » إلى التكلم فى قوله : «إن ربى» وهذا الالتفات ينبئ بعظمة ذى الجلال ورحمته وإجابته من دعاه، واختصاصه - سبحانه وتعالى - بتلك الصفات ويدفع توهم انصرافها إلى آلهتهم فيما لو قيل «إن ربكم رحيم ودود . . إن ربكم قريب مجيب» .

ومن ذلك قول علقمة بن عبدة :

طحا بك قلب فى الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

يكلفنى ليلى وقد شط وليها وعادت عواد بيننا وخطوب (٢)

فقد التفت من الخطاب فى قوله : طحا بك قلب، إلى التكلم فى قوله يكلفنى ليلى، وهذا الالتفات ينبئ بأنه معنى بليلاه إلى أبعد حد ولذا أجرى الكلام المتعلق بها على نفسه إجراء مباشراً، فإنه أقوى مما لو قيل : يكلفك ليلى بصيغة الخطاب .

وفى «طحا بك» التفات عند السكاكى . . ويروى البيت الثانى برواية أخرى وهى : «تكلفنى» بالتاء، فإن كان الفاعل ليلى فلا التفات، وإن كان ضميراً مستتراً تقديره «أنت» وليلى مفعوله ففيه التفات من الغائب «قلب» إلى المخاطب «أنت» . . .

الصورة الرابعة : الالتفات من الخطاب إلى الغيبة :

كما فى قوله تعالى : ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ . فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة هود: ٦١ .

(٢) طحا : ذهب وبعد . . وتصغير «بعيد» يفيد أن هذا كان قريباً من عنفوان الشباب . . وطروب بمعنى له طرب ونشاط في طلبهن . . وشط وليها : بعد قربها ، وعادت عواد : رجعت عوائق كانت تحول بيننا إلى ما كانت عليه، ويجوز أن تكون «عادت» من المعاداة . . وخطوب : أحداث .

(٣) سورة فصلت: ٢٣ ، ٢٤ .

فقد التفت من الخطاب فى قوله : «ذلكم ظنكم . . فأصبحتم» إلى الغيبة فى قوله : «فإن يصبروا» وهذا الالتفات ينبىء بالطرد من رحمة الله . وذلك بإبعادهم عن ساحة الحضور والمخاطبة، وصيرورتهم إلى مكان سحيق حيث النار والعذاب . وإن يستعتبوا ندماً فلا عتاب . . . ، ومثله قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾(١) التفت من الخطاب فى قوله : «كنتم فى الفلك» إلى الغيبة فى قوله : «وجرين بهم»، وبلاغة هذا الالتفات تكمن فى أنهم لما كانوا فى مقام الحضور والمشاهدة خوطبوا فلما جرت بهم السفن وابتعدوا لأم هذا أن يتحدث عنهم بطريق الغيبة . . وشئ آخر وراء الالتفات وهو أنه يشعر بأن هؤلاء الذين إذا أصابهم ضر دعوا ربهم، فإذا نجاهم بغوا فى الأرض بغير الحق، يستحقون الإبعاد وعدم الالتفات إليهم بالمخاطبة، وأن تروى قصتهم وتحكى تشهيراً بهم واعتباراً لمن يعتبر .

وانظر إلى قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ . وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ (٢) تجد إقبال الله عليهم بالخطاب لكونهم أمة واحدة، فلما تقطع الأمر بينهم وتشتت كيانهم واختلفوا غابوا عن مشهد الحق، وغاب عنهم المنهج القويم، والدستور الحكيم، فانصرف الله عز وجل عنهم وهذا سر الالتفات من الخطاب إلى الغيبة فى الآية الكريمة . . ولعلك تشعر بنبرة الوعيد والتهديد لهؤلاء الذين تقطع أمرهم بينهم فى قوله جل وعلا : «كل إلينا راجعون». . . وكذا القول فى قوله تعالى : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٣) . فقد التفت عن المشركين التفات الغاضب المتوعد. وخذ قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾(٤) تجد أن الالتفات من الخطاب فى قوله : «جاءوك» إلى الغيبة فى قوله «واستغفر لهم الرسول» يفيد تفخيم شأن الرسول عليه الصلاة والسلام وتعظيم استغفاره والتنبيه إلى أن شفاعة واستغفار من اسمه «الرسول» من الله بمكان .

(١) سورة يونس : ٢٢ .
(٢) سورة الأنبياء : ٩٢ ، ٩٣ .
(٣) سورة النحل : ١ .
(٤) سورة النساء : ٦٤ .

الصورة الخامسة: الانتقال من الغيبة إلى التكلم:

كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[1]، حيث التفت من الغيبة في قوله: «والله الذي أرسل الرياح» إلى التكلم في قوله: «فسقناه . . . فأحيينا به» .

وينبيء هذا الالتفات بأهمية السوق والإحياء، وبتجلي قدرة الله عز وجل في سوق السحاب وإحيائه تلك الأرض الميتة، فهذا ضرب من قسمة الأرزاق بين الناس، ولذا ناسب أن يلتفت إليهما رب العزة سبحانه وتعالى، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[2] . فقد التفت من الغيبة في قوله: «استوى . . فقال . . فقضاهن . . وأوحى» ألى التكلم في قوله: «وزينا» وهذا الالتفات يشير إلى أن السماء الدنيا من أظهر وأوضح الآيات التي تدل على قدرة الخالق جل وعلا، ولذا حث القرآن في مواضع كثيرة على النظر إليها وتأمل ما بها، فكأن الالتفات هنا لفت للمؤمن إلى موضع العبرة والعظة .

وخذ قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[3] تجد التفاتاً من الغيبة في قوله: «الذى أسرى بعبده ليلاً» إلى التكلم في قوله: «باركنا حوله لنريه من آياتنا» ثم إلى الغيبة ثانية في قوله: «إنه هو السميع البصير» .

وينبئ هذا الالتفات بما للمسجد الأقصى من مكانة، فقد بارك الله حوله، ولم يقل «بارك» بناء على الظاهر فيمضي الأسلوب على طريقة واحدة، بل قيل: «باركنا» تنبيهاً للمؤمن إلى تلك المكانة السامية، كما يبرز الالتفات أيضاً الغاية من الإسراء وهي إراءة النبي من الآيات الكبرى، فقد التفت إليها: «لنريه من آياتنا» إشارة إلى أن ذلك هو المراد وهو الغاية من الإسراء. ثم التفت بعد ذلك من التكلم في قوله: «باركنا . . . لنريه» إلى الغيبة في قوله «إنه هو السميع البصير» .

---

(1) سورة فاطر: ٩ .

(2) سورة فصلت: ١١، ١٢ .

(3) سورة الإسراء: ١ .

وتأمل قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ . هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ....﴾(1) تجد عدة التفاتات، فقد التفت من الغيبة فى قوله: «خلق . . وألقى . . وبث» إلى التكلم فى قوله: «وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا . .» وهذا الالتفات ينبيء بأهمية الإنزال والإنبات لهم، فهم إليهما متطلعون وبهما متعلقون، إذ لا حياة لهم بدون الماء والنبات . . ثم رجع إلى الغيبة فى قوله: «هذا خلق الله» وكان الأصل أن يقال: خلقنا، وتشعر بما وراء هذا الالتفات من التصريح باسم الله الخالق الأعظم وماله من أثر كبير فى تربية المهابة واستمتاع المؤمن بذكره والنطق به . . ثم التفت ثانية إلى التكلم فى قوله: «فأروني» ولعلك تشعر بنبرة الوعيد والتحذير وراء هذا الالتفات . . ثم التفت إلى الغيبة فى قوله: «من دونه» لينبئ بعظمة الخلق وأنه لا يتأتى لبشر . وفى الآيات التفات آخر من الخطاب فى قوله: «ترونها . . بكم . . فأروني» إلى الغيبة فى قوله: «بل الظالمون فى ضلال مبين» وكان مقتضى الظاهر أن يقال: بل أنتم، وترجع بلاغة هذا الالتفات إلى أمرين:

أولهما: أن الخطاب فى الآيات عام، وليس كل المخاطبين فى ضلال مبين، بل الظالمون منهم.

وثانيهما: أن فى الالتفات تسجيلاً على هؤلاء، ووسمهم بتلك الصفة، صفة الظلم التى صيرتهم فى ضلال مبين، وعما قليل ستجعلهم فى عذاب مهين. .

الصورة السادسة: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب:

كما فى قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ . إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(2) . فقد التفت من الغيبة فى قوله: «مالك» إلى الخطاب فى قوله: «إياك نعبد . .» وترجع بلاغة هذا الالتفات إلى ما تحدثه الآيات فى نفس المؤمن من زيادة الخشوع والتقرب إلى ربه جل وعلا، فقد بدأت بذكر الحمد وربوبيته تعالى للعالمين ثم

(1) سورة لقمان: ١٠ - ١٢ .

(2) سورة الفاتحة: ١ - ٥ .

الرحمة الغامرة فملكه ليوم الدين وعندما تقع تلك المعانى فى نفس المؤمن يزداد قرباً إليه تعالى فيخاطبه معلناً اختصاصه بالعبادة ومد العون «إياك نعبد وإياك نستعين» وتأمل آخر السورة الكريمة: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾[1] حيث نسب الإنعام إليه تعالى تعظيماً لشأنه ولم ينسب الغضب إليه بل بنيت العبارة للمفعول تأدباً وتلطفاً.. وفى ذلك ما فيه من تعظيم للمنعم عليهم وتحقير وتنفير من المغضوب عليهم..

ومن هذه الصورة قوله تعالى: ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا . إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾[2] حيث التفت من الغيبة فى قوله: «سقاهم ربهم» إلى الخطاب فى قوله: «لكم.. سعيكم» تكريماً وتعظيماً للمتحدث عنهم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾[3] التفت من الغيبة فى قوله: «قالوا» إلى الخطاب فى قوله: «جئتم» تنبيهاً إلى عظم هذا الافتراء وتوبيخاً لهم وردعاً حتى لكأنهم حاضرون ومواجهون بافترائهم تأنيباً لهم وتسفيهاً لعقولهم.

ومنه شعراً قول عبد الله بن عنمة الضبي:

ما إن ترى السيد زيداً فى نفوسهم ... كما يراه بنو كرز ومرهوب

إن تسألوا الحق نعط الحق سائله ... والدرع محقبة والسيف مقروب

وإن أبيتم فإنا معشر أنف ... لا نطعم الخسف إن السم مشروب[4]

فقد التفت من الغيبة فى قوله: «زيدا» إلى الخطاب فى قوله: «تسألوا» وذلك مواجهة لهم بالحديث، وكأنهم مشاهدون أمام الشاعر، يوجه إليهم حديثه ويطلب منهم إبداء رأيهم والإفصاح عن نواياهم.. ثم التفت من الخطاب فى: «تسألوا» إلى الغيبة فى قوله: «سائله»، وكان مقتضى الظاهر أن يقول: «نعطه لكم» ولكنه عدل عن المضمر إلى المظهر،

---

(١) سورة الفاتحة: ٧.

(٢) سورة الإنسان: ٢١، ٢٢.

(٣) سورة مريم: ٨٨، ٨٩.

(٤) السيد وزيد وكرز ومرهوب: أحياء من ضبة قوم الشاعر، يريد أن السيد لا يوجبون لزيد من الحرمة والنصرة ما يوجبه كرز ومرهوب والضمير في قوله «تسألوا»: لزيد.. والمحقبة: المشدودة في الحقيبة.. والمقروب: الموضوع في قرابه. وأنف: أعزة.. والخسف: الذل.. والمراد بقوله: «والسم مشروب» أنهم أقوياء أشداء قد اعتادوا الشدائد والأهوال.

فأعاد ذكر الحق، ثم التفت فقال: «سائله»؛ لأنه يريدهم سائلين الحق، خاضعين له، وهذا هو سر الالتفات، إنه أبرز السؤال وقرره، كما قرر استعمال الظاهر فى موضع الضمير «الحق» وأبرزه، ولو مضى الأسلوب على ما يقتضيه الظاهر، فقيل: إن تسألوا الحق نعطه لكم، لما تحققت تلك الإفادة التى قصد إليها الشاعر . . . ثم التفت من الغيبة فى قوله: «سائله» إلى الخطاب فى قوله: «وإن أبيتم» توعدا وتهديدا، فهو التفات الغاضب المتوعد، ولعلك تشعر بما وراء استخدام «إن» فى قوله: «وإن أبيتم» من الدلالة على أن الإباء مستبعد وقوعه منهم.

وفى الأبيات التفات آخر من الغيبة فى قوله: «ترى السيد» إلى التكلم فى قوله: «نعط» ولا يخفى ما وراء هذا الالتفات من الفخر والعزة والأنفة .

وأما قول امرئ القيس:

تطــــاول ليلك بالأثمــــد	ونـــام الخلــى ولـــم ترقـــد
وبـــات وباتـــت لـــه ليلـــة	كليلـــة ذى العائـــر الأرمـــد
وذلك مـــن نبـــأ جـــاءنـى	وخبرتـــه عـــن أبى الأســـود[1]

ففيه التفات من الخطاب فى قوله: «ليلك . . ولم ترقد» إلى الغيبة فى قوله: «وبات وباتت له»، ثم إلى التكلم فى قوله: «جاءنى وخبرته» . أما البيت الأول فلا التفات فيه إلا على مذهب السكاكي، والجمهور - كما رأيت - يرون أنه من قبيل التجريد.

ويرى بعض البلاغيين أن فى البيت الثالث التفاتين هما من الخطاب فى قوله «ليلك» إلى التكلم فى قوله «جاءني» ومن الغيبة فى قوله: «وبات» إلى التكلم أيضاً فى قوله: «جاءني» . . وهذا ليس بشيء لأنه بالانتقال من الخطاب فى البيت الأول إلى الغيبة فى البيت الثانى لم يعد الخطاب موجوداً، فلم يبق إلا الالتفات من الغيبة فى الثانى إلى التكلم فى الثالث.

---

(١) الأبيات قيل إنها لامرئ القيس حندج بن حجر الجاهلي وقيل: لامرئ القيس بن عابس الصحابي في رثاء ابن عمه أبي الأسود وقيل لعمرو بن معد يكرب . والأثمد: اسم موضع . . والعائر: قذى العين . . والأرمد: المصاب بالرمد وأبو الأسود على القول الأول كنية أبيه حجر ملك بني أسد والخبر الذى جاءه هو خبر قتله.

ويرى آخرون أن الالتفاتين في الثالث هما من الغيبة في قوله: «وبات» إلى الخطاب في قوله «وذلك» ثم من الخطاب في «وذلك» إلى التكلم في قوله: «جاءني» . . ولا يخفى ما في هذا من تكلف الخطاب في قوله: «وذلك» . فالرأى عندى أن ما فى الأبيات التفات سكاكى فى قوله: «ليلك» والتفاتان جمهوريان من الخطاب فى: «ليلك. . ولم ترقد» إلى الغيبة فى: «وبات وباتت له» ثم إلى التكلم فى: «جاءنى وخبرته».

هذا وإذا كان لكل أسلوب من أساليب الالتفات فائدة خاصة وغرضاً محدداً يعرف من خلال النظر فى السياق ومعرفة قرائن الأحوال - كما رأيت- فإن هنالك فائدة عامة تراها فى كل التفات، وهى أن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن وأبلغ فى تجديد نشاط السامع، وأكثر إيقاظاً لمشاعره وتنبيهاً لأحاسيسه، فيقبل إلى الكلام ويصغى إليه، وعندئذ يقع فى نفسه موقعاً حسناً، ويحقق فوائده وأغراضه المرجوة .

أسلوب الحكيم:

ومن صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر أسلوب الحكيم، وقد عرفوه بقولهم: «تلقى المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد، أو تلقى السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيهاً على أنه الأولى بحاله أو المهم له. .»[1] فمن الأول قول ابن القَبَعْثَرى الشيبانى وكان ممن خرجوا على الحجاج بن يوسف الثقفي، فقال له الحجاج متوعداً بالقيد: «لأحملنك على الأدهم» فقال ابن القبعثرى حاملاً كلامه على غير مراده: «مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب».

فقد أبرز وعيده فى معرض الوعد، لأن الحجاج أراد بالأدهم: القيد، وابن القبعثرى أراد به: الفرس الأدهم وهو الذى يغلب سواده بياضه، ثم عطف عليه الأشهب وهو الذى غلب بياضه على سواده، وكأنه يريه بألطف وجه أن من كان على صفته فى السلطان وبسطة اليد فجدير به أن يكرم لا أن يعذب، وأن يعد فيعطى لا أن يتوعد ويهدد، ولذا لما قال له الحجاج بعد ذلك: «إنه الحديد» أجابه: لأن يكون حديداً خير من أن يكون بليداً، صرف كلامه أيضاً إلى غير مراده؛ لأن الحجاج أراد أنه قيد حديد، فصرفه ابن القبعثرى إلى الفرس قائلاً: لأن يكون حديداً خير من أن يكون بليداً، أي: لأن يكون الفرس ذا

(١) الإيضاح ١ / ١٦٠ .

حدة وقوة ونشاط خير من أن يكون بليداً فاتراً وهو بهذا ينبهه إلى أن ما ينبغي أن يفعله يجب أن يكون من جنس التكريم والإنعام فهذا هو الأولى بمن في مثل مقامه، واللائق بمن في مكانته وعلو منزلته واقرأ قول الشاعر:

أتت تشتكى عندى مزاولة القرى وقد رأت الضيفان ينحون منزلي

فقلت كأني ما سمعت كلامها هم الضيف جدى فى قراهم وعجلي

فقد جاءته تشتكى مزاولة القرى، وذلك لكثرة ضيوفه، فهى لا تكف عن العمل فى إعداد الطعام لهم، إذ كلما ذهب ضيف أقبل آخر، وبدل أن يجيبها فيخفف عنها مزاولة القرى، ويكف أو يقلل من ضيافته، يطلب منها الجد ومضاعفة الجهد: «هم الضيف جدى فى قراهم وعجلي» فهذا هو المهم عنده واللائق به، لا أن يحقق ما أرادت ويمتنع عن إكرام الضيفان.. تراه قد حمل كلامها على غير مراده ووجهه إلى ما ينبغى أن يكون، وكأنه يخطئها فيما قالت، ولذا سماه عبد القاهر: أسلوب المغالطة، وسماه غيره من البلاغيين. أسلوب الحكيم، لأنها مغالطة حكيمة لطيفة، حيث لم تقم على المواجهة الصريحة المكشوفة، بل قامت على الإخفاء واللطف والطرافة، مراعاة للأدب والذوق.

انظر إلى قوله:

وقالوا: قد صفت منا قلوب نعم، صدقوا ولكن عن ودادي

وتأمل: كيف يخطئهم ويكذبهم وهو يقول: صدقوا.. إنها مغالطة حكيمة لطيفة..

ومن الثاني: أى تلقى السائل بغير ما يتطلبه سؤاله، بأن ينزل هذا السؤال منزلة غيره تنبيهاً على أنه الأولى بحاله والمهم له، قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾[1] فقد سألوه عليه الصلاة والسلام عن الهلال فقالوا: ما باله يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يتزايد قليلاً حتى يمتلئ ويستوى ثم لا يزال ينقص حتى يعود مثل ما بدأ؟ أى أنهم سألوا عن السبب وعن العلة فى تغيير منازل القمر، فأجيبوا ببيان الحكمة والفائدة من ذلك التغيير: «قل هى مواقيت للناس والحج» تنبيهاً على أنه الأولى بحالهم والمهم لهم..

ومنه قوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾[1]. فقد سألوه عن بيان ما ينفقون فأجيبوا ببيان المصرف للتنبيه

(١) سورة البقرة: ١٨٩.

على أنه هو المهم لهم وهو الذى ينبغى أن تتجه إليه هممهم وعنايتهم، فليس المهم أن يكون المنفق قليلاً أو كثيراً ذهباً أو فضة مادام من جنس الخير، ولكن المهم أن يصرف فيما ينبغى أن يصرف فيه وأن يقع فى موقعه المشروع ولله در القائل:

إن الصنيعـــة لا تكون صنيعــة   حتى يصاب بهـا طريــق المصنــع

فإذا صنعت صنيعة فاعمد بهــا   للـــه أو لـــذوى القرابـــة أودع

واقرأ قوله تعالى: ﴿**قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ . قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنـــتُم مُّوقِنِينَ . قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ . قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ . قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ . قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[٢]، تجد أن فرعو قد سأل عن رب العالمين يريد أن يعرف ذاته: «ما رب العالمين» أي: ما نوعه وما جنسه، ثم سأل من حوله معجباً ومتعجباً أيسمعون؟ ثم أكد جنون موسى - عليه السلام - وفى كل مرة يصرف موسى السؤال عن ظاهره ويجيب بما لا يتطلبه السؤال: رب السموات والأرض وما بينهما، ربكم رب آبائكم. . . رب المشرق والمغرب. . وذلك لينبههم إلى أن هذا هو المهم لهم وهو الذى ينبغى أن يسألوا عنه وأن يشغلوا به.

❒❒❒

أسلوب القلب:

ومنها أسلوب القلب وهو أن يجعل المتكلم أحد أجزاء الكلام مكان جزء آخر بجعله مكانه على وجه يثبت حكم كل منهما للآخر، فليس منه التقديم فى نحو قولك: فى الدار زيد، وضرب عمراً زيد؛ لأنك فى مثل هذا التقديم لم تثبت حكم المقدم للمؤخر ولا العكس.

وقد قسم البلاغيون القلب إلى قسمين:

١ - قلب معنوي: وهو أن يكون الداعى للقلب من جهة المعنى، وذلك لتوقف صحته

---

(١) سورة البقرة: ٢١٥.

(٢) سورة الشعراء: ٢٣ - ٢٨.

عليـه، ويكون اللفظ تابعـاً . . ومنه قـولـهم : عـرضت الناقـة على الحـوض، إذ الأصل : عرضت الحوض على الناقة، لأن المعروض عليه يجب أن يكون ذا شعور واختيار لأجل أن يميل إلى المعروض أو يحجم عنه، والداعي إلى هذا القلب هو أن المعتاد في ذلك أن يؤتى بالمعروض إلى المعروض عليه، ولما كانت الناقة هي التي يؤتى بهـا إلى الحوض، نزل كل منهما منزلة الآخر فأعطى حكمه . . ومثله قولك : أدخلت الخاتم في الإصبع والقلنسوة في الرأس، والثوب في الجسم، فالأصل أن يقـال : أدخلت الإصبع في الخاتم والرأس في القلنسوة والجسم في الثوب، وذلك لأن العادة جرت أن يتحرك بالمظروف نحو الظرف ولكن لما كان المظروف في الأمثلة وهو الإصبع والرأس والجسم ثابتاً، والظرف وهو الخاتم والقلنسوة والثوب متحركاً، نزل أحدهما منزلة الآخر فأعطى حكمه . . ومن ذلك قول رؤبة :

ومهمـه مغبـرة أرجـاؤه كـأن لـون أرضـه سمـاؤه

إذا الأصـل كـأن لـون سمائه لغبرتها لون أرضـه فقلب التشبيه لقصـد المبـالغة . . .

وقول أبي تمام يصف قلم الممدوح :

لعاب الأفاعي القاتـلات لعابـه وأَرْيُ الجَنَى اشْتَارتْه أيد عواسـل[1]

والأصل : لعابه لعاب الأفاعي وأرى الجني، فقلب التشبيه للمبالغة . . .

وقول محمد بن وهيب :

وبـدا الصبـاح كأن غرتـه وجـه الخليفـة حين يمتـدح

والأصل تشبيه وجه الخليفة بغرة الصباح فعكس مبالغة في التشبيه . .

ومنه قول الآخر :

رأين شيخـاً قـد تحنى صلبـه يمشي فيقعـس أو يكب فيعـثـر

والأصل : أو يعثر فيكب، فقلب مبالغة في ضعفه ووهنه وأنه صار يعثر حتى في أثناء انكبابه . .

٢- قلب لفظي : وهو أن يكون الداعي إليه من جهة اللفظ، بأن تتوقف صحة اللفظ

(١) أري الجنى : العسل من إضافة الموصوف للصفة، واشتارته : جنته والأيدي العواسل : العارفة بجنيه، والصفة الأولى صفة القلم مع الأعداء والثانية صفته مع الأصدقاء .

عليه، ويكون المعنى تابعاً، كما إذا وقع ما هو فى موقع المبتدأ نكرة وما هو فى موقع الخبر معرفة . . ومثاله قول القطامي :

قفى قبــل التفــرق ياضباعـــاً   ولا يك موقـف منـك الوداعــا(١)

والقلب فى قوله : ولا يك موقف منك الوداع، لأن الشاعر عرف «الوداع» وهو فى موضع الخبر، ونكر «موقف منك» وهو فى موضع المبتدأ، فهو قلب لفظى والأصل . ولا يك موقف الوداع موقفاً منك، إذ لا يصح الإخبار بالمعرفة عن النكرة ولذا جعل من القلب، ولو أن الشاعر قال ولا يك موقف منك وداعاً بتنكير «الوداع» لاستغنى عن تقدير القلب فى البيت، لأنه عندئذ يكون الأسلوب قد جاء على الأصل من الإخبار بالنكرة عن النكرة المعتمدة على مسـوغ وهو الوصـف : «منك» والنهي : «لايك» وهذا قد أجازه النحاة . . ومنه أيضاً قول حسان :

كـأن سبيئـة من بيـت رأس   يكـون مزاجَهـا عسـل ومـــاء

على أنيابهــا أو طعـم غـض   مـن التفــاح عصـــره اجتناء(٢)

فقوله : يكون مزاجها عسل وماء قلب لفظي، لأنه نكر ما فى موضع المبتدأ وعرف ما فى موضع الخبر، والأصل فيهما العكس - كما عرفت- ويروى البيت برفع «مزاجها على أن اسم يكون ضمير الشأن وجملة : مزاجها عسل وماء خبرها، وعندئذ فلا قلب فى البيت .

آراء البلاغيين فى أسلوب القلب:

اختلف البلاغيون فى أسلوب القلب، فبعضهم يقبله مطلقاً، ولو أوهم خلاف المراد، ومن هؤلاء السكاكي، وحجتهم أنه أسلوب يورث الكلام ملاحة ولطفاً، لأن قلب الكلام مما يحوج إلى التفكر والتنبيه للأصل . . ورده بعضهم مطلقاً، واحتجوا بأن الكلام إنما وضع لإفادة ما يصح، والقلب يؤدى إلى ما لا يصح، لأنه عكس للمطلوب ويرى

(١) الألف في : «ضباعا» للإطلاق وهو مرخم ضباعة اسم بنت للقطامي وقيل اسم امرأة غيرها . .

(٢) السبيئة : الخمر المشتراة للشراب، وبيت رأس بلد بالشام بين رملة وغزة، والغض : الطري؛ وقوله : عصره بمعنى أسأله كناية عن إدراكه وقت نضجه ، شبه ريق محبوبته بخمر مزجت بعسل أو بسائل التفاح .

الجمهور أن القلب لا يمكن إنكاره ورده لأنه وارد على ألسنة العرب وكثيراً ما يكون له اعتبارات لطيفة ومزايا حسنة، كما أنه لا يمكن قبوله مطلقاً، لأنه قد يوهم خلاف المراد، وقد يرد ولا يكون وراءه اعتبار لطيف ولذا فهم يقبلون منه ما تضمن اعتباراً لطيفاً زائداً على مجرد الملاحة، كما رأيت في الأمثلة والشواهد المتقدمة. ويردون ما لا يتضمن اعتباراً لطيفاً؛ لأنه عندئذ يكون عكساً للمراد وعدولاً عن الظاهر بلا نكتة يعتد بها . . فمن ذلك القلب المردود قول القطامي ناقته:

فلما أن جـرى سمـن عليهـا ... كمـا طينت بالفـدن السياعـا

أمـرت بها الرجال ليأخذوها ... ونحن نظن أن لن تستطاعا[1]

يريد: أنها صارت ملساء من السمن كالقصر المطين بالسياع، وفي ذلك قلب معنوي، إذ الأصل: كما طينت الفدن بالسياع، فإن حمل السياع على الآلة التي يطين بها، فليس وراء القلب عندئذ اعتبار لطيف، وإن حمل على الطين فيجوز أن يكون المقصود المبالغة في سمنها لأنه يقصد عندئذ تشبيه السمن بالسياع الذي صار لكثرته كأنه الأصل، والفدن هو الفرع فكذلك السمن قد صار ضخماً عظيماً، ولكن هذا لا يخلو من تكلف كما ترى. . ومنه قول قطرى بن الفجاءة:

لا يركنن أحـد إلى الإحجـام ... يوم الوغى متخوفاً لحمـام

فلقـد أراني للرمـاح دريئـة ... مـن عـن يميني مـرة وأمامي

حتى خضبت بما تحـدر من دمي ... أكناف سرجي أو عنـان لجامي

ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب ... جـذع البصيـرة قـارح الإقدام[2]

والشاهد في البيت الأخير، إذ الجذع يطلق على حديث السن غير المجرب للأمور،

---

(١) الفدن؛ القصر. والسياع: الطين المخلوط بالتبن، أو الآلة التي يطين بها، يعني أنها صارت ملساء من السمن كالقصر المطين بالسياع، وقوله: أن لن تستطاع معناه: ألن يقدر عليها أحد لملاستها وضخامتها.

(٢) الإحجام: التأخر، والوغى: الحرب. والحمام: الموت. والدريئة: حلقة يتعلم عليها الطعن شبه نفسه بها وهي من الدرء بمعنى الدفع، وأكناف السرج: جوانبه، والعنان: سير اللجام. وجذع البصيرة بمعنى غير مجرب للأمور، وقارح الإقدام بمعنى إقدام أصحاب السن القديمة.

فالأصل أن يقال: جذع الإقدام قارح البصيرة، لأنه يفخر بنفسه ويتمدح، وهذا لا يتأتى إلا على القلب، إذ يقال في المدح: «إقدام غر ورأى مجرب» وبناء على ذلك فالقلب لم يتضمن معنى لطيفاً، بل أوهم خلاف المراد، وقد أجيب عنه بأنه لا قلب في البيت بل المعنى يحتمل أحد أمرين: أولهما: أن قوله: «لم أصب» بمعنى: لم أوجد وليست بمعنى: لم أجرح، بدليل البيت قبله، فإن الخضاب بما تحدر من دمه يدل على أنه جرح، وأيضاً فحوى كلامه ينبيء بأنه جرح ولم يمت، إذ يعلن أن الإقدام غير علة للحمام ويحث على الشجاعة وينفر من الفرار والإحجام، فمعنى البيت الأخير: ثم انصرفت وقد أصبت من الأعداء ولم أوجد جذع البصيرة قارح الإقدام بل وجدت: قارح البصيرة جذع الإقدام، وثانيهما: أنه يريد أن يشبه بصيرته بالجذع في عدم الاختلاط والتزلزل من الهول، وأن يشبه إقدامه بالقارح في الصبر والاحتمال، ولا يخفى عليك أن الإجابة الأولى أقوى وأقرب لأنها تتفق مع سياق الأبيات، وعلى كلتا الإجابتين فلا قلب في البيت كما هو واضح.

ومن القلب المردود قول عروة بن الورد:

فلو أني شهدت أبا سعاد ... غداة غدا لمهجته يفوق
فديت بنفسه نفسي ومالي ... وما آلوك إلا ما أطيق[1]

فالأصل: فديت نفسه بنفسي ومالي، وليس وراء هذا القلب اعتبار لطيف، لأنه يوهم خلاف المراد.. ومنه قول خداش:

وتلحق خيل لا هوادة بينها ... وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر[2]

فالأصل: وتشقى الضياطرة الحمر بالرماح فهو قلب معنوي لا تجد وراءه اعتباراً لطيفاً، وقد ذكر له سوى القلب وجهان: أحدهما أن يجعل شقاء الرماح بهم استعارة لكسرها وتحطيمها بطعنهم بها والثاني أن يجعل نفس طعنهم شقاء للرماح، تحقيراً لشأن الضياطرة، وأنهم ليسوا أهلاً لأن يطعنوا بها كما يقال:

شقي الخز بجسم فلان، إذا لم يكن أهلاً للبسه.. ومنه قول حسان السابق:

(١) يقال: فاق بمهجته ولمهجته يفوق: إذا أشرفت نفسه على الخروج أو خرجت. وما آلوك بمعنى: لم أقصر فيك.

(٢) الهوادة: اللين، والمعنى لا لين بين أصحابها. والضياطرة جمع ضيطر وهو اللحم اللئيم العظيم الإست. والحمر: جمع أحمر اللون وقيل هو الذي لا سلاح معه.

كـــأن سبيئـــة من بيـت رأس يكون مزاجهـــا عســـل ومـــاء

وقول القطامى وقد سبق أيضا :

قفـى قبـل التفــــرق ياضباعـــا ولا يـك موقـف منـك الوداعـــا

وقد وقفت على ما فى البيتين من قلب لفظى ليس وراءه اعتبار بلاغي، وتبين لك أن بيت حسان يمكن حمله على غير القلب .

هل يوجد أسلوب القلب فى النظم الكريم:

أجاب بعض البلاغيين بنعم وزعموا أن منه قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾(١)، على أن الأصل: جاءها بأسنا فأهلكناها. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾(٢)، والأصل ثم تدلى فدنا، وقوله تعالى: ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانــــظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾(٣)، والأصل: فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم، ومنع ذلك الجمهور، لأنه لا يوجد وراء تقدير القلب فى الآيات الكريمة اعتبار لطيف، ولذا رأوا أن الأصل فى الآيات: وكم من قرية أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا. ثم أراد الدنو من محمد - صلى الله عليه وسلم- فتدلى أى : فتعلق عليه فى الهواء. ثم تول عنهم أى : تَنَحَّ إلى مكان قريب تتوارى فيه ليكون ما يقولونه بمسمع منك، فانظر ماذا يرجعون، فيقال: إنه دخل عليها من كوة فألقى الكتاب إليها وتوارى فى الكوة ليسمع ما يقولون .

أسلوب التغليب :

(١) سورة الأعراف : ٤ .

(٢) سورة النجم : ٨ .

(٣) سورة النمل : ٢٨ .

ومنها التغليب وقد عرفوه بقولهم : هو إعطاء أحد المتصاحبين أو المتشابهين حكم الآخر بجعله موافقاً له في الهيئة أو المادة، كما في قوله تعالى : ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾[1] فكان مقتضى الظاهر أن يقال : وكانت من القانتات، ولكن النظم الكريم عدل عن ذلك فعد الأنثى من الذكور بحكم التغلب، وفيه إشعار بأنها قد بلغت في طاعتها مبلغ أولئك الرجال فعدت منهم . . ومن قوله تعالى : ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾[2] فقد أدخل شعيب - عليه السلام - في قوله : «لتعودن» بحكم التغليب، لأنه لم يكن في ملتهم أصلاً حتى يقال : إنه يعود فيها، وإنما غلب عليه الذين آمنوا معه، فعد منهم وكان مقتضى الظاهر أن يقال : أو ليعودن . . ومثله قوله جل وعلا : ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾[3] ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾[4] فقد عد إبليس من الملائكة بحكم التغليب . . وقوله عز وجل : ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[5] فمعنى «يذرؤكم فيه» : يبثكم ويكثركم في هذا التدبير وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجاً حتى كان بين الذكور والإناث التوالد والتناسل، وقد جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن للبث والتكثير، ولذا عبر بالحرف «في» دون «الباء» فقيل : «يذرؤكم فيه» ولم يقل : «به» ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾[6] ، حيث جعل القصاص كالمنبع والأصل للحياة . . والتغليب في الآية الكريمة تغليب العقلاء المخاطبين على الأنعام الغائبة، وكان مقتضى الظاهر أن يقال : يذرؤكم ويذرؤها فيه . .

ومن تغليب أحد المتشابهين على الآخر قولنا الأبوان للأب والأم والقمران للشمس والقمر، والعمران لعمر وعمرو . . ومن التغليب أيضاً خطاب الواحد خطاب الاثنين والجمع، وخطاب المثنى مخطابة الجمع، حيث يغلب المثنى على المفرد والجمع على المفرد

(١) سورة التحريم : ١٢ .

(٢) سورة الأعراف : ٨٨ .

(٣) سورة الأعراف : ٨٩ .

(٤) سورة البقرة : ٢٤ .

(٥) سورة الشورى : ١١ .

(٦) سورة البقرة : ١٧٩ .

والجمع على المثنى . . وهكذا . . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ ﴾[1] فكان مقتضى الظاهر أن يقال : وتكون لك الكبرياء فى الأرض، فعدل عن هذا إلى قوله : «لكما» تغليباً للمثنى على المفرد، والمراد بالمثنى : موسى وهارون - عليهما السلام - . . ومنه قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾[2] حيث غلب الجمع على الواحد وكان مقتضى الظاهر أن يقال : «إذا طلقت النساء فطلقهن» فعدل إلى الجمع ؛ لأنه حكم عام وتشريع للأمة وليس خاصاً به - عليه الصلاة والسلام - ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾[3] فكان مقتضى الظاهر أن يقال : واجعلا بيوتكما قبلة، فعدل عن ذلك إلى قوله جل وعلا : «واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة» تغليباً للجمع على المثنى، لأن الأمر لم يعد خاصاً بموسى وهارون، بل تجاوزهما إلى كل مكلف بلغ الرسالة.

المخالفة فى صيغ الأفعال :

ومن صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر المخالفة فى صيغ الأفعال بأن يعبر عن المستقبل بلفظ الماضى أو باسم الفاعل أو المفعول، وعن الماضى بلفظ المضارع، وعن المصدر أو المضارع بلفظ الأمر، وذلك لا يكون إلا لأغراض بلاغية ومزايا يقتضيها المقام ويهدف إليها البلاغى . . انظر إلى قوله تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾[4] تجد التعبير عن المضارع بلفظ الماضى فى الآية الكريمة لسر بلاغى، وهو إفادة تحقق الوقوع، وأن ما هو للواقع فى المستقبل وهو النفخ فى الصور وصعوق من فى السموات والأرض كالواقع الآن؛ لأنه واقع لا محالة . . ومثله قوله عز وجل : ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾[1] قيل : «ففزع» و «أتوه» والمراد : فيفزع

(١) سورة يونس : ٧٨ .

(٢) سورة الطلاق : ١ .

(٣) سورة يونس : ٨٧ .

(٤) سورة الزمر : ٦٨ .

ويأتونه، إذ الحدث لم يقع بعد، ولكن عبر عنه بالماضى إشارة إلى تحقق وقوعه، فهو واقع لا محالة .

وكذا القول فى الآيات الكريمة : ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ (٢) . ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ (٣) . ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً ﴾ (٤) فالتعبير بالماضى عن الأحداث المشار إليها جعل المتوقع الذى لا بد من وقوعه فى المستقبل بمنزلة الواقع المحقق، وهكذا عندما تقرأ أساليب القرآن الكريم تجد لهذا التعبير مذاقاً حلواً ووقعاً حسناً، اقرأ قوله تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ . وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ . وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ . فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ . وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ . قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ . تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾(٥) وتأمل الأفعال «أزلفت . . برزت . . قيل . . كبكبوا . . قالوا»، وكيف قربت الجنة للمتقين وهم ما زالوا أحياء فى الدنيا، وكيف برزت الجحيم، وقيل للغاوين ما قيل تبكيتاً، بل كيف قالوا هم : تاللّه إن كنا لفى ضلال مبين، وهم لا يزالون يعاندون فى الدنيا ويكابرون . . واقرأ قوله : ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ (٦) . . . وقوله تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ﴾ (٧) ، وقوله عز من قائل : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ . وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ . وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ . لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ . وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ (٨) وتأمل كيف طويت الأحداث فى الآيات وأبرزت تلك الأفعال محققة واقعه ويرجع ذلك إلى التعبير عنها بلفظ الماضى كما ترى . . ومثل ذلك التعبير عن المضارع باسم الفاعل كقوله تعالى :

(١) سورة النمل : ٨٧ .
(٢) سورة الكهف : ٢٧ .
(٣) سورة النحل : ١ .
(٤) سورة الأعراف : ٤٨ .
(٥) سورة الشعراء : ٩٠ - ٩٧ .
(٦) سورة النمل : ٩٠ .
(٧) سورة الزمر : ٦٩ .
(٨) سورة ق : ١٩ - ٢٣ .

﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [(١)] أو باسم المفعول كقوله عز وجل : ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [(٢)] ، فقد عبر فى الآيتين عما سيقع لا محالة باسم الفاعل واسم المفعول فأفاد ذلك تحقق وقوعه؛ لأن اسم الفاعل وكذلك اسم المفعول حقيقة فى المتلبس بالفعل فى الحال اتفاقاً وفى الماضى على قول ضعيف، فالتعبير بهما عن الواقع فى المستقبل يفيد تحقق وقوعه، وأنه لا محالة واقع . . .

ومن التعبير عن الماضى بلفظ المضارع قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ [(٣)] فقد عبر عن الماضى بلفظ المضارع فى قوله : «فتثير سحاباً» استحضاراً لصورته العجيبة البديعة الدالة على القدرة الباهرة، وكأنها واقعة أمامك وأنت تشاهدها الآن وتتأملها وتبصر ما فيها من عجب وغرابة فيكون تأثيرها أشد ووقعها أقوى . . ومثله قوله تعالى : ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [(٤)] أى : ما تلت فعبر بالمضارع استحضاراً لصورته العجيبة . . وكذا القول فى الآيات الكرمة : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [(٥)] وقوله تعالى : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[(٦)] وقوله تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [(٧)] وقد مرت بك هذه الآيات عند الحديث عن «لو» كما مر بك أيضاً التعبير بالمضارع عن الماضى فى قول تأبط شراً وزعمه أنه قد قتل الغول عندما تعرضت له فى الفلاة :

فشدت شـــدة نحـــوى فأهـوت ... لهـــا كفـــى بمصقـــول يمـــانى

فأضربها بهـا بلا دهـش فخـرت ... صريعـاً لليديـــن وللجـــران [(٨)]

---

(١) سورة الذاريات : ٦ .

(٢) سورة هود : ١٠٣ .

(٣) سورة فاطر : ٩ .

(٤) سورة البقرة : ١٠٢ .

(٥) سورة السجدة : ١٢ .

(٦) سورة الحج : ٣١ .

(٧) سورة آل عمران : ٥٩ .

(٨) ارجع إلى ص ١٩١ من هذا الكتاب .

فكان مقتضى الظاهر أن يقال : فكأنما خر من السماء فخطفته الطير أو هوت به الريح . . . ثم قال له كن فكان . . . فأهوت لها كفى فضربتها ولكن عدل عن هذا المقتضى إلى التعبير بالمضارع لإبراز تلك الأحداث وإحضارها ماثلة أمامك مشاهدة بناظريك ؛ لأنها أحداث عجيبة وغريبة . . تتخيل المشرك وقد خر من السماء والطير تخطفه أو الريح تهوى به إلى مكان سحيق . . وتمثل أمامك القدرة الإلهية ؛ «كن فيكون» وتصور تأبط شراً يصارع الغول ويضربها فتخر صريعاً ويريح الإنسانية من شرها ومن شر الإخافة بها . . ثم تأمل قوله عز وجل : ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ . فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (1) حيث لم يعبر بالماضى فيقال : «إذ حكما فى الحرث» ولا باسم الفاعل فيقال : «مسبحات» حسب مقتضى الظاهر ، ولكن عدل عنه إلى المضارع إبرازاً وإحضاراً لصورة الحدثين وهما يقعان وكأن القارئ يشاهدهما يحدثان أمامه . . ومثل التعبير بالمضرع عن الماضى استحضاراً وإبرازاً لصورته العجيبة ، التعبير به عن اسم الفاعل أو اسم المفعول كما فى الآية السابقة وكما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴾ (2) ، فمقتضى الظاهر أن يقال : «مسبحات» لأن التسبيح قد وقع فى زمن داود عليه السلام ، ولكن النظم الكريم خالف هذا الظاهر رعبر باامضارع : «يسبحن» ليحضر الحدث من الماض البعيد ويبرزه فى مقام المشاهدة وكأنك تنظر إلى هذا الحدث العجيب واقعاً أمامك ، وذلك لأن تسبيح الجبال وتأويبها مع داود من الأحداث العجيبة الدالة على قدرة الله عز وجل . ومثله قوله تعالى : ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ (3) ، وقوله عز وجل : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ (4) فكان مقتضى الظاهر أن يقال : فسخرنا له الريح جارية بأمره . . ولسليمان الريح عاصفة جارية بأمره . . ولكن عدل عن هذا الظاهر فعبر بالمضارع إحضاراً لتلك لصورة العجيبة الدالة على القدرة الإلهية وكأنك حين تقرأ الآيات

---

(1) سورة الأنبياء : ٧٨ ، ٧٩ .

(2) سورة ص : ١٨ .

(3) سورة ص : ٣٦ .

(4) سورة الأنبياء : ٨١ .

نشاهد الريح تجرى بأمر سليمان عليه السلام، و تتمثل صورة جريانها بقدرة الله تعالى وتسخير الله إياها له عليه السلام .

وقد يعبر بفعل الأمر عن الماضى أو المضارع كما فى قوله تعالى : ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (١) إذ كان مقتضى الظاهر أن يقال : أمر ربى بالقسط وبإقامة وجوهكم ودعوته مخلصين . . فعدل عن هذا الظاهر إلى الأمر : «وأقيموا . . وادعوه» للدلالة على مزيد العناية بالمأمور به، وإفادة أن السامع ينبغى أن يلتفت إليه، وأن يؤمر به، وينبه إلى عظمه وأهميته . . وتأمل قوله تعالى : ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ . إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٢) تجد أن مقتضى الظاهر أن يقال : أشهد الله وأشهدكم فعدل عن ذلك إلى الأمر : «واشهدوا» لمغزى بلاغى جليل وهو أن فى أمرهم أن يشهدوا ببراءته من دينهم ضرباً من التحدى الذى ينبئ بحقارة ما يعبدون . وفيه أيضاً دلالة على أن إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم، ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب، ولذا عدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما . . .

هذا وبعض البلاغيين كالعلوى صاحب الطراز وابن الأثير صاحب المثل السائر، يجعل مخالفة مقتضى الظاهر فى صيغ الأفعال من باب الالتفات الذى مر بك، كما يجعلون منه أيضاً مخاطبة الواحد خطاب المثنى أو الجمع ومخاطبة المثنى خطاب الجمع أو الواحد ونحو ذلك مما يخرج فيه الكلام عن مقتضى الظاهر، إذ يرون أن الالتفات هو العدول عن أسلوب فى الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول، ويقولون إن هذا أحسن من قصره على العدول من غيبة إلى خطاب ومن خطاب إلى غيبة، أى : من قصره على الانتقال من إحدى طرق الكلام إلى الأخرى، كما مر بك . .

وأيا ما كان الأمر فلا نرى لمثل هذا الخلاف فائدة، لأن المهم هو أن تعرف هذه الصور التى خالفت مقتضى الظاهر، وتقف على ما وراءها من مزايا وأسرار بلاغية، أما كونها من

(١) سورة الأعراف : ٢٩ .

(٢) سورة هود : ٥٣ ، ٥٤ .

الالتفات أو جعلها صوراً مستقلة عنه، فإن ذلك لن يفيد الدارس شيئاً، ولذا ضربنا صفحاً عن مناقشة مثل هذه الخلافات . .

تم بحمد الله تعالى الجزء الأول من كتاب «علم المعانى دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعانى»، ويليه بمشيئة الله تعالى الجزء الثانى وأوله أسلوب القصر . . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . وصل اللهم على رسولنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

في ٣٠ جمادى الآخرة سنة ١٤٠٧هـ

عنيزة – القصيم

المؤلف

د/ بسيونى عبد الفتاح



محتويات الجزء الأول

الموضـــوع